أوربا فى بحر الظلمات

دكتــور
إســحــق عــبيــد

تقــديم
د. حياة ناصر الحجى

دار القـلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أوربا فى بحر الظلمات

الطبعة الأولى
١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

مـــدينةُ التـــيـــبـــرْ
اغـــتـــالتْ القـــيـــصـــرْ
اليـــومَ تنعى فـــيـــالقـــهـــا
تحت حـــوافـــر البـــريـر

* * *

الكلتُ هبتْ من منيـــتـــهـــا
وجـــاءت الغـــالُ تثـــأر
ذئابُ القـــوط مُتـــخـــمـــةُ
بذبيـــحـــة الكاهن الأكـــبـــر

* * *

ديـدو فـى قـــرطـاج تبكى
وإينيـاس فى الأكـفـان يجـأر
أبـــولـــلـــو ! أيـــن أنـــت
وأين صـــواعقُ جـــوبيـــتـــر !

محتويات الكتاب

** ** **

مقدمة

يعالج هذا العمل أحوال أوربا فى العصور الوسطى فى الفترة التى امتدت من القرن الرابع حتى القرن الخامس عشر للميلاد . وهى الحقبة الزمنية التى يطلق عليها الكتاب عادة « عصور الظلام » . وفى هذه المعالجة لا نهتم كثيراً بتفاصيل الأحداث واللهث وراء الوقائع والتواريخ بقدر محاولة رسم صورة لروح العصر من خلال سماته العامة ونظمه التى أقيمت على بقايا الحطام بعد أن سقطت مدينة روما تحت حوافر خيول المتبربرين من مغول وجرمان ، مع وقفة عند عوامل انهيار وسقوط الحضارات بصفة عامة والحضارة الرومانية على وجه الخصوص . وسوف يتضح من البحث أن روما كانت قد سقطت بالفعل من الداخل قبل أن يصل الجرمان إلى مسرح الأحداث لإعلان سقوطها الرسمى سنة ٤١٠م . ثم ننتقل بعد ذلك لرصد الجهود التى بذلت لإلتقاط مابقى من حطام رومانى وبعثه من الأكفان وذلك على أيدى قبيلة جرمانية هى جماعة الفرنجة بدءاً بكلوفس ووصولاً إلى شرلمان ، الذى أقام بنياناً جرمانياً ـ رومانياً كان بمثابة النواة الأولى للخريطة الأوربية فيما تلا من تاريخ .

ونعرض فى هذا الكتاب أيضاً لقضية الصراع العنيف الذى احتدم بين السلطان البابوى ممثلاً فى الكاهن الأكبر للغرب اللاتينى وبين الامبراطورية المتجددة ممثلة فى خلفاء شرلمان ، والتى أطلق عليها أصحابها اسم «الامبراطورية الرومانية المقدسة»، والتى لم تكن فى الواقع رومانية ولا مقدسة . ثم نلقى نظرة فاحصة على

الهرم الإقطاعى فى أوربا بحثاً عن جذوره الرومانية والجرمانية ، وتحليلاً لطبقاته الثلاث الضاغطة على قاعدة الهرم البائسة من الأقنان وهم السواد الأعظم الذين تحولوا من أحرار إلى عبيد للأرض فى القرى ... والكفور والنجوع ، ووصولاً إلى ثورات الأقنان فى كل من فلاندرز وفرنسا وانجلترا فى القرن الرابع عشر .

وأخيراً نعالج الأفكار والتعاليم التى تبنتها فئات من مختلف البلدان الأوربية من طبقات الكادحين والمعدمين والبسطاء ومن أوساط النابهين من رجال الدين ، وهم الذين دمغتهم الدوائر الدينيية والعلمانية بالهراطقة حيناً « والأطهار »حيناً آخر . ولقمع الأطهار أقامت الكنيسة الرومانية محاكم التفتيش التى مارست أساليب بشعة من القمع بالحديد والنار للقضاء على أصحاب الفكر المخالف أو « المهرطق » حسب لغة العصر . وينتهى الخطاب بعرض لرواد الإصلاح فى أوربا الذين قبلوا التحدى بدءاً بجون ويكلف ومروراً بجون هس وساڤونا رولا ووصولاً إلى مارتن لوثر . وهؤلاء جميعا هم الذين بشروا بغروب شمس العصور الوسطى وقرب انبلاج فجر عصر النهضة .

وأود الإشارة فى هذا المقام إلى أننى قد استعنت فى أكثر من موضع بمؤلفاتى السابقة حول موضوعات متفرقة وجزئية ـ يرد ذكرها فى الهوامش ـ لإخراج هذه الصورة المتكاملة لأوربا فى بحر الظلمات ، بدءاً بانهيار الامبراطورية الرومانية فى القرن الرابع ووصولاً إلى حركة الإصلاح الدينى فى أوائل القرن السادس عشر .

** ** **

تقديم

الدكتورة حياة ناصر الحجي
أستاذة تاريخ العصور الوسطى
قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة الكويت

تنتهج الدراسات التاريخية فى العقود الأخيرة من القرن الحالى منهجاً جديداً فى البحث العلمى التاريخى بحيث تعتمد فى موضوعها على ما يتصل بالحضارة الإنسانية بجميع صورها ، وفى معالجتها على جزئيات تلك الحضارة وتفاصيلها ، وفى منهجها على التحليل التاريخى ، وفى أسلوبها على التفسير المنطقى . ومن هذا المنطلق يظهر لنا سقوط روما Roma عام ٤٧٦ م ضخماً فى واقعته ، متشعباً فى أسبابه ، شاملاً فى نتائجه .

يقول البارى عز وجل فى كتابه الكريم :

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[١] صدق الله العظيم .

وقال سيدنا عيسى عليه السلام : « إن مدينتى ليست فى هذا العالم »[٢].

فهل كان سقوط روما إنذاراً لشعوب القرن الخامس الميلادى بأن الخلود فى الآخرة ، وأن الامبراطورية الرمانية Roman Empire على عظمتها ، واتساع

---

(١) الآية ١١ : سورة الرعد .

(٢) اعتمد القديس أوغسطين Augustine of Hippo فى كتابه « مدينة الله » De Civitate Dei على هذه المقولة .

أرجائها ، وامتداد رقعتها انتهت بالسقوط ؟سنجد الإجابة عن هذه التساؤلات في بداية هذا الكتاب القيم الذى يقدمه الأستاذ الدكتور إسحق عبيد لمن يطلب العلم رغبة فى الوصول إلى الحقيقة .

وربما يعتبر سقوط روما Roma حدثاً صغيراً فى واقعته العسكرية ، إلا أنه ضخم فى أسبابه ونتائجه ، خطير فيما تلاه من متغيرات تاريخية وحضارية غيرت الصورة الحضارية ، والتركيبة البشرية لعالم أوربا العصور الوسطى .

يقول المؤرخ الكبير إدوارد جيبون Edward Gibbon فى كتابه «إضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية» " The Decline and the Fall of the Roman Empire" إن الإمبراطورية الرومانية Roman Empire كان يمكن أن تستمر حتى القرن العاشر الميلادى لولا قدوم الجرمان . وبذا يشمل سقوط روما Roma ذلك العدوان البربرى الذى شمل كافة ولايات القسم الغربى من الإمبراطورية الرومانية . ومن ثم اعتبر جيبون Gibbon الحقبة التالية لسقوط الإمبراطورية الرومانية مرحلة من الإنحدار البربرى الذى هيأ الفرصة للتفوق الكنسى.

ولعل السؤال الذى يطرحه الدكتور إسحق عبيد لماذا سقطت الإمبراطورية ؟ يوضح أهمية هذا الحدث . من المؤكد أن ذلك الحدث لم يخطر على بال أحد فى بدايات القرن الأول الميلادى !! أو بالأحرى كيف سقطت الإمبراطورية الرومانية Roman Empire وهى التى جمعت بين حدودها مراكز الأدب ، ومواقع الانتصارات العسكرية ؟ يبدأ الدكتور إسحق عبيد كتابه مع عهد أوكتافيان أغسطس Augustus الذى كان وراء الطمأنينة الاجتماعية وإزدهار

الفنون والآداب ، وسلامة الحدود من الضغوط الجرمانية . وبذلك كان أوكتافيان أغسطس أول الأباطرة Pontifex Maximus العظماء الذين أسهموا فيما يسمى بنهضة الإمبراطورية الرومانية فى عصرها الذهبى The Golden Age فى القرنين الأول والثانى للميلاد . وقد سجل المؤرخ إدوارد جيبون Edward Gibbon فى كتابه الآنف الذكر الكثير من مظاهر الازدهار الفنى والأدبى والفكرى حتى لتعتبر قراءة تلك الصفحات من ذلك الكتاب التاريخى متعة فكرية لا حدود لها ، وتعبر فى الوقت ذاته عن أجمل فترات التاريخ الإمبراطورى الرومانى. ويكفى دليلاً على عظمة الإمبراطورية أنها ضمت بين حدودها شعوباً اختلفت فى أعراقها ، ولغاتها ، وأديانها ، وتقاليدها ، ومع ذلك لم تحس تلك الشعوب إبان عظمة الإمبراطورية بالنفور من الحكم الأجنبى ، ولكن تلك العظمة بدأت تتلاشى مع توقف الفتوحات العسكرية ، وتململ الطبقات الاجتماعية التى لم تعد قادرة على تأمين الطمأنينة النفسية لتلك الشعوب حتى أولئك الذين قطنوا الولايات القريبة من إيطاليا والبلقان .

وهنا تظهر أهمية المنهج الذى اتبعه الدكتور إسحق عبيد فى كتابه هذا من خلال اهتمامه بالجزئيات التى أغفلها المؤرخ العربى فى العقود السابقة ، بينما أولاها المؤرخ الأجنبى عناية خاصة فى الفحص والتحليل .

إن هذه الجزئيات التى تضمنتها التفاعلات الاجتماعية هى التى شكلت واقع المجتمع الرومانى ، وبالتالى كانت محوراً أساسياً فى سقوط الإمبراطورية الرومانية Roman Empire ، وهو الأمر الذى كان بعيداً بل مستحيلا فى القرنين الأول والثانى للميلاد. لقد بدأ سقوط الإمبراطورية من الداخل تدريجياً، فلما حل القرن الرابع الميلادى فى عقوده المتأخرة كانت أشبه ما يكون بالطبل

مدوياً فى إيقاعه ، فارغاً فى جوفه .

ويعدد الدكتور إسحق عبيد فى كتابه هذا الكثير من الأسباب الداخلية التى أسهمت إسهاماً رئيسياً ومباشراً فى سقوط الإمبراطورية الرومانية ، وهى العبودية Slavery فى أفظع صورها وأقسى أشكالها ، وانهيار دويلة المدينة ، وأزمة الأخلاقيات التى أدت إلى سقوط المواطن الرومانى المترف ، واللهث وراء مظاهر الترف ، وتفشى الشهوات المادية بكافة أشكالها ، والإسراف فى الصرف على الملذات وصور البذخ المفرط ، مع تمتع الرومان بكل شئ وحرمان الشعوب المحكومة من جميع الأشياء حتى أبسطها وأكثرها ضرورة ، كل هذا مع عدم عدالة النظام الضرائبى ، وفشل كبار الأباطرة المصلحين من أمثال قسطنطين Costantine فى وضع برنامج ضرائبى يتناسب مع دخل الأفراد فى جميع الطبقات ، فساهم بشكل غير مباشر فى ضياع الحرية الفردية والفكرية معاً . وفى ظلمات هذا الإنهيار الاجتماعى والأخلاقى والاقتصادى ظهرت المسيحية Christianity تدعو إلى أجمل المبادئ وأبسطها ، فكان الإقبال عليها كثيفاً فى مراحلها السرية الأولى بين الطبقات الدنيا ، ثم مراحلها العلنية بين الطبقات الأرستقراطية الغنية . ولم يستطع نيرون فى حريق روما المتعمد عام ٦٤ م ، ولا دقلديانوس Diocletian فى سنوات عصر الشهداء فى الأعوام الثمانية الأخيرة من حكمه ٢٩٧ ـ ٣٠٥ م أن يقضى بأعماله الوحشية على المسيحيين أو يقمع تلك المبادئ الإنسانية التى كان المجتمع الرومانى متعطشاً لها ، فكان مرسوم ميلان عام ٣١٣ م هو الحل الأفضل لا من أجل تحقيق العدالة الإجتماعية ـ حلم المسيحيين ـ ولكن لعدم القدرة على مواجهة هذا المد القوى

بمبادئه وأتباعه . لقد حاول الدكتور إسحق عبيد فى الفصل الأول من هذا الكتاب أن يعطى صورة متكاملة عن المجريات الداخلية فى الإمبراطورية الرومانية، ونجح إلى درجة نجد فيها هذه الصورة تكاد تكون ناطقة بمنهجه التحليلى وأسلوبه الأدبى.

وفى الفصل الثانى يعالج الدكتور إسحق عبيد موضوع الهجمات البربرية ضد الإمبراطورية الرومانية Roman Empire متتبعاً تحركاتها باتجاه حدودها منذ العقود الخمسة قبل الميلاد ، مغطياً بذلك مراحلها الثلاث فى التوغل داخل الإمبراطورية ، من مرحلة الضغط على الحدود الشمالية إلى مرحلة الهجوم والفرار ، وأخيراً مرحلة الإعتداء ثم الاستقرار . وقد استغرقت هذه المراحل الثلاث أربعة قرون حتى وقعت هزيمة الجيش الرومانى عام ٣٧٦ م فى موقعة « أدرنة » أمام جحافل القوط ، ومقتل الإمبراطور فالنس Valens . وهنا يظهر تغيير واضح فى العلاقات الرومانية ـ البربرية حيث نجد لأول مرة إمبراطوراً رومانياً كبيراً يعقد تعاهدا مع جماعة بربرية ، وهو الأمر الذى لم يكن يخطر على بال أحد من أباطرة القرن الأول أو الثانى الميلادى .

يعتبر اتفاق الإمبراطور ثيودسيوس Theodosius مع القوط نقطة تحول كبيرة فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية ، ومنعطفاً خطيراً فى تاريخ التحركات الجرمانية . وربما يكون ثيودسيوس قد أراد أن يخفف من ردة الفعل الشديدة فى القسطنطينية Constantinople نحو هذا الاتفاق ، فأصدر مرسومه الإمبراطورى عام ٣٩٥ م بأن المسيحية هى الديانة الرسمية الوحيدة فى الإمبراطورية الرومانية ، وبذلك ألغى فيما عداها من وثنيات على اختلاف أنواعها .

ولكن دخول القوط بزعامة ألارك Alaric مدينة روما كان كارثة زعزعت إيمان الكثيرين ممن اعتنقوا المسيحية حديثاً ، إذ كيف يصدق من يعيش فى تلك المدينة الكلاسيكية المقدسة أن تكون مدخلاً سهلاً لأولئك البرابرة ، فيعبثون بكنوزها الجميلة ، وقصورها البديعة . ويعد دخول القوط الوحشى هذا لمدينة روما عام ٤١٠ م ، أول كارثة عسكرية ترتعد لها منتزهات المدينة وشوارعها حيث اختلطت الزهور بالدماء ، وانصهرت الفضة تحت ألسنة النيران.

ثم جاء الحصار الهونى بقيادة أتيلا Attila فى منتصف القرن الخامس الميلادى ، وارتياع المدينة بين خوف المواطنين ، واستعدادات القائد ستيلكو للدفاع عنها ، ولكن الوفد البابوى نجح بفديته الثمينة أن يرد أتيلا Attila والهون المتوحشين إلى ولاية بانونيا حيث توفى أتيلا وهو فى الطريق إليها عام ٤٥٣ م . وأخيراً حلت الكارثة الحضارية القاسية بدخول الوندال Vandals إلى روما حيث لم تنفع كنوز كاتدرائية القديس بطرس ST. Peter Churchفى إخراجه من هذه المدينة التاريخية رأفة بأهلها ، ومعابدها ، وقصورها .

ومن جانب آخر عجزت السلطة الإمبراطورية عن هزيمة الوندال فى شمال أفريقيا حتى وفاة زعيمهم جنزريك Genseric عام ٤٧٧م . وبعد ذلك نجح الإمبراطور الشرقى جستنيان Justinan فى وضع الخطة العسكرية المناسبة لهزيمة الوندال ، فانتصر عليهم قائده بلزاريوس عام ٥٣٣م . وبهذا العرض المتكامل يكون الدكتور إسحق عبيد قد أعطى القارئ عرضاً متكاملا لملحمة عسكرية بين حضارتين متناقضتين فى جميع النواحى ، موضحاً فى الوقت

ذاته نتائج ذلك الاحتكاك الحربى أحياناً ، والدبلوماسى أحياناً أخرى ، مسهباً فى تفسير أسباب تلك التنقلات السريعة للجحافل البربرية عبر الولايات الرومانية. كما نجح فى إبراز كل ذلك بأسلوب بسيط لا يعجز القارئ إطلاقاً عن فهمه واستيعاب ما ورائه .

أما نتائج ذلك الاحتكاك البشرى فقد أفرد لها فصلاً مستقلاً وهو الفصل الثالث الذى يعالج فيه ولادة الإمبراطورية الكارولنجية وتتويج شارلمان عام ٨٠٠م كأول إمبراطور جرمانى فى أوربا العصور الوسطى . ترجع الجذور التاريخية لهذه الإمبراطورية إلى كلوفس Clovis زعيم الفرنجة ، وانتصاره على الرومان فى «غاليا» ، ثم هزيمته للقبائل الجرمانية الأخرى حتى أقام كياناً سياسياً كبيراً ضم كافة أنحاء « غاليا » ، فكأنه بهذا وضع القاعدة المكانية للإمبراطورية الكارولنجية ، فلما ظهر كارل مارتل قائد الفرنجة فى موقعة « تور - بواتييه » أو «بلاط الشهداء» وضع الأسس السياسية التى اعتمد عليها شارلمان فى بناء إمبراطوريته . فلما انتصر بيبين Pepein على اللمبارديين ، ثم سحقهم شارلمان نهائياً عام ٧٧٣م عندما حاصر بافيا ، وأسر ملك اللمبارديين ديزدير ، وأتم فتح بافيا عاصمة اللمبارديين يكون قد أكمل بناء إمبراطوريته .

كان شارلمان قائداً فذاً ، وزعيماً طموحاً ، فعمل على تحقيق هدفه الأكبر فى أن يكون إمبراطوراً لأكبر كيان جرمانى فى أوربا العصور الوسطى . وقد تحقق ذلك الحلم الكبير سنة ٨٠٠م ليلة عيد الميلاد فى كنيسة القديس بطرس فى مدينة روما . وبذلك كسبت البابوية حليفاً تعجز الإمبراطورية الشرقية عن مواجهته ، وتتراجع القبائل الجرمانية أمام قوته ، كما حظيت بنصير للمسيحية استخدم الكلمة والسيف من أجل التبشير بالمسيحية ، كما بذل المال فى سبيل

بنا الكنائس والأديرة فى جميع أرجاء الإمبراطورية .

وكما كان هذا الإمبراطور عسكرياً وسياسياً كان أديباً وفناناً وإدارياً . وتتجلى الصورة البديعة لنهضة الإمبراطورية الكارولنجية فى تلك الشخصيات من الأدباء والعلماء الذين ازدهر بهم بلاط الإمبراطور شارلمان مثل الكوين Alcuin الإنجليزى ، وثيولفوس شاعر البلاط ، والمؤرخ بولس الشماس ، واينهارد صاحب كتاب « سيرة شارل العظيم » .

لعل أهم ما يتميز به هذا الفصل ذلك التحليل التاريخى للعلاقة بين البابوية والفرنجة ، ثم التفسير المنطقى لطبيعة العلاقات الكارولنجية ـ البيزنطية من ناحية ، والكارولنجية ـ البابوية من ناحية أخرى .

علاوة على ذلك يظهر ذلك العرض الرائع للجوانب الحضارية للنهضة الكارولنجية فى أسلوب أدبى رائع يكاد يكون شعراً .

أما عملية التوثيق فى هذا الكتاب فتتجلى بشكل واضح فى توثيق مراحل الكفاح بين السلطتين الزمنية والدينية التى أفرد لها الدكتور إسحق عبيد الفصل الرابع ، وفى رأيى إن جذور هذا الصراع تكمن فى موقف الإمبراطور دقلديانوس من المسيحيين فى السنوات الثمانى الأخيرة من حكمه وهو الذى لقب بسفاح المسيحيين ... لقد أدرك هذا الإمبراطور إن كبار رجال الدين يسعون ليس فقط إلى التبشير بالديانة المسيحية ، ولكن إلى السلطة وما يندرج تحتها من صلاحيات وامتيازات فى الحكم والإدارة ، فأراد ـ من وجهة نظره ـ أن يقطع الطريق بهذا الموقف الوحشى مع أتباع الديانة الجديدة ، ولكن النتائج العكسية لهذا الموقف الصارم أثبتت عدم جدوى الوقوف أمام التيار المسيحى الهادر . ثم

جاء الاعتراف بالديانة المسيحية فى عهد الإمبراطور قسطنطين Constantine الكبير عام ٣١٣ م بمقتضى مرسوم ميلان . وتلى ذلك ظهور السلطة البابوية التى وضع البابا جريجورى الأول Gregory I قواعدها الأولى . ومنذ القرن السادس الميلادى ظهرت الأنظمة الرهبانية الجماعية : النظام البندكتى Bene-dict ، ثم النظام الكلونى Cluny ، وأخيراً النظام السسترشيانى Cistercian Or-der وقد لعبت هذه الأنظمة الديرية دوراً كبيراً فى دعم السلطة البابوية من خلال حركات التبشير ، وبناء الكنائس ، والأديرة .

وبدأت البابوية تعمل على تقوية جهازها بمختلف الوسائل المادية والمعنوية . وتعتبر حادثة إذلال الإمبراطور « هنرى الرابع » فى كانوسا Canossa أكبر دليل على ما وصلت إليه البابوية من سمو وسلطة .

ويعتبر التنافس السافر بين حكام الإمبراطورية الرومانية المقدسة والسلطة البابوية برهاناً واضحاً على الرغبة الشديدة لدى كلا الجانبين للقبض على زمام الأمور فى أوربا العصور الوسطى . وبقدر ما تسجل الحروب الصليبية انتصاراً مرموقاً للبابوية عندما استجابت أوربا جميعها لنداء البابا أوربان الثانى من مجمع كليرمونت ، فإن هزيمة الملك الفرنسى لويس التاسع ST. Louis فى المنصورة تعبر عن عجز البابوية عن نصرة الدعوة الصليبية ، وانشغالها بالخلافات مع الإمبراطور فردريك الثانى من أجل تأكيد امتيازاتها الدينية داخل حدود الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

لقد كان الدكتور إسحق عبيد موفقاً فى تتبع جوانب هذا الصراع بين السلطتين الدينية والزمنية فى استطراد منطقى مع توثيق دقيق لجميع جوانب

الموضوع ، مع بيان تحليلى لمواقف تلك السلسلة ـ المنسجمة أحياناً والمتناقضة أحيـاناً أخـرى ـ من البـابوات والأباطرة . ومع أن مـوضـوع الصـراع الزمنى ـ الدينى يعتبر من أصعب موضوعات تاريخ العصور الوسطى إلا أن المؤلف استطاع أن يعرضه فى صورة متكاملة تتميز ببساطة العرض مع عمق المدلول .

وبعد هذا العرض الجميل لأحوال الإمبراطورية الرومانية فى الداخل ، والتى كانت سبباً رئيسياً فى سقوط الإمبراطورية مع بيان دور الهجمات البربرية فى هذا الإنهيـار الذى لم يكن انهيـاراً سيـاسيـاً فحسب ، بل شـمل كـافة مظاهر التفوق الأدبى والفنى اللذين تميزت بهما الإمبراطورية الرومانية ، يتراءى وميض الاستقرار تدريجياً مع قدوم الفرنجة Franks إلى غـاليـا ، والعـمل على إرسـاء قواعد حكم مستقر واسع إنجلى عن ظهور الإمبراطورية الكارولنجية ، وما تميزت به من نهـضـة أدبيـة وفنيـة كـانت أصـدق مـا يكون فى التـعـبيـر عن التـلاحم الحضارى الرومانى ـ الجرمانى .

ومع جهود الحكام الكارولنجيين فى دعم السلطة البابوية Papacy ، بدأت تظهر بوادر التنافس والصراع بين السلطتين الزمنية والدينية .

وكما سجلت الحروب الصليبية انتصاراً سياسياً للبابوية تجلت أوضح صوره فى استجابة أوربا بجميع ممالكها وشعوبها لنداء البابا أوربان الثانى فى مجمع كليرمونت للدعوة الصليبية Crusade فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، كـذلك تسـجل واقعـة الأسر البـابلى انتـصـاراً للسلطة الزمنيـة وتراجعـاً للهـيـمنة البابوية.

وهنا لابد من التسـاؤل عن مـاهيـة الوضع الاقـتـصـادى ، وارتبـاطه بطبـيـعـة التـقـسـيم الاجـتـمـاعى فى أوربا العـصـور الوسطى ؟ هنا لابد لنا أن نقـرر إنه لا

الدكتور إسحق عبيد هذه الأهمية فخصص فصلاً كاملاً لدراسة نظام الإقطاع Feudalism ، وما ترتب عليه من متغيرات مختلفة .

وقد حاول الدكتور إسحق عبيد بنجاح أن يصل إلى الجذور الرومانية والجرمانية للإقطاع شارحاً فى مقدمة ذلك العرض بعض مظاهر التراجع الحضارى الذى شهده مجتمع أوربا العصور الوسطى ، من ذلك على سبيل الذكر لا الحصر عدم وجود آلة مناسبة لمعرفة الوقت ، إلى جانب انتشار الجهل بين معظم طبقات ذلك المجتمع . وقد هيأت الإمبراطورية الكارولنجية مناخاً مناسباً لتبلور النظام الإقطاعى ، كما وضعت الأسس التى اعتمد عليها النظام الملكى . وقد ضم هذا الفصل عرضاً متكاملاً للنظام الإقطاعى ، والعلاقة بين السيد الإقطاعى وأتباعه بمختلف رتبهم حتى نصل إلى طبقة العبيد منهم العاملين فى فلاحة الأرض وما يتبعها من أعمال ، مبيناً فى معرض ذلك حقوق وواجبات كل فئة بتفصيل لا يجد فيه الباحث منفذاً للتساؤل . ومع قسوة هذا النظام وإجحافه بحقوق الأقنان Serfs ظهر وميض أدب الفروسية Knighthood معبراً عن روح هذا العصر ، منبئاً عن ظهور ملامح النهضات الأوربية فى القرون التالية .

كما يوضح الدكتور إسحق عبيد إنه فى الوقت ذاته الذى تمتع فيه السيد الإقطاعى Lord بكل الحقوق ومظاهر الثراء ، فإن القن Serf كان عليه واجبات لا حصر لها ، وكان فى معيشته أبعد ما يكون من الراحة .

وهنا لابد من التساؤل ، لما استمر هذا النظام طيلة تلك القرون فى أوربا العصور الوسطى ؟نجد أن الإجابة تكمن فى تلك الظروف التى اقتضت وجود

ذلك النظام تحقيقاً للأمان الفردى والجماعى فى ظل عدم الاستقرار السياسى ، وأفول مظاهر التفوق الاقتصادى ، فلما تهيأت الفرصة المناسبة للاستقرار السياسى والتفوق الاقتصادى بمظاهره الزراعية ، والتجارية ، والصناعية ، بدأت مظاهر هذا النظام بالتراجع ثم الاختفاء تدريجياً . وتقع أهمية هذا الفصل فى تلك المعلومات الجديدة على القارئ العربى فى تفاصيل الحياة الاجتماعية لطبقتى الفلاحين والأقنان ، الأمر الذى يجعل قراة هذا الكتاب متعة تاريخية لا حدود لها . هناك مقولة معروفة تتضمن أنه عندما يشتد الظلام فإن النور سينبثق، وهذا هو الذى حدث فى أخريات القرون الوسطى فى أوربا ، وهى الفترة التى أطلق عليها الدكتور إسحق عبيد « جحيم العصور الوسطى » حيث ضمنها الفصل السادس وهو الأخير فى كتابه هذا ، حيث تناول فيها تهور البابوية والكنيسة الرومانية فيما عرف فى تلك العقود « بمحاكم التفتيش » . ويضم هذا الفصل شرحاً وافياً للنزاع بين الكنيسة الرومانية وجماعة « الأطهار » الساعين للخروج من عبودية النظام الإقطاعى بما أعطاه للسيد الإقطاعى من صلاحيات تلغى حريات الفلاحين والأقنان بكافة أشكالها ، فما كان من الكنيسة الرومانية Roman Church إلا أن تدعم « محاكم التفتيش » فى سبيل اجتثاث نشاطات جماعات الأطهار ، بل وإلصاق التهم المختلفة بهم فى سبيل جرهم إلى المحاكمات للحصول على أحكام جزائية تقمع مواقفهم ، وتلغى أهدافهم . ويلقى هذا الفصل الضوء على دور المدن الإيطالية الناهضة فى القرن الحادى عشر الميلادى والقرون التالية فى هذا الصراع ، وقد جر هذا الصراع إلى النزاع السافر بين البابوية والإمبراطورية . وقد ترجم ذلك النزاع

بأطرافه المتعددة فى ملحمة أدبية رائعة هى رائعة دانتى الليجيرى « الكوميديا الإلهية ». بالإضافة إلى ذلك ظهرت الآداب الشعبية معبرة عن مشاعر السخط والغضب لدى بسطاء الناس نحو تسلط الكنيسة الرومانية .

وعندما تمادت محاكم التفتيش فى اتهاماتها الباطلة وجزاءاتها المتعسفة ضد الفئات المختلفة كان لابد من ظهور بوادر الرفض التى تجلت واضحة فى حركات الإصلاح الدينى الرافضة لهذا التسلط الظالم . وتسجل شخصيات يوحنا وايكلف ، ويوحنا هس ، أبدع صور التنديد ضد خروج البابوية والكنيسة الرومانية عن تعاليمها المتسامحة الأولى . وبدأت هذه الشخصيات الإصلاحية تنادى بمبدأ العدالة الاجتماعية . وعلى الرغم من رد الفعل البابوى القاسى فإن البذور نبتت ، وبدأ إنسان القرن الخامس عشر الميلادى يتذوق حلاوة حقه فى حرية الفكر البناء ، والعمل المثمر . ومع تحقيق هدف الإنطلاق خارج الأسوار الحديدية التى أقامتها الكنيسة البابوية حول عقول شعوب العصور ظهرت حوادث التخلص من يوحنا هس وسافونا رولا حرقاً على وحشيتها ثمناً لا بأس به فى سبيل تلك الانطلاقة الحرة التى شكلت قاعدة الحضارة الأوربية فى العصور الحديثة . فلما ظهر مارتن لوثر متخماً بآراء أولئك الأوائل ، عازماً على نشرها ، وتطبيقها ، وحصد ثمارها ، كان فى عمله هذا الناسف لتلك الهيمنة البابوية الموهومة فى بداية القرن السادس عشر الميلادى . وهكذا يختتم الأستاذ الدكتور إسحق عبيد كتابه بهذا الانتصار الكبير للفكر الحر البناء .

يعتبر هذا الكتاب بحق ملحمة تاريخية فى إطار أدبى نكاد نسمع موسيقى ألفاظه من خلال السطور ، وقد ساعدت الميول الأدبية للكاتب على إنجاز هذه

الصياغة المعبرة حتى تجعل قراءة هذا الكتاب متعة حقيقية . علاوة على هذا كله فإن الكاتب توج هذه الملحمة بسلسلة من المصادر والمراجع الأجنبية والعربية ساعدت على توثيق المعلومات العلمية .

ومهما يكن من شئ فإن هذا المرجع لا يسجل إضافة جديدة إلى المكتبة العربية المختصة بتاريخ أوربا فى العصور الوسطى فحسب ، بل يفتح نافذة لطلاب التاريخ فى الوطن العربى من أجل الوصول إلى معرفة أكثر جلاء ، وصورة أفضل وضوحاً فيما يختص بهذه المرحلة من التاريخ الأوربى الوسيط .

دكتورة حياة نصار الحجى
أستاذة تاريخ العصور الوسطى
قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة الكويت

الفصل الأول

وداعاً للسلام الروماني

الإمبراطورية الرومانية فى مهب الريح

فى سنة ٤٩ ق. م اشتعلت الحرب الأهلية فى روما بين بومبى وقيصر ، وقد حلت الهزيمة ببومبى فى معركة فرسالوس ببلاد اليونان ، ففر إلى مصر حيث قتل فى العام التالى . وبعدها بسنوات أربع أعلن يوليوس قيصر نفسه دكتاتوراً مطلقاً ، على أن الغيورين على التقاليد الجمهورية فى مجلس السيناتو قاموا باغتياله فى قلب المجلس فى ١٥ مارس ٤٤ ق. م .

واشتعلت الحرب الأهلية من جديد بين معسكر أوكتاڤيان ومارك أنطونى ولبيدوس من ناحية وبين بروتوس وكاسيوس من ناحية ثانية . وقد جر هذا الصراع الدامى أطرافاً أخرى إلى القتال ، فقد وقف البارثيون مع معسكر بروتوس ، بينما ألقت مصر بثقلها وراء مليكتها كليوبترة وعشيقها الرومانى مارك أنطونى . وبعد هزيمة بروتوس وكاسيوس فى معركة فيليبى سنة ٤٢ ق. م ببلاد اليونان ، كون المنتصرون حلفاً ضمّ أوكتاڤيان ومارك أنطونى ولبيدوس . ولكن الخلاف سرعان ما دبّ بين الحلفاء ، فأزيح لبيدوس سنة ٣٦ ق . م . ثم مالبث الخلاف أن نشب بين أوكتاڤيان ومارك أنطونى . وفى سبتمبر ٣١ ق .م. ألحق أوكتڤيان الهزيمة بمارك أنطونى وحليفته كليوبترة فى موقعة أكتيوم

البحرية ببلاد اليونان أيضاً . وبعد انتحار أنطونى وكليوبترة خلا المسرح تماماً لأوكتڤيان.

كان أوكتاڤيان حفيداً لجوليا شقيقة قيصر ، وقد تبناه قيصر وخلع عليه اسمه وأعده لكى يخلفه فى الحكم من بعده . أقدم أوكتڤيان على خطوات هامة فى إدارة إمبراطوريته الشاسعة التى امتدت من اسكتلندة غرباً حى نهر الفرات شرقاً ، ومن نهر الدانوب شمالاً حتى بلاد النوبة جنوباً ، فخفض فيالقه من ستين إلى ثمانية عشر فيلقاً ، وقام بتوطين أكثر من مائة ألف من قدامى المحاربين فى الولايات الإمبراطورية فى الشمال الأفريقى والشام وآسيا الصغرى ، وقد تحملت الخزانة المصرية تغطية نفقات هذا التوطين بعد أن أصبحت مصر ولاية رومانية .

هذا وقد شغل أوكتاڤيان منصب القنصلية دون انقطاع ما بين عامى ٣١ ، ٢٣ ق . م ، ثم خوله السيناتو بسلطات عاليا (Maius Imperium) على كل فرق الجيش فى الولايات الإمبراطورية . واختار أوكتڤيان لنفسه لقب « المواطن الأول » (Princeps) ، ثم خفض عدد أعضاء السيناتو من ألف إلى ستمائة عضواً مع الاحتفاظ بحق تعيين من يراه مناسباً للعضوية . وفى نهاية الأمر صار أوكتاڤيان أغسطس يجمع فى يديه سلطات القائد الأعلى للجيوش الرومانية وصلاحيات التربيون أو القاضى الأكبر .

ثم التفت أوكتاڤيان إلى الجوانب الاجتماعية ، فوجد أن الطبقات العليا كانت عازفة عن الانجاب ، ولذا فإنه فرض ضريبة على الأزواج الذين يمتنعون عن الانجاب ، بينما منح بعض الامتيازات للأسر المنجبة . ومن إصلاحاته أيضاً

أنه شدد من العقوبة لجريمة الزنا ، وحد من الغلو فى الترف والدعة وتوزيع القمح بالمجان على غوغاء روما . كذلك عمل أوكتاڤيان على ترسيخ التقاليد الدينية والأخلاقية فى المجتمع الرومانى ، فأشاع مفهوم « السلام بين الناس والآلهة » (Pax Deorum) ، وبلغ عد المعابد فى عصره اثنين وثمانين معبداً ، وصار هو عضواً فى كلية الكهنة والمنجمين ، وفى سنة ١٣ ق . م اتخذ لقب «الكاهن الأكبر» (Pontifex Maximus) ، وهكذا جمع فى شخصه السلطتين الزمنية والدينية .

ومع الإحساس بالسلام فى الإمبراطورية ، ازدهرت الفنون والآداب على يد عديد من كتاب العصر وعلى رأسهم ڤرجيل وليڤى وهوارس وأجريبا ومايكيناس. وقد أنتج ڤرجيل ملحمته الخالدة « إينياس » مؤسس مدينة روما ، وجعل من بطله إينياس المثل الأعلى للكفاح ومغالبة تقلبات الأوقات وللحكمة والتقوى والتفانى من أجل الواجب . أما ليڤى فقد تقفى تاريخ روما منذ البدء حتى عصر أغسطس ، معرجاً على لحظات الفخار والبطولة فى سجلاتها . وخاطب فى «أناشيده » فضائل الرومان وبأسهم ، موصياً بضرورة الرجوع إلى طرائق البساطة الأولى . أما أوڤيد فقد انصرف إلى شعر الغزل الحسى ، الأمر الذى أغضب أغسطس فأمر بنفيه خارج البلاد .

كذلك ارتقت الفنون التشكيلية ، ومن روائع العصر « مذبح السلام الرخامى» ، وميادين السوق ومعبد قيصر ومعابد جوليا وإميليا ومنصة الخطباء (Rostra) . هذا إلى جانب المسارح والحمامات العامة والمتنزهات والبحيرات الصناعية والمكتبات . ونظراً لاستخدام الرخام بكثرة فى أعمال البناء والترميم فى

عصر أغسطس ، فإن كاتب سيرته سيوتونيوس قد لاحظ أن سيده قد تسلم روما وهى مبنية من الطوب ثم تركها وهى من الرخام .

وعمل اغسطس على استتباب الامن فى العاصمة ، فإلى جانب الحرس البرايتورى انشأ قوة بوليسية قوامها ثلاثة الف رجلاً (Cohartes Urbanas) ، بالاضافة إلى سبعة آلاف من الخفر (Vigiles) ، كما عين موظفين للإشراف على توفير المياه للمواطنين (Curatores Aquarum) وآخرين لمعالجة خطر الفيضانات من نهر التيبر (Curatores Riparum Tiberis) ، وغيرهم للتموين (Annonae) ، هذا إلى جانب مسرح كبير للعاصمة ، وقد سخر الكاتب جوڤينال بعد ذلك بقرن بان امبرطورية اغسطس كانت امبراطورية «رغيف الخبز والمسرح » .

وفى علاقاته بالشعوب الجرمانية المتحفزة من وراء الدانوب والراين ، اختار اغسطس سياسية الدفاع بدلاً من سياسة الهجوم خاصة بعد أن منيت كتائبه بقيادة ڤاروس بهزيمة فادحة سنة ٩م على يد الجرمان . وأدرك أغسطس آنذاك أن لا سبيل لدمج العالم الجرمانى فى اطار الحضارة الرومانية .

توفى اغسطس سنة ١٤ م فخلفه فى الحكم ابنه بالتبنى طيبيريوس[١] (١٤ـ ٣٧ م) ، وكان جنديا ماهراً وشجاعا وسار على درب اغسطس فى سياسته الخارجية والداخلية . ولكن خلفاء طيبيريوس الثلاثة كانوا سبةً فى جبين البيت الحاكم ، فقد كان أولهم مجنونا (كاليجولا ٣٧ ـ ٤١ م)[٢] ، وكان الثانى تافها (كلوديوس ٤١ ـ ٤٥ م) ، والثالث معتوها متوحشا (نيرون ٥٤ ـ ٦٨م) ،وبمقتل نيرون انتهى بيت قيصر ـ اغسطس ، فظهر على المسرح أربعة

قادة يتكالبون على العرش ،وهلك فى الصراع خمسون الف نسمة فى مدينة روما وحدها فى عام واحد . وانتهى الصراع بفوز ڤسباسيان (٦٩ ـ ٧٩م)، وبدأ سلسلة من الاباطرة الأقوياء وهم تيتوس ودوميتيان ونيرڤا وتراجان وهادريان وانتونينوس بايوس ثم ماركوس أوريليوس (٧٩ ـ ١٨٠ م) . غير انه فى سنة ١٩٣ م فرض الحرس البرايتورى ضابطا اسمه برتيناكس للجلوس على العرش الامبراطورى ، وبذلك بدأت سابقة خطيرة فى الحكم الرومانى ، ويلاحظ أنه من بين الثلاثة وعشرين امبراطوراً الذين حكموا فى القرن الثالث حتى مجىء دقلديانوس (٢٨٤ م) هلك عشرون منهم فى الصراع على كرسى الحكم . وخلال هذا الصراع دمرت مدن أنطاكية وبيزنطة وليون ، وأعدم عدد من اعضاء السيناتو .

بعد هذا جاءت سلسلة من الأباطرة الذين اثاروا إعجاب المؤرخ ادوارد جيبون صاحب كتاب « إضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية » فأطلق على حكمهم العصر « الذهبى » للإمبراطورية ،وهؤلاء الأباطرة هم : أنتونينوس بيوس ، وماكروس ، وانتونينوس الجابالوس ثم سڤيروس اسكندر ، وقد امتدت فترات حكمهم جميعا من سنة ٢١١ حتى سنة ٢٣٥ م . وقد تميز هذا العهد بتخفيف الضرائب على الشعب وبإزدهار فى الآدب ، وبتمتع مدن الولايات بالحكم الذاتى ،كما خفت ضراوة اسواق النخاسة وصار ممكنا لبعض العبيد المعتقين ان يعملوا ببعض الوظائف كالتدريس مثلاً . هذا عن الجانب المشرق الذى إنبهر به ادوارد جيبون . على انه ينبغى ملاحظة أن نفس العصر قد شهد أيضا تخلص بعض الاسر من مواليدهم ، وزيادة فى الدعة والترف عند معظم

طبقات المجتمع ، وزيادة الاوبئة ، واهم من هذا كله لجوء الاباطرة إلى استخدام الجند المرتزقة من الشعوب الجرمانية لحراسة حدود الامبراطورية . وليس غريبا بعد ذلك أن نجد بين الأباطرة اسماء غير رومانية ، فهناك امبراطور من أصول سورية، وآخر من أصول عربية ، وثالث من أصول إفريقية بونية ولم يكن يجيد اللسان اللاتينى .

ويلاحظ على فكر هذا العصر أن الناس قد عزفوا عن القضايا الميتافيزيقية وراحوا يتلمسون إجابات عن اسئلة تهم واقعهم التعيس . ولذا فإن كتابات سنيكا وموسونيوس وابكتيتوس وحتى بلوتارخ لم تهتم بالمثل العليا المجردة بقدر الإهتمام بمعناها العملى أو البرجماتى ، فسنيكا مثلاً قد حاول تحويل الفلسفة الرواقية إلى سلوك عملى يبعد الناس عن الرذيلة وسوء استخدام المال والدعة ، موضحاً أن الهدف الأسمى لاية فلسفة ينبغى أن يكون البحث عن الحياة الطيبة .أما موسونيوس فقد دعا إلى استعمال الرأفة مع المخطئين وتقدير معنى العفو عند المقدرة وعدم التفرقة بين الذكور والإناث ، ولذا فإن نيرون قد نفاه إلى خارج البلاد ، أما ابولونيوس من تيانا فقد دعا إلى الاخوة بين بنى البشر وإلى التسامح ، وقد اتهم نيرون بأنه مخنث وداعر وحضٌ على الثورة ضده .كما هاجم ديموناكس المصارعة والمجالدات بين البشر والحيوانات فى السيرك .

وانتقد ديو خرايز وستوم فجور الأغنياء وانانية الغوغاء وعنفهم ونادى بسيادة القانون ، ونبه المؤرخ بلوتارخ معاصريه إل درس التاريخ وبأن البؤس الإنسانى كان من صنع الإنسان نفسه . وأما اتباع الفلسفة الكلبية (Cynics) فكانوا يعمدون إلى الوقوف فى الطرقات كى يوبخوا الناس على سلوكهم الشائن ،وقد

عرف عن زعيمهم بروتيوس انه عنف الإمبراطور انتونينوس بيوس بسبب غروره الشديد ، والمعروف أن هذا الفليسوف الكلبى قد مرّ بأزمة نفسية شديدة فانتحر.

من التغيرات التى طرأت ايضاً أن عدداً وافراً من ابناء الطبقة الوسطى تحت وقع الضرائب الثقيلة قد تدنوا إلى مستوى الطبقات الدنيا (Humiliores) ، وهكذا بعد أن كان المجتمع الرومانى يضم طبقات ثلاث عليا ووسطى ودنيا ، لم يعد هناك غير طبقتين العليا والسفلى واختفت تماماً الطبقة الوسطى .

يلاحظ أيضاً أن اعداداً غفيرة من العبيد قد اعتقوا ، واشتغلوا بالصناعة والتجارة ، وبعد أن كونوا الثروات انشأت لهم السلطات الرومانية ما عرف باسم « الاوغسطالس » (Augustales) وهى هيئة تضم العبيد المعتقين ، والتى كان من اهم واجباتها المحافظة على عبادة الإمبراطور ، والمشاركة فى الإحتفالات والرياضة والمآدب العامة ،وكانوا اشبه ما يكونون « بمحدثى النعمة »[٤] .

من التحولات الخطيرة ايضا فى القرن الثالث للميلاد انهيار دويلة المدينة (Polis) ،وسقوط سماتها الحضارية من دستورية وعدالة إجتماعية وسيادة السلام ، وإختفاء دور الحاكم الذى يمثل الرابطة بين سكان المدينة (-Pro states Tou Demou) . وقد كان طبيعيا مع هذا التدهور أن تتحول أمورالشعب الرومانى إلى الغوغائية وتحكم البرابرة المرتزقة فى مصير الحكم والحكام .

ولعل اخطر التحولات جميعاً ما حدث للمواطن الأول أى الإمبراطور نفسه ، ففى أيام مجده الأولى كان يملك كل السلطان الدنيوى والدينى ، وكان نصيب من يجرؤ على مخالفته القتل أو مصادرة الأملاك ، أو الأنتحار .

على أنه عندما تحلل نظام الحكم وصارت الأمور بيد الحرس البرايتورى من الجند المرتزقة، صار الأمبراطور مجرد دمية فى أيدى هذا الحرس الذى بات يخلع ويقتل ويعين من يشاء من الجنرالات واعضاء السيناتو للجلوس على العرش ، وذلك مقابل رشوة دسمة لقادة الحرس . ومع هذا التحول أو التدهور انقطعت الصلة تماماً بين الحاكم والرعية ،وانتهزت المجالس المحلية فى الولايات الفرصة للنهب والسلب واكتناز المال . ومع هذا التدهور السياسى والاقتصادى والإجتماعى لجأ الناس إلى الملذات الحسية هروبا من الواقع المر الأليم .. وغصّ المجتمع الرومانى بالانتهازيين والمرابين والعاطلين ومحدثى النعمة ، وهذه جميعا علامات انفصام ومؤشرات إلى اقتراب النهاية .

وليس غريبا فى هذا المناخ من الإحساس « بالغربة » وخواء الروح أن تجد الديانة المسيحية ارضا خصبة على التراب الرومانى ، فقد جاءت المسيحية من المشرق تدعو الناس إلى نبذ هذا العالم والتطلع إلى« ملكوت السموات » حيث يكون الجميع من حر وعبد شركاء فى مدينة الخلاص والانعتاق .

ولكى نستشف روح العصر علينا أن نقلب فى آداب العصر وفلسفاته المتنوعة : فى حديثه عن رياضة المجالدين (Gladiatores) وهى الرياضة التى ملكت على قلوب الرومان من عامة وخاصة ، يقول ترتوليان (قرن ٣ م)(٥) بأن الرومان باتوا يشتهون الموت ، فالرجال يضحون عبثاً بأرواحهم ، والنساء يضحين أيضا بأجسادهن ، وفى الحالين امتهان لكرامة الإنسان روحاً وجسداً .

والمجالدة فى الاصل عادة تروسكية بدأت بتقديم اضحيات بشرية ارضاءاً للآلهة ،ويذكر أن أول هذه التقدمات قد تم سنة ٢٦٤ ق . م عندما اقدم عليها

ابناء يونيوس بروتوس لروح والدهم المتوفى . وفى سنة ١٧٤ ق. م تجالد اربعة وسبعون رجلاً على شرف روح والد تيتوس فلاڤيوس . وبعد انتصار قيصر على بومبى فى واقعة فرسالوس اقام قيصر حفل مجالدات بين ستمائة من الرجال ابتهاجاً بالنصر ، وكان قيصر يريد المزيد من المجالدين لولا اعتراض السيناتو على ذلك . وأما أغسطس فقد كان المجالدون فى عهده عشرة آلاف من الرجال ، كذلك فعل تراجان بعد أن ضم ولاية داكيا إلى حظيرة الأمبراطورية ، وقد ظل الاف المجالدين يقتلون واحدهم الآخر فى احتفال دام اربعة شهور كاملة .

كانت المجلدات تتم فى أول الأمر فى الساحة العامة للمدينة ، وكان ضحاياها من المحكوم عليهم بعقوبة الإعدام أو من الاسرى من غال واسبان وتراقيين وجرمان واغارقة وسوريان واسيويين . ومع انهيار الجمهورية الرومانية وقيام العصر الأمبراطورى بدأ الرومان انفسهم يتطوعون للمشاركة فى المجالدة . ويعكس هذا التحول شعوراً باليأس واشتهاء للموت لدى الرومان ، كما عبر عن ذلك الكاتب كبريان من القرن الثالث[٦] . وكان على المجالد أن يقسم يمينا (Sacramentum Gladiatorium) بأن يتحمل أن يُجر أو يوثق أو يضرب أو يقطع إربا بالسيف . ولم يكن هذا القسم موجهاً للآلهة الكابتيولينية وإنما للآلهة السفلية من سادة الموت وأمراء دروب الظلمات (Dii inferni)[٧] .

هذه الروح ، روح اشتهاء الموت لدى الرومان والتى عبر عنها تيرانس(قرن ٢ ق م) ظلت لصيقة بالآداب اللاتينية ، فقد استخدمها بعد ذلك بستة قرون القديس اغسطينوس عندما شبه الخاطىء اليائس من الرحمة الالهية بهؤلاء المجالدين الذين كتب عليهم الهلاك[٨] .

ومع تفشى هذه الروح الانتحارية فى المجتمع الرومانى ،صار على المجالد أن يبدى ثباتا للجأش واقبالا على الموت فى غير وجل ، بل إن البعض كانوا يتوجهون من قلب الحلبة الى مقصورة القيصر أو السيد لسؤاله عن الكيفية التى يرغب السيد أن يتم من خلالها قتل المجالد . ومع هذا الاستخفاف بآدمية الإنسان وكرامة جسده وروحه ،عبداً كان أم رجلاً حراً ، أخذ كتاب العصر فى نظم المديح للمجالد الذى يحاول إدخال السرور على قلب سيده وعلى قلوب الجماهير المشاهدة . أما المجالد الذى يتألم أو يتوسل إلى جلاده بألا يقتله فإنه يثير الإستياء فى جمهور المتفرجين والقيصر نفسه . وعندما يحاول مجالد ما الهرب من ضربات السيف أو النار ، يصيح الجمهور مستنكراً على المجالد هذا الجبن ، ويصرخون فى الهواء بأن إحرقوه واقتلوه ــ علامَ يخاف هذا الجبان من الموت ؟ .

وقد فسر الرومان خوف المجالد أو ارتعاده أمام جلاده خرقاً للعقد بينه وبين الموت ، تماما كما تتمرد الأضحية أمام مذبح الأرباب . وهكذا تحول جمهور السيرك الرومانى وقيصرهم جميعاً إلى جلادين ، وصار « استعذاب الموت » (amor mortis) وباءاً رومانيا . ومع ترسخ هذه العلة من السادية والماسوكية فى نفوس الرومان رفع الرومان من قدر إهدار الكرامة الإنسانية والتلذذ بهذه المهانة حتى صارت واحدة من فضائلهم !

وجريا وراء هذه القسوة اللاآدمية صار مألوفا عند الرومان إعدام اسرى الحرب بالجملة ، وقتل الفارين من ميدان القتال دون محاكمة ، وتعذيب الشهود فى قضايا المحاكم. والتطور الآخر فى هذا المجال أن الكثيرين من أبناء

الشيوخ الرومان وطبقة الفرسان قد تحايلوا على القوانين ودخلوا ساحة المجالدة ولكأنهم يشتهون العار والموت معا ، وهذا دليل دامغ على تسرب روح القنوط واليأس إلى نفوس المجتمع الرومانى من عامة وخاصة .

ويرجع لوكان هذا التدهور الأخلاقى إلى أيام الصراع بين ماريوس وسوللا (قرن ١ ق . م) وما تبع ذلك من حمامات الدم بعد سيطرة ماريوس على روما(٩) .ويمثل عام ٣١ ق .م ،سنة انتصار اوكتاڤيانوس اغسطس على خصومه وخروجه سيداً أوحد على الأمبراطورية ، بالنسبة للبعض حرباً غير متكافئة بين معسكرين غير مكتافئين ،وبأنه بعد انتصار اغسطس وانتحار انطونى وكليوبترة ، صار التقليد فى المجتمع الجديد الركوع ارضاً لتقديم قدم المواطن الأول ، إذ بات النفاق السبيل الأمثل للتسلق على سلم القيصر .وقد عبر عن هذا التدهور والإنحطاط خير تعبير الفليسوف ابكتيتوس بقوله : « كم من المهانة بات على المرء أن يتحملها كى يصبح مرموقاً فى روما ـ لقد بات علينا أن نقبل القدم ، وان نلثم ايدى العبيد من حشم وخدم حتى ينعم علينا بالوظائف العليا والقاب الشرف فى الدولة » . ثم يوجه الكاتب حديثه إلى واحد من ارستقراطية روما الذى كان قد شغل منصب القنصلية مرتين قائلا له : إنك لا تعدو أن تكون عبداً كأى عبد آخر بيع مرات ثلاث فى أسواق النخاسة ، رغم أنك لم تعرض سلعة فى الاسواق بعد ، ورغم انك قد تحدرت من اب وام من الاحرار ـ ولكنك الآن لاتملك إلا أن تصبح واحداً من كثيرين تحت مظلة السيد القيصر.. وهذا الشعور بالامان الكاذب هو العبودية نفسها ـ ان سيدكم يمسك بالسوط تماما مثلما يفعل تاجر النخاسة(١٠) .

ويلاحظ تاكيتوس[١١] أنه كلما ازداد ارتفاع الشخص فى روما على سلم الترقى فى الوظائف كلما ازداد نفاقة وإدمانه على النفاق . وقد أمسك لوسيان ديموناكس ذات مرة بالشريط الارجوانى الذى تزدان به عباءة اعضاء السيناتو وهمس له فى أذنه « ان هذه العباءة الفضفاضة بشريطها الارجوانى لم تجعل منك اكثر من واحدة من قطعان الغنم » . ويدين الفليسوف سنيكا هذا التدنى لدى اعضاء مجلس الشيوخ ، كما أنه لا يخفى شعوره بالاحتقار للملك جزيرة رودس نفسه المدعو تلسفوروس لأنه قد ضحى بشرفه ووقاره من أجل الإبقاء على حياته ذليلاً ،وينتهى إلى القول بأن الحكمة القائلة « حيثما توجد حياة يوجد أمل » هى حكمة بائسة تنم عن انحطاط وخنوثة (effeminatissima) ، منبهـا ايضاً إلى أن « اسوأ صنوف الموت أكرم للإنسان من افضل أحوال العبودية» .

ليس غريبا إذن فى هذا المخيف أن يقبل الجميع على ساحة المجالدة ، فهى أصدق الساحات للتعبير عن حال المجتمع الرومانى وهو فى مهب الريح ،وقد وصل الحد فى السيرك إلى أن الجلادين كانوا يستعينون بقضبان من الحديد الملتهب (Cauterium) لمطاردة المجالدين الذين يهربون من جلاديهم فى الساحة أو الذين يرتعدون خوفاً من ضربات السيف . ويمكن تفسير المجالدة ايضا على أنها ضرب من ضروب الالهاء الرومانى لانتزاع التصفيق من الغوغاء فى السيرك لشجاعة زائفة بعد أن فشلت الفيالق الرومانية فى ميادين القتال ضد البارثيين وجحافل الجرمان على الراين والدانوب ، فهى على حد تعبير ترتوليان متعة للمشاهدين وعزاء للمجالدين ، (Oblectatio et solacium) ، مضيفاً

بأن الموت فى ساحة المجالدة بات أفضل من الحياة التعيسة[١٢] .

من ناحية اخرى يرى شيشيرون فى المجالادات هروباً من اتون الحرب الأهلية بعد سقوط الجمهورية واستبداد القيصر المطلق ، فى حين أن سنيكا يشبه المواطنين الرومان عن بكرة أبيهم بحشد وافر من المجالدين الذين لا أمل لهم فى الحياة الكريمة ، فليس ثمة وطن مأمون ولا قضية يكافحون من أجلها ولا عدو واضح المعالم امامهم ، وإنما بات المواطن يقتل مواطنا آخر دون سبب معقول إلا شهوة فى الموت[١٣] .

ولقد فسر المعاصرون سفك الدماء الغزيرة فى السيرك فى الاحتفالات التى أقامها يوليوس قيصر سنة ٤٦ ق . م على أنها خبيئة لتعطش قيصر للمزيد من الدماء ، كما أن نهاية شيشرون ، فى ٧ ديسمبر سنة ٤٣ ق . م فى أعقاب مهاجمته لاستبداد قيصر ، قد جاءت شبيهة بطقوس المجالدة ، فعندما هاجمه الجلادون من أتباع قيصر وهو فى محفته فى شوارع روما ، مدّ لهم شيشيرون عنقه طواعية لتطيح بها السيوف فى استسلام كامل[١٤] .كذلك فسر البعض هذا الدم المهراق فى السيرك والشارع الرومانى على أنه طقس دينى ترتوى من خلاله ربة الأقدار المنتقمة (Nemesis) التى لا ينطفىء ظمأها ابداً .

ولما أن جاءت المسيحية وحل عصر الاضطهاد ، سار المسيحيون ايضا على درب المجالدة ، وباتوا يستعذبون الموت والاستشهاد الزائف ، واقبلوا على جلاديهم بنفس الطريقة التى ذكرناها فى حال شيشيرون وأمثاله الكثيرين .

ويلاحظ أن روما ابتليت بعدد وافر من الاباطرة المتهوسين بداء جنون العظمة ، وكلما ازداد جنون القيصر ازدادت معه رذيلة النفاق الإجتماعى

المستمدة طقوسه من ساحة المجالدة : ويروى لنا سيوتونيوس كيف أن اثنين من منافقى البلاط فى عهد الامبراطور المختل كاليجولا وهما سيكوندوس وافرانيوس أقسما عندما إعْتلت صحة الامبراطور بأن يدخلا ساحة المجالدة ان منت الالهة بالشفاء على صاحب الجلالة . وحدث أن شفى صاحب الجلالة من وعكته ، فطلب من الاثنين المبادرة بتنفيذ وعديهما ، وكان له ما أراد !

من سياق تلك الأحداث يمكن للمرء أن يصل إلى نتيجة مؤداها أن الرومان باتوا يغالبون شعورهم باليأس بطرائق انتحارية اشد هلاكاً من اليأس نفسه، أى أن الدواء صار اشد فتكا من الداء نفسه(١٥) .

ويعد أن تغلغل اليأس فى نفوس الرومان ، نمت فى ضمائرهم مشاعر شبه رومانسية مع الموت نفسه ، وصار المجالد يرمز إلى عدة أمور : فهو عند الطبقات المغلوبة على أمرها يرمز إلى الأمل الضائع ، وعند الخاصة من الأحرار والميسورين يمثل حالة من الانتحار الرواقى بعد أن مل اصحابه حياة الدعة والفجور .

وهكذا فإن لفظة « مجالد » قد ذاعت وانتشرت ودخلت فى الفصحى والعامية على حد سواء ، وباتت تستخدم مجازاً للدلالة على الإحتمال ، اشتقاقاً من حال المجالد الصامد وهو يدير ظهره للحياة يأساً مستلهماً شجاعة لحظية موقوتة أمام ضربات السيف ، وقد شوهد الكثيرون منهم يضحكون ضحكات هستيرية وهم ينزفون دماً غزيراً فى ساحة المجالدة .كذلك استخدم الكتاب نفس اللفظة للاشارة إلى العدو الجرمانى الشرس الذى يقاتل حتى الانتحار . كما وإن الشعراء استخدموا اللفظة ذاتها لوصف حال العاشقين الذين غرقوا فى الحب

حتى أذنيهم ،مثلما كانت حال انكولبيوس مع عشيقته كوارتيللا ، وحال جيتون مع مدلهته الشاردة . وقد استهوت هذه الرومانسية القاتلة افئدة الكثيرات من صبايا المجتمع الرومانى ، وباتت عذارى روما يتنهدن حسرة على المجالد الشاب الهالك على الساحة (Suspirium Puellarum) ، بل وصار المجالد ايضا المثل الأعلى فى الحب المحرم عند المراهقات (Paparum Dominus) .

وعندما كتب بترونيوس قصة « أرملة افيسوس » وذلك فى عهد الامبراطور المختل نيرون ، كان يشير بطريقة خفية إلى حال المجتمع الرومانى انذاك .وتدور القصة حول تلك الزوجة الجميلة التى مات رجلها ،وعندما دفن فى قبره رفضت أن تبرح القبر ، وعندما باتت رائحة الجثة المدفونة تزكم الانوف ،إرتمت الخادمة على سيدتها الحزينة تتوسل إليها بالخروج من عالم الموتى وألا تدفن نفسها حية هكذا .ثم قدمت الخادمة لسيدتها كسرة من الخبز لتفتح شهيتها من جديد . وفجأة حدث تحول رهيب فى سيكولوجية الأرملة : إذا بادرت بهجران القبر ، واقبلت على الحياة فى نهم زائد وانغمست فى كل ما هو حسى ولذيذ وفاجر حتى غدت امرأة كل عربيد فى المدينة . وانتهى بها المطاف بقيامها برحلة إلى قبر زوجها ،فأخرجت عظامه من التراب وراحت تنثر عليها الأشواك وتوحلها بالتراب والسباب[١٦] ! .

ويتفق المعاصرون من ناحية اخرى على أن الحرب الأهلية هى المسئولة عن الشرخ الذى أصاب الشخصية الرومانية فى صميمها ، فبعد مقتل كراسوس لم يعد العالم كله كافيا لطموحات وشهوة بومبى وقيصر ، ولذا فإن الحرب اشتعلت بين الأثنين من جديد ،وهكذا كانت الحال مع أنطونى واكتافيانوس .

ويعنى هذا كله أن أوصال الأمبراطورية قد مزقت بحد السيف ، ولم يعد البر أو البحر ليكفى لأطماع رجلين ، حتى نصل إلى البطل الأوحد أو الأبد الأكبر[١٧] .

ومن هذا الواقع السياسى المضطرب استلهم الشاعر اوفيد شخصية اسطورية اشار بها من طرف خفى إلى أحوال المجتمع الرومانى ، وهى شخصية الملك أريسيختون (Erysichthon) ، الذى اشتهر بالجشع المفرط ، فهو مهما اكل أو شرب لا يشبع ولا يرتوى . وقد باتت حاله كالنار كلما زودت بالوقود ازدادت جشعاً ، وهذا الملك الذى يقيم المآدب ليل نهار ، يظل يأكل حتى بعد ان يتخم، فهو يتحسس ملمس اللحوم حتى بعد الإنتهاء من وجباته شرهاً . وتدور الأيام وتكون بطن الملك سبباً فى افلاس خزانته ، ويصل به الأمر إلى أن يبيع ابنته فى سوق النخاسة ليشترى بثمنها لحماً لبطنه .وفى النهاية يتحول هذا الملك إلى مسخ بشرى ينهش لحم جسده واعضائه (Auto cannibalism)[١٨] .

لقد قهر القياصرة البر والبحر ومدارات الشمس والقمر ، ولكنهم لم يشبعوا أو يقنعوا ، وهم فى هذا ايضا يشبهون البطل المأساوى تانتالوس الذى سقط غريقا فى لجة من الماء العذب ولكنه يموت عطشا .وهم ايضا كذاك البخيل الذى يرقد على كنز هائل ولكنه لا يعرف كيف يتمتع به أو يفيد بجزء منه احدا من الآخرين[١٩] . وحصيلة هذه الشهوات الفجة هى الغثيان (Taedium Vitae) والشعور بالسأم ، إذ لم يعد شىء فى الحياة يثير السعادة أو حتى الاهتمام . ويشبه سنيكا معاصرية من الرومان بقوم مؤرقين جافاهم النوم ، فاستحوذهم القلق ، ولذا فإنهم يتحركون جيئة وذهابا دون هدف واضح « حتى يبلوا كالحذاء القديم » .

وهنا تشعر الروح بالخواء فيسعى صاحبها إلى دروب من الشذوذ والعبثية بحثاً عن الإثارة الغريبة : من قبيل ذلك ما يروى عن الأمبراطور ڤتليوس الذى كان يعد لنفسه طبقاً غريباً من الطعام أسماه « خلطة منيرڤا » ، وهى مؤلفة من كبدة الحدأة ، ومخ الطاووس ، ولسان البلبل ،وطحال الغنم . وقد جمع القيصر هذا العجب من أركان الامبراطورية من حدود فارس حتى مضايق اسبانيا[٢٠] . وجاء الطبق الذى كان يعده الأمبراطور الاجابالوس أشد غرابة وعجبا ،فهو خليط من حوافر الخيل ، وعرف الديكة ، واعناق الببغاوات ولسان العندليب .

ويروى سيوتونيوس فى سيرته عن الأمبراطور كاليجيولا أنه كان يهتاج عندما يكتمل القمر بدراً ،وبأنه يعتلى سطح القصر لمغازلة القمر ولكأنه يغازل امرأة ، بل ويدعو القمر إلى فراشه أيضاً [٢١]. وقد سمع كاليجيولا أيضاً وهو يهدد جوبيتر نفسه صارخاً : « خذ بيدى وإلا » .كذلك كان كاليجولا يشيد معماراً يستحيل اقامته هندسيا لشذوذه وخروجه عن كل عقل . وكان الامبراطور نيرون على نفس القدر من الهوس ؛ فهو يحفر ممرات فى الصخور دون هدف واضح ، ويسعى لاقامة تحصينات فى بطن البحر ، ويفكر فى إقامة طرق على قمم الجبال ويأمر بازالة بعض التلال ، ويقيم واحدة من ڤيلاته وسط أكوام القمامة .

وكان كاليجولا يشكو بأن عهده خال من المصائب الكبرى والأوبئة أو الهزائم المروعة وكوارث الزلازل ، ومذابح الحرس الامبراطورى ،ويود لو أن حكمه شهد هذه المصائب جميعاً حتى يشعر بالإثارة والسعادة وحتى يذكر التاريخ اسمه مقرونا بهذه الأحداث العظام[٢٢] .

أما عن الرواية المتواترة عن حرق نيرون لمدينة روما فهى ليست افتراء أو ادعاء اذ يذكر لنا سيوتونيوس صراحة أن نيرون قد دبر فعلا احراق المدينة لكى يشيد على رمادها قصراً ذهبياً وأيضا كى تثير اللهب المستعرة فى خياله المريض اشجانا كتلك التى كابدها بريام ملك طروادة وهى تحترق على يد اليونان .. وقد ألمح سنيكا فى روايته « ميديا » إلى هذا المعنى بقوله « كم هو جميل أن أجر العالم معى عندما تنتهى أيامى »(٢٣).

فى هذا المناخ المضطرب قلباً وقالباً كان من الطبيعى أن يشعر القياصرة أنهم وحدهم دون سواهم على المسرح ، وأصبح وقع الموت هنا وهناك مجرد تمثيلية على خشبة هذا المسرح ، وتبلدت مشاعر القوم حتى باتوا يتلهون بالموت نفسه تماماً كما يتمضغون الطعام ويرشفون الشراب أو حتى يثرثرون . وهذا الشعور السلبى تجاه الآخر هو الذى زاد من هوس الناس بالمجالدة والاستمتاع بمنظر الدم وهو يراق ، وهو الذى جعل الموسرين يبحثون عن اندر الحيوانات فى غابات افريقيا واسيا باسعار خيالية ، تحملها السفن وهى مقيدة فى اقفاصها لمجرد اطلاقها فى السيرك ذات يوم لتفترس إنسانا سيء الحظ ، وذلك وسط هتاف ورقص العامة والخاصة وسيدهم القيصر فى مدينة المدائن روما .

ويتفق الكتاب من معاصرين ومحدثين على أن قصرالأمبراطور الرومانى نفسه قد انتهى به الأمر ليصبح قفصاً كبيراً يخطو داخله الطاغية جيئة وذهاباً وهو متورم بنوبات الغضب والجنون . وبعد أن تأله الأباطرة ولم يعد أحد يجرؤ على انتقاد أفعالهم المخبولة ، راحوا يبحثون عن سبل شاذة لاثارتهم وتلهيتهم . ويروى عن كاليجولا أنه كثيرا ما كان يقبض على اعضاء مجلس الشيوخ ويأمر

بجلدهم أمام عينيه دون اى سبب يذكر إلا للتسلية ، وبلغ به الحد أن اطاح برقاب العديد من الناس على ضوء المشاعل ذات ليلة وهو يتبختر مع بعض حريمه فى ردهة فى قصر والدته[٢٤] . ويتوافق مع هذه التحولات شيوع ظاهرة الانتحار بالسم ، ويروى البعض أن انتحار كليوبترة وأنطونى كان واحداً من سبل الانتحار الجماعى هروباً من واقع الأمبراطورية المرير[٢٥] .

وهنا ينبغى القول بأن الرومان حكاما ومحكومين ، ضحايا وجلادين صاروا فى قفص واحد حيث صار الفاعل مفعولا به . ويروى أن نبلاء روما كانوا فى وسط المآدب التى يقيمونها ينفجرون فجأة بالبكاء والنحيب ، وأن البعض كان يقف وسط ضيوفه يرثى نفسه باحدى المرثيات . وكان الشذوذ واحداً من دروب الهروب من الواقع القائم ، بل أن البعض قد قاموا بقطع اعضائهم الجنسية (galli) ، والبعض الاخر من الرجال قد دخلوا فى بيوت دعارة للذكور (ludi) ، ويعلق بترونيوس على ذلك قائلاً : « هكذا كان احتقار الشباب لشبابهم »[٢٦] ، وحفلت مجالس القوم بعبث الكلام وافرط الجميع فى الشراب والسهر ، وراحت النساء تفاخر بعدم العفة خاصة من بين الطبقات العليا فى المجتمع الرومانى من امثال ڤولڤيا ، وجوليا ،واجربينا ودوماتيللا وغيرهن كثيرات ..

وقد صاحب هذا التدهور اعجاب الرومان بمناظر الرعب والفزع ، حتى أنه فى مزادات اسواق النخاسة كان النبلاء لا يهتمون بشراء العبيد الاصحاء أو أصحاب الطلعة البهية ،وإنما كان غرامهم بالمشوهين والممسوخين وذوى الخلقة الغريبة من أصحاب العيون الثلاثة أو ذوى الرؤوس التى تشبه رأس النعامة والأيدى كايدى السلاحف .. ويحكى أن بعض الآباء قد عمدوا إلى تشويه

خلقـة الأبنـاء كى يبـاعـوا بسعـر خـاص فى اسـواق العبيـد المخصصـة للممسوخين (Teraton Agora) ..

ومع هذا المزاج الانكد راجت نخاسة الاقزام والعمـاليق بل والهيـاكل العظمية ،وكان الأباطرة اشد الناس حرصاً على اقتناء هذه المخلوقات الممسوخة ، فقد أمر الأمبراطور كلوديوس أن ينادى المنادون فى شوارع روما ليقبل العامة على السيرك على وعد بأن يروا ما لم تره عين من قبل[٢٧] ....

لقد غرقت الأمبراطورية الرومانية فى مستنقع اختلطت فيه الأشياء بأضدادها : ما بين تخمة ومجاعة ، تواجد وغياب ، ذات وآخر ، قبح وجمال ، تقوى وفجور ، ثرثرة وصمت رهيب ، اثارة وتبلد ، حركة وسكون ، سلب وإيجاب ، فرح وحزن ، إحباط وإشباع . وعن هذا التشوش يقول مارتيال فى وصفه لواحد حكم عليه باحراق يده اليمنى بأنه كان المتفرج الوحيد على مشهد احراق ساعده الأيمن ، وكان عليه أن يصفق باليد اليسرى فى جنازة اليد اليمنى !!

فى محاولة تشخيص الداء لابد من الأعتراف صراحة بأن طغيان القيصر وحاشيته هو الذى جر الخراب على المجتمع الرومانى .. لقد كان الخوف من الحاكم الأبد سببا فى الشلل الإجتماعى ، ويروى عن يوليوس قيصر ابن روما المدلل بأنه كان يأمر بعض النبلاء بالقيام بدور « المهرج » لإدخال السرور على نفسه المكتئبة[٢٨] . وانعدمت الثقة بين الناس ، ولم يعد سادة الأمس يأمنون على أنفسهم ، فهم لاينامون فى عمق خوفاً من غدر عبيدهم بهم وهم نيام[٢٩] . وازداد النفاق والتملق ،حتى أن تاكيتوس يشبه حاشية القيصر

«بلاعقى الاحذية بلسان مسموم » فى حين أن سنيكا يصف المديح المتزيد « بالدعارة الكلامية » (Fasclinae Lingua) .

ولم يكن توزيع قيصر القمح بالمجان والسماح للعامة بدخول السيرك مجانا إلا ضربا من ضروب النفاق والهاء الناس عن مشكلات الفقر والبطالة والهوة السحيقة التى باتت تفصل بين من يملكون ومن لا يملكون . ومن نفس القبيل كانت المآدب العامة التى كانت تقدم للفقراء والمساكين ، والتى وصفها المعاصرون « بولائم المهابيل » (Festa Stultorum) . وفى هذه المآدب كانت ألسنة المحرومين تلعق الطعام الدسم وتلعن فى نفس الوقت جشع الأغنياء ، فلقد سخروا من أغسطس نفسه وألمحوا إلى أنه « الخصى الذى يحكم العالم » كما اشاروا إلى طيبريوس بأنه « كالماعز » الطائشة . أما عن الأمبراطور ماركوس اوريليوس فقد عرف عن زوجته فاوستينا أنها كانت على علاقة آثمة بشاب يدعى ترتوللوس ، وفى واحدة من المآدب العامة وفى حضور الأمبراطور نفسه ظهر أحد المهرجين يمثل دور «المغفل » وراح يسأل من حوله : « مع من تخوننى زوجتى » فيرد القوم عليه «مع توللوس - مع توللوس .مع توللوس » ، ولكن « الغبى » لا يفهم ، فيصيح القوم « لقد أخبرناك اسمه مرات ثلاث : توللوس ، توللوس توللوس - أى تترتوللوس .. هلا فهمت ايها الذكى » ؟

لقد جن جنون الرومان واختلت الموازين تماماً : لقد كان من عادة نيرون أن يغلق بوابات المسرح ويبقى هوعلى الخشبة ليقوم بالتمثيل منفرداً ، ويظل هكذا ساعات طوال ، والويل لمن يجرؤ على مغادرة القاعة .. وأما كاليجولا فكان يصر على بقاء الجمهور لمشاهدة تقطيع اوصال ضحاياه حتى يصاب

الناس بالاغماء .كذلك عرف عن نيرون ايضا أنه فى احدى حفلاته الماجنة أمر أحد العبيد بأن يضاجع زوجة سيده على مشهد من الأضياف والسيد نفسه،كما أنه أمر أحد المجالدين باغتصاب أحدى الفتيات على مشهد من الضيوف ومن والديها(٣٠) .

من هذا العرض يتضح دون لبس أن المجتمع الرومانى كان فى حالة إنتحار جماعى ، وفى حالة إضمحلال وسقوط من داخله ،وهذه حقيقة تؤيدها كل شواهد العصر .

ولم تكن الامبراطورية الرومانية تستند فى نظمها الإقتصادية إلى مبادىء سليمة ؛ فالفتوحات الكبرى فى الغرب والشرق لم يكن يحركها هدف واضح كفتح اسواق خارجية لانعاش التجارة مثلاً أو بغرض توطين العاطلين من رعاع المدينة ودهماء الريف على سبيل المثال . فالذى حدث أن سلمت هذه الولايات المفتوحة للقناصل السابقين والجنرالات المتقاعدين الذين انحصر همهم الأكبر فى إكتناز الثروات حتى عن طريق الربا وذلك على حساب أهالى الولايات وبطبيعة الحال على حساب دخل خزانة الإمبراطورية ..

ويلاحظ أن هذه الإمبراطورية الكبرى لم تكن تعتمد فى الحصول على رغيف الخبز لعاصمتها من الريف الإيطالى المجاور ، وإنما كانت لقمة العيش تشحن للعاصمة من شمال افريقيا أو من مخازن الغلال فى الاسكندرية . كما وأن العملة فى القرن الثالث أخذت فى الإختفاء من الأسواق ، ليحل محلها نظام المقايضة البدائى ،وصارت رواتب الجند تدفع لهم حصة من القمح بدلاً من العملة .

إلى جانب هذا أغفلت رروما قوتها البحرية ، ولم تؤمن مجالات نشاطها البحرى فى البحر الأحمر والبحر الأسود وسواحل بلاد الغال الشمالية ، ثم ان البحر الأبيض نفسه سرعان ما بات نهباً للقراصنة اليونان .

وإذا نظرنا إلى الريف الرومانى حيث الزراعة وتربية الماشية والتعدين ، نجد أن العبء كله كان يقع على كاهل العبيد ، وكان أقل صغار الملاك يملك عبداً أو عبدين ، فى حين أن كبار الملاك كانوا يملكون آلافاً من العبيد . وعندما تحل ضائقة بأحد صغار الملاك فإنه كان يلجأ إلى الإستدانة من كبار الملاك والمرابين الذين كانوا يتقاضون ربا على الديون تجاوز نسبة ١٢ ٪ أو يزيد .وفى القرن الثالث بوجه خاص صار الأهالى يضجون من وطأة الضرائب الثقيلة التى فرضتها الدولة لتغطية نفقات الفيالق المنتشرة فى ولايات الامبراطورية ولسداد أعباء الأجهزة البيروقراطية المتعددة .وقد ازداد الأمر سواءاً فى عهد الأمبراطور دقلديانوس الذى ابتدع نظام الحكم الرباعى (tetrarchy) وقسم الامبراطورية إلى أثنتى عشرة ولاية تضم ستا وتسعين مقاطعة ،ولكل من هذه الأقسام وتوابعها حاكمها وأجهزتها وجيوشها . وقد وقعت أعباء تمويل كل هذه الأجهزة على كاهل دافعى الضرائب من أبناء الطبقة الوسطى وصغار ملاك الأراضى الزراعية .وحتى هذا النظام الإدارى الصارم سرعان ما تصدع بسبب تناطح القياصرة والاباطرة فى النصفين الغربى والشرقى للإمبراطورية ، كل يتآمر للانفراد بالسلطة ولو على جثث الآخرين من رفاقه .ومع هذه الفوضى والحرب الأهليه زاد عدد الساسة العاطلين الذين باتوا يلقون بتأييدهم تارة مع هذا الفيلق وأخرى مع تلك الفرقة ، وذلك فى مقابل رشوة دسمة . وهكذا اشتعلت الحرب

الأهلية حتى إن أباطرة تلك الفترة عرفوا باسم « أباطرة المعسكرات » . أما موظفوا الادارة فى الولايات فقد فرضوا « إتاوة » على الموسرين من أهل البلاد فازدادت الأحوال سوءاً على سوء .

يضاف إلى هذا أن العائلات السيناتورية كانت معفاة من الضرائب ليس فقط على ضياعها فى إيطاليا وإنما ايضا على الضياع التى كانت تملكها هذه العائلات خارج حدود إيطاليا . وفى القرن الرابع صارت عضوية السيناتو مجرد لقب شرفى يمن به الاغسطس على من يشاء من أتباعه وخلصائه ،وقد كان سخيا فى هذا الصعيد .. وشرف السيناتورية يقى صاحبه من دفع الضريبة عن ضياعه ،وهكذا وقع عبء دخل الخزانة الأمبراطورية كله على الطبقة الوسطى . كما أن الحكومة الرومانية فرضت على صغار الملاك ضريبة أخرى لمواجهة عبء الإدارة المتزايد تعقيداً ، ثم الزمت كل مدينة بالتضامن فى دفع مجمل الضريبة المقررة عليها كاملة ، وألقت بهذه المسئولية فى توفية الدفع على هيئة من مواطنى المدينة المنتخبين (Curiales) .

وقد أدى هذا النظام الضريبى إلى قصم ظهور الطبقة الوسطى، مما أدى بالكثيرين من أبناء هذه الطبقة إلى العزوف عن الزواج حتى لا يرث أبناؤهم تعاسة الآباء .ولقد اهتبل السناتوريون فرصة الخراب الذى حل بالطبقة الوسطى، وابتلعوا الملكيات الصغيرة فى القرنين الرابع والخامس ، وبهذا تدنت اعداد وفيرة من أهل الريف إلى فلاحين معدمين تماماً . والادهى من ذلك بالنسبة لخزانة الامبراطورية أن تحايل الكثيرون على جامعى الضريبة بأن تنازلوا عن اراضيهم للسادة أعضاء مجلس السناتوكى لا تجبى عليها الضريبة ،وفى مقابل ذلك كان

السيناتور يحصل مبلغاً محدداً من المال من صاحب الأرض ليسمح له بالاستمرار فى زراعتها والإستفادة بمحصولها ،وقد عرف هذا « التحايل » باسم « Patrocinium » . ومع أن الدولة كانت تكافح هذا التحايل ، إلا أن أفراد الطبقة الارستقراطية الزراعية كانوا يعرفون كيف يحشون جيوب القضاة وجامعى الضرائب برشوة دسمة . وهكذا استشرى الفساد بين رجال العدالة أيضا ،حتى أن أحد المتندرين قد جاهر بضرورة أصدار قانون يحرم على القضاة قبول دعوات حفلات العشاء على مآدب السيناتوريين . والمحصلة أن قرى بكاملها قد خضعت تحت سطوة الارستقراطية الرومانية الجشعة ، وضاعت على خزانة الحكومة كل الضرائب التى كانت تجبى عليها سابقاً . وألهبت الحكومة ظهور من تبقوا من صغار الملاك بضرائب جديدة لتعويض ما التهمته بطون الشيوخ .

ولما أن وصل الامبراطور قسطنطين الكبير إلى الحكم منفرداً بعد قتل جميع خصومه من قياصرة وأباطرة (٣٢٤ ـ ٣٣٧ م) ،أظهر إنحيازاً نحو المسيحية ثم أصدر مرسوما بإعفاء أراضى وأوقاف الكنائس من دفع الضريبة ، فراحت الكنيسة تبسط جناحيها هى الأخرى على أراض شاسعة لتعفيها من دفع الضريبة للدولة . ولم يتعفف التاج نفسه عن هذا الإثم ، إذ كان الامبراطور ـ وهو لا يدفع ضريبة عن وساياه ـ كثيراً ما يضع أراض شاسعة تحت لوائه كى تعفى من دفع الضريبة ..

وعندما قلَّ دخل الخزانة أثقلت الحكومة على دافعى الضرائب ، ولكن الناس كانوا قد أرهقوا بما فيه الكفاية ، فلم يتورعوا عن أن يمطروا جامعى الضرائب إذا ما حلوا بالقرى بوابل من السباب والحجارة . ولكن الحكومة ردت

بفرض القوانين والإجراءات المجحفة لتمتص دماء الطبقة الوسطى وصغار الملاك، ولم تدر السلطات أن البقرة الحلوب قد جف ضرعها من اللبن . ومضت الحكومة الرومانية فى سياساتها المتعسفة فحرمت على صغار الملاك بيع أراضيهم أو التنازل عنها ، كما منعتهم من ممارسة حرفة أخرى غير الفلاحة ، ثم أغلقت فى وجوههم باب الدخول فى الجندية . ولا ندهش إذا علمنا أن الكثيرين من أبناء الريف قد هربوا سراً من ذويهم وبيوتهم وعملوا عبيداً عند الموسرين والنبلاء والادهى من ذلك أن الحكومة أصدرت قانونا جعل الأعباء الضريبية على أبناء هذه الطبقة وراثية يتحملها الابن عن الاب (Decurio) ...

إن هذه المأساة التى حولت أبناء الطبقة الوسطى وصغار الملاك - التى هى عماد الدولة - إلى وضع أشبه ما يكون بالعبودية كان واحداً من العوامل الكبرى فى هدم بنيان الامبراطورية الرومانية ..

ولم تكن الأمور بأحسن حالاً مع التجار وأرباب الحرف ، ففى نهاية القرن الثالث صدر قانون يثبت هذه الفئة من المجتمع الرومانى فى حرفتها حتى تصبح كادراً وراثياً ووضعاً إجتماعياً ثابتاً (Status) يرثه الأبناء عن الآباء رغبوا فى ذلك أم كرهوا ..

فى عصر الازدهار الامبراطورى كانت ظاهرة وفرة أعداد العبيد دليلاً على التميز وبحبوحة العيش وضماناً لسير العمل فى مختلف القطاعات ، ولكن الملاحظ أن عدد العبيد أخذ يتناقص بشكل ملوحظ فى القرنين الثالث والرابع ، مما يشير إلى أن عدد الموسرين قد تناقص بالفعل بحيث لم يعد أصحاب الأراضى قادرين على شراء العبيد ولا حتى على إطعام أفواه القلة من الذين بقوا فى

حوزتهم. واختفت جماعات العبيد الذين كانوا يعملون فى الضياع السيناتورية فى كل من إيطاليا وغالة واسبانيا . ولقد نتج عن هذه الظاهرة تطور هام ظل صفة مميزة للحياة الاقتصادية والأوضاع الإجتماعية فى غرب أوربا على مدار العصور الوسطى : فلقد لجأ أصحاب الأراضى الزراعية إلى إبرام اتفاقات مع فقراء الفلاحين فى قراهم ومع العبيد أيضا على أن يقوم هؤلاء بفلاحة الأرض مقابل حصة هزيلة لاتكاد تسد الرمق من غلة الأرض ، مع السماح للبعض الآخر بشريط هزيل من الأرض يفلحونه لحسابهم مقابل خدمات أخرى ، وقد عرف هؤلاء الفلاحون باسم « Coloni » أى معمرى الأرض وهم النواة الأولى للأقنان (Serfs) الذين ارتبطوا بالأرض لايبرحونها فى ظل الهرم الإقطاعى. كذلك استقدم نفر من أصحاب الأراضى فى القرن الخامس بعض المتبربرين الجرمان لفلاحة الأرض بنفس الشروط السابقة ، وعرفوا باسم « Inqui-lini » ..

وإذا نحن نظرنا إلى الشعب الرومانى فى كليته من خاصة وعامة فى أواخر القرن الثالث لوجدنا شعبا متقلب المزاج ، وعلى درجة بالغة من الجبن والإنحلال الخلقى سواء على مستوى طبقات النبالة أو العامة (Plebs) ، كما وان شرف عضوية مجلس الشيوخ لم يعد يمنح لجدارة يحرزها هذا النبيل أو ذاك ، وإنما باتت السيناتورية هبةً يمن بها الامبراطور المهيب على المنافقين من إتباعه وبطانته ..

ومن الناحية الثقافية ظلت الصفوة تلوك تراث الأغريق القدامى أوتحاول تقليده ، وسرعان ماغزت الفلسفات الانهزامية من أبيقورية ورواقية قلوب السادة

الرومـان. والحـق أن الأغـريق قد نجحـوا بخبثـهـم فى ابهـار سادتهم الرومـان « الأغبياء » ، وهكذا عمل البرغاميون والمقدونيون والسلوقيون والبطالمة على إنهاك حيوية روما وامتصاص دماء الرجولة اللاتينية .

هذا عن الوجه القبيح للسجلات الرومانية ،على أنه رغم هذه الافات التى لحقت بهيكل الامبراطورية الرومانية ، فلابد من الاعتراف بان الرومان فى وقت ما كانوا يملكون بعض الصفات الطيبة التى تركت بصماتها على صفحات التاريخ الأوربى . ويأتى فى المقام الأول من فضائل الرومان ذلك الإحساس الباكر بقيمة الذات عن وعى متأصل فيهم مشفوع بشعور من التسامح قبالة نقائص شعوب أخرى عديدة من أغارقة وكلت وغال . لقدكان الرومان يوم سعدهم يؤمنون بأن عليهم رسالة حفظ السلام فى ولايات الامبراطورية . ولا تستطيع أوربا أن تنكر أنها مدينة فى بقائها فى الدرجة الأولى إلى هذا المفهوم الرومانى : من يدرى المصير الذى كان سيحل بأوربا لو أن روما لم تقاتل حتى الموت عدوها العملاق العنيد هانيبال القرطاجى وأفياله ، وبرابرة الغال قريبها وبعيدها ، والفرس ثم الهون والجرمان. ومن يمكنه أن يتنبىء بما كان سيؤول عليه الحال لو أن روما لم تحتضن تحت جناحيها بقايا الحطام الذى استنقذته بالدم المهراق من مخالب المتبربرين ؟ .

كانت تلك المفاهيم وذاك الاعتزاز برسالة روما هى أمل الرومان جميعا ، وهى أيضا عقيدة الصفوة المستنيرة من المثقفين . ويتضح هذا جلياً عندما ندرك أنه لا الآلهة الاعزاء فى لاتيوم (Latium) ولا شىء على وجه الأرض كان يسوى شروى نقير عند الرومان إلى جانب « الربة روما » (Roma Dea) . ولم

تكن عبادة « البطل » فى ظل الحكم « المواطن الأول » سوى تجسيد لفكرة العبقرية التى ترقى بصاحبها من رتبة البشر إلى مصاف الآلهة ، تماماً مثلما كانت الحال مع الاسكندر الأكبر . ومهما قيل عن أحوال الولايات الخاضعة لروما من تعاسة وابتزاز ، فلا شك أنها كانت أسعد حالا من العاصمة ذاتها. حقيقة أن بعض الولايات مثل شمال افريقيا ومصر قد امتصت حتى نخاع عظامها من فرط جشع الفرسان والجنرالات السابقين وعصابات المرابين ، ولكن ما أن أرسى الحكم الرومانى قواعد « السلام » وسيادة القانون حتى خفت مدعاة الشكاية والضجر .

لقد توصلت الامبراطورية إلى حدودها الجغرافية الكبرى عشية ظهور المسيحية فى عهد طيبريوس (١٤ ـ ٣٧ م) خليفة اغسطس ، ومنذ ذلك التاريخ بدت الأحوال فى الولايات أحسن حالاً إذ سمحت لغالبية ولاياتها بقدر من الحكم الذاتى ، وأعفيت بعض الولايات من التجنيد والجزية ، وسمح لكل ولاية بإقامة مجلس محلى يضطلع بتصريف شئون الولاية ومراجعة أوامر الحكومة الرومانية . ولم يكن الامبراطور يملى قرارات على احدى الولايات إلا بعد أن تكتشف الحكومة الرومانية أن السلطة المحلية قد اغرقت الولاية فى الديون . كما ترك الرومان دويلات المدن الاغريقية والمتأغرقة تدبر امورها وفق الأسلوب الذى اعتادته منذ القدم ، فى سلام لم تعرفه هذه المدن لفترة طويلة من الزمن . أما فى الغرب فلم تكن هناك ثمة حضارات قديمة اللهم إلا فى بعض المستعمرات اليونانية على كعب الحذاء الإيطالى ،ولذا فإن الرومان هم الذين أدخلوا فى أدغال الغرب الأوربى مبادىء الحياة والنظم المتمدنة من طرق ممهدة ومؤسسات

إدارية وغيرها ، وعلى التدريج نمت من قلب التحصينات العسكرية الرومانية التي كانت تغطي غرب أوربا النواة الأولى لأجمل المدن في إيطاليا واسبانيا وغالة وبريطانيا وجنوب المانيا . .

كذلك كانت أراضي الأمبراطورية تربة خصبة لنماء وأزدهار الفكر اليوناني،ولابد أن نتذكر أن أكثر من نصف الأمبراطورية الرومانية كان في الأصل أرضا يونانية ورثها الرومان بعد افول نجم الأسكندر المقدوني وبنيانه الكبير ، وإن النصف الآخر صار مسرحا لنشاط التجار اليونان ايضا حتى ان مدنا مثل مرسيليا صار لها اكروبول ، كما وإن جزيرة صقلية كانت عامرة بجالية ضخمة من اليونانيين الذين صبغوها بصبغة هلينية صارخة ،واتضح نفس الأثر في الجنوب الإيطالي ، فمدينة نابلي مثلاً ؛ وهي التي تحوي قبر ڤرجيل شاعر الرومان العظيم ، ظلت مدينة يونانية الطابع . وسرعان ما غزت الفلسفة اليونانية بمختلف مدارسها قلوب الصفوة من الرومان ، فلقد ملكت المدرسة الرواقية(٣١) الآثينية على قلوب بعض الاباطرة مثل كلوديوس وهادريان وماركوس أوريليوس حتى ان الأخير سجل « تأملاته » الرواقية باللسان اليوناني ..

وإلى جانب الفلسفات الوافدة من بلاد اليونان ، أصبحت روما تستقبل يوما بعد يوم عدداً لا يحصى من الأرباب والربات يزاحمون أرباب الكابيتول وسيدهم جوبيتر في روما ، فعرف الرومان إيزيس المصرية ، والأم العظمى (Magna Mater) الفريجية ، ومثرا الفارسي وغيرهم . ومع هذا السيل الذي لا ينقطع من الوافدين على روما تسللت عبادة جديدة عرف أصحابها وقتئذ « بأتباع خريستوس » أي المسيحية . وكان هؤلاء في أول الأمر قلة من بؤساء المجتمع من

بسطاء الناس والعبيد والنساء . والذى دفع هذه الفئات المضيعة إلى إعتناق هذه الرسالة الوافدة من فلسطين أنها كانت تحتضن فى رحابها الفقير كما تحتضن الغنى ،والعبد مثل الحر ،والمرأة مثل الرجل .

ولقد وجد العبيد ، الذين بلغ عددهم عدد المواطنين الأحرار تقريبا ، أن هذه العقيدة الجديدة لاتقيم وزنا للرق والنخاسة فى ملكوت السموات ،ولم تتردد فى المجاهرة بأن عبدا صالحا يحق له أن يصبح ابا روحياً للجميع من الأمير إلى الفقير . أما النساء فقد وجدن فى سيرة العذراء مريم تكريماً للمرأة ، فى حين أن المجتمع الرومانى كان يضع المرأة دوما فى مرتبة دونية بالنسبة للرجل . هذا وقد جاءت الرسالة الجديدة فى وقت تدهور وإنحطاط النظم الرومانية المختلفة واشتداد وطأة السادة على الطبقتين الوسطى والدنيا ..

كان طبيعياً أن يمتعض السادة الرومان من هذه العقيدة الغريبة التى تطاولت على آلهة الكابيتول ونهت عن تقديم الاضحيات لهم ، ثم ما لبثت أن استخفت بملوك هذا العالم ومن بينهم « المواطن الأول » والمؤله ابن روما البار . ومن ثمّ فإن الحكومة الرومانية شعرت بناقوس الخطر يدق على الأبواب ، فسارعت بمطالبة رعاياها أن يبرهنوا على الولاء والطاعة للامبراطور بأن يقوم كل مواطن بإحراق حفنة من البخور عند قدمى تمثال الأمبراطور الحاكم دلالة على الولاء والخضوع .

ولكن المسيحيين رفضوا أداء هذه المراسيم الوثنية خاصة فى الولايات ، فجن جنون حكام الولايات ، وظنوا أن هؤلاء القوم باتوا يتآمرون بالسوء ضد روما وسيد الرومان . وبالنسبة للبلاط الامبراطورى فإن هذا الموقف الرافض كان

يرقى إلى درجة الخيانة العظمى .

وهكذا بدأت موجة الاضطهاد التى ابتدأها الامبراطور دقلديانوس سنة ٢٨٤ م والتى اكتوت بنيرانها ولايات المشرق على وجه خاص . ورد الكهنة المسيحيون على ذلك بأن دعوا أتباعهم فى الدين الجديد إلى الامتناع عن خدمة الدولة وعن الدخول فى الجندية فى موجة من العصيان والتمرد[٣٢] ...

وازدادت مشاعر الشك والريبة فى قلوب الرومان خاصة وأن أبناء هذه العقيدة الجديدة كانوا يلجأون إلى الكهوف وجحور الأرض يمارسون فيها شعائرهم الغريبة ويترنمون بالحان وأدعيات غير مفهومة . وراحت غوغاء المدن تروج عن هذه الجماعة روايات مختلفة ومختلقة عن ممارسات سرية تثير التساؤل، وعليه فإن الحكومة الرومانية ضربت هذه الجماعات بالحديد والنار ، بل أن أعداداً كبيرة منهم قدمت فريسة للأسود المجوعة فى الحلبة الرومانية وسط صياح وهتافات الجماهير المخمورة .. ووجد فى روما من يقول بأن أرباب الكابيتول أضحوا أشد عطشاً لدماء هؤلاء المارقين ،وكان لابد من ارتواء الآلهة واطفاء ظمأها وغضبها بدماء الذين كانوا لهم من المنكرين .

ولم تهدأ الحال إلا بعد أن أصدر الامبراطور قسطنطين الكبير مرسوم ميلان سنة ٣١٣ م بوقف اضطهاد المسيحية والسماح لاتباعها بممارسة شعائرهم جنباً إلى جنب مع الوثنيين دون أن يتحرش طرف بالآخر[٣٣] . على أنه انصافاً للحقيقة التاريخية فى هذا المقام لابد من التأكيد على أن مجموع عدد الشهداء الذين سقطوا فى القرون الثلاثة الأولى فى عصر الاضطهاد لم يبلغ جزءاً واحداً على المائة من أعداد المسيحيين الذين أمرت الكنيسة الرومانية

ابتداءاً من القرن الحادى عشر بإحراقهم بتهمة « الهرطقة » والخروج عن التعاليم القويمة ، وذلك بواسطة محاكم التفتيش ، كما سنبين فى فصل لاحق.

يبقى بعد هذا العرض أن نتوقف قليلاً عند اسباب سقوط الحضارات ومن بينها الحضارة الرومانية معرجين على رؤية كل من العلامة عبد الرحمن بن خلدون ، والفليسوف هيجل ، وماركس ثم أرنولد توينبى :

يرى العلامة عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦ م) فى «مقدمته» أن للدول أعماراً تماماً كالكائن الحى « من التزايد إلى سن الوقوف ، ثم إلى سن الرجوع .. وإذا ما شاخت الدولة لن تقوم لها قائمة ، وهكذا شأن كل دولة لابد أن يعرض فيها عوارض الهرم بالترف والدعة وتقلص ظل الغلب ، فينقسم اعياصها أو من يغلب من رجالها ودولتها وتتعدد فيها الدول ... ولكل أجل كتاب »[٣٤] . ومن عوامل إنهيار الحضارات ايضا عند ابن خلدون اتساع رقعة الدولة مما يحول بين الحاكم وفرض سلطانه على الأجزاء النائيه . هذا إلى جانب إثقال كاهل المحكومين بالضرائب أو الجباية. وجميع هذه العوامل التى عددها ابن خلدون تنطبق على أحوال المجتمع الرومانى فى أواخر القرن الثالث للميلاد كما بينا سلفاً . .

أما جورج ڤلهلم هيجل (١٧٧٠ ـ ١٨٣١ م) فإنه يعزى مأساوية الحضارات على مدار التاريخ إلى التعارض بين الهوى والواجب .لقد عجز الإنسان على درب التاريخ عن حل هذه الإشكالية من الصراع ،لأنه لم يملك الشجاعة التى تعينه على تجاوز هذا التعارض بارتفاع حر يصل به إلى تلكم

النفس الجميلة الزكية التى تهزم التناقض والصراع بالحب .. حب المصير والمصلحة الإنسانية ـ هنالك يكون السمو وغفران الخطايا حيث يلتئم الكلى بالخاص[٣٥] .

ولم تكن روما بمواطنها الأول الأبد وبشيوخها الفاسدين وارستقراطيتها الزراعية الجشعة ،وقناصلها المرابين ، وعامتها المتنطعة الكسولة بقادرة على هذا « التجاوز » ، ومن ثم باتت روما أسيرة لسراب قديم صوره لها ڤرجيل فى ملحمة اينياد الأسطورية ، غير مدركة لخطورة حاضرها وما يهدد مستقبلها ..

وطبقا لمقولات كارل ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣ م) يمكن القول بأن الأنسان الفرد فى اوقات المحنة الرومانية الكبرى فى أواخر القرن الثالث سواء فى العاصمة أوفى الولايات لم يملك حيلة للفكاك من شعور « الإغتراب » الذى بات يستحوذه دون أمل فى الانعتاق . وهكذا فان رجالات الجيش وأبناء المعسكرات والطبقات الكادحة من الفلاحين وأرباب الحرف والعبيد الذين بلغ عددهم نصف سكان روما والعامة اللاهية المخمورة ، لم يتمكنوا من مغالبة هذا الشعور القاتل ، ولم تمارس فئة واحدة من هذه الطبقات « فاعلية » تسمح للمجتمع الرومانى أن يتجاوز اللحظة الحرجة والتفاعل إيجابيا مع الأخطار المحدقة بالامبراطورية ، ومن هنا كانت الحال شبيهة بحالة الانتحار[٣٦] . والأمثلة على ذلك قد سقناها فى موضعها .

وإذا وصلنا إلى المؤرخ أرنولد توينبى (١٨٨٣ ـ ١٩٧٥) ، نجده يحلل أسباب انهيار الحضارات بصفة عامة ، معرجاً بطبيعة الحال على الأمبراطورية الرومانية ، وهو يرى أن التدهور هو محصلة الفشل فى محاولة الإنسان العلو

بإنسانيتة من درك الحيوان إلى المستوى الآدمى بالمعنى الحضارى .ويتمثل هذا الفشل فى فقدان القدرة على الخلق ، وفى إفلاس القادة ، وفى ذبول القوة الدافعة عند الجماهير .

ويأتى التمزق دواما من داخل المجتمعات ، وليس من الخارج ،وذلك عندما تشعر الأقوام بأن السحر البراق الذى كان يزدان به القادة قد علاه الصدأ ولم يعد يخدع أحداً . ولا يأتى التصدع ابداً من الخارج على يد قوة فتية غازية ،وإنما ينحصر ماتقوم به الجماعة الغازية فى توجيه الضربة الأخيرة لكيان انتحر مسبقاً .

من أسباب الأنهيار ايضا ـ عند نفس الكاتب ـ فقدان الإنسجام بين عناصر المجتمع ، مما يؤدى إلى فقدان البصيرة وما يتبع ذلك من إصابة الجماعة بالعجز عن تقرير مصيرها ..

هذا إلى جانب أن القلة التى كانت قبلاً تتسم بشىء من الخلق أو المبادأة تمسى مع مرور الوقت جامدة على ما هى عليه ، عاجزة عن الإستجابة للتحديات الجديدة (Challenge Respone Argument)، بل ان هذه القلة الحاكمة تتشنج على مكاسبها ومناصبها القيادية التى اهتبلتها هى وزمرتها من المنتفعين ،وبذلك فإن هذه القلة تتخذ من كل جديد موقفا سلبيا جامداً ،وهذا موقف لا أخلاقى يتسم بالانانية وعبادة الذات ...

كذلك يلاحظ فى مسار الحضارة أن بعض المجتمعات يطيب لها أن تتوقف عند لحظة تاريخية مواتية فى عهد قديم إلى حد الافتنان أو التحجر ، دون النظر إلى المتغيرات الدينامية التى تجد كل يوم والتى تفرض تحديات جديدة تستوجب استجابات بأسلحة وتقنيات تكافىء هذه التحديات الجديدة ، وهذا العجز

ينطوى على خطورة بالغة قد تؤى ببعض الجماعات إلى ضرب من ضروب عبادة الأصنام القديمة ، من بطولات بادت ولحظات ذهبية قد ولت ، وهذا وضع آثم وقعت فيه اثينا وروما ، ومن ثمّ ينطبق عليهم االقول : « لا يوضع النبيذ الجديد فى الزجاجات القديمة البالية ،ففى هذا هلاك للإناء البالى وانسكاب للنبيذ أيضاً (٣٧) »..

وبعد الإنهيار يأتى دور الاحتضار فى المجتمعات ، ومن مظاهر ذلك انتشار الفصام فى جسم المجتمع ، مثلما كانت الحال فى المجتمع الرومانى بطوائفه وطبقاته وسادته وعبيده وجنده المرتزقة من الجماعات المتبربرة . ويواكب هذا الخلل انفصام فى الروح حيث تظهر الفلسفات الانهزامية مثلما كانت الحال مع الرومان الذين كانوا تارة ابيقوريين وأخرى رواقيين أو كلبيين . ومع اعتراف قسطنطين الكبير بالمسيحية تسربت إلى المجتمع الرومانى اتجاهات مغالية فى رواقيتها باتت تستعذب الموت تحت شعار « الاستشهاد » وما هذا فى حقيقة الأمر إلا ضرب من ضروب الإنتحار هروبا من تحديات الأوقات .

وتنعكس مظاهر الإنحطاط فى نتاج المجتمع ، فترى اللغة وقد اعتلت اسلوبية واجرومية ، والأدب وقد غث ، والفن وقد صار سوقيا غوغائيا ،والفن وقد وصل إلى درك الإسفاف ، وتلك هى علامات النهاية !

الفصل الثانى

عالم متبربر

هجرات الشعوب المغولية والجرمانية ـ الهون ـ القوط الوندال ـ صورة للعصر من آداب العصر

ظلت الشعوب الجرمانية فيما وراء الدانوب والراين فى سلام مع الامبراطورية الرومانية خوفاً من فيالقها التى لاتهزم ، ولكن هذا لم يمنع من حدوث صدامات بين الحين والآخر بين الطرفين ، وجاء أول صدام فى نهاية القرن الثانى قبل الميلاد وذلك عندما تحركت قبائل الكمبرى والتيوتون من شواطىء بحر الشمال قبالة حوض البحر الأبيض المتوسط مهددة فى هجراتها ولايات الامبراطورية خاصة فى غالة . وقد وقع صدام بين فيالق الجيش الرومانى بقيادة ماريوس وبين جماعة الكمبرى سنة ١٠٢ ق . م عند بلدة إكس ـ إن ـ بروڤانس ، ثم عند ڤرسيل سنة ١٠١ ق. م ،ولم تكن النتيجة حاسمة لأى من المعسكرين .وفى سنة ٥٨ ق.م استنجد زعماء غالة بيوليوس قيصر لحمايتهم من هجوم زعيم جرمانى اسمه اريوڤست فى منطقة الألزاس . وقد لبى قيصر النداء وتصدى للزعيم الجرمانى الجديد واجبره على التقهقر وراء الراين[٣٨] . وتابع قيصر حملاته على منطقة الراين سنة ٥٥ ق . م وتبعه بعد ذلك أغريبا سنة ٣٨ ق م، ثم دروسوس زوج ابنة الامبراطور أغسطس الذى نجح فى إخضاع المناطق

الواقعة بين نهر الراين وإلب وإن كان قد قتل أثناء المعارك . بعد مقتل دروسوس خلفه فى القيادة شقيقه طيبيريوس الذى عبر نهر الدانوب وانقض على منطقة بوهيميا .غير أنه فى العام التاسع ق.م زحف الجرمان مرة أخرى تحت قيادة ارمنيوس ، فتصدى له الرومانى ڤاروس ، ولكن الجرمان أوقعوا بالرومان هزيمة ساحقة فى موقعة تيتوبرجرڤالد ، واضطر الرومان إلى أخلاء الشط الأيمن لنهرالراين .ولما أعتلى طيبيريوس العرش الأمبراطورى قرر اتباع سياسة دفاعية فى تلك المناطق بدلاً من السياسة الهجومية السابقة ..

وتعكس كتابات المعاصرين الشعور العام فى الامبراطورية الرومانية تجاه الخطر الجرمانى الذى بات يهدد كيان « السلام » الرومانى : فلقد عبر أوڤيد وبلينى الأكبر ، والفيلسوف سنيكا ، والمؤرخ تاكيتوس عن مخاوفهم من زحوف القبائل الجرمانية ، مع الإشادة بشجاعتهم وأخلاقهم التى كانت ـ فى رأيهم ـ كافية للقضاء على المجتمع الرومانى الذى استشرى فيه الفساد[٣٩] .

على أن الحدود مع الجرمان قد شهدت هدوءاً نسبيا فى القرن الثانى للميلاد ، خاصة بعد أن نجح الامبراطور تراجان (٩٨ ـ ١١٧ م) فى إخضاع منطقة داكيا ، وبعد أن أرسى الأمبراطور انطونينوس بيوس دعائم السلم على حدود الدانوب (١٣٨ ـ ١٦١ م) ، حتى ان الخطيب اليوس ارستيدس امتدح حصافة الأمبراطور ، مفاخراً بعودة السلام الرومانى ، ومهدداً بالعصا الرومانية الغليظة لكل من تسول له نفسه التطاول على مدينة المدائن روما فهى الأم العظمى والموئل لسائر شعوب الأرض ، والتى بوسع الأغريقى والمتبرير جميعا التعايش تحت مظلتها سواء بسواء[٤٠] .

ورغم هذا فإن الحقيقة الثابتة هى أن شوكة جرمانيا كانت آخذة فى القوة، فلقد تحركت جماعة من القوط من على ضفاف نهر فستولا قبالة شواطىء البحر الأسود ،وتبعتها جماعات مختلطة الهوية من القواضى (Quadi) والماكرومان الذين عبروا نهر الدانوب وحاصروا المدن ، حتى أن أهالى روما نفسها قد شعروا بالفزع رغم جهود الأمبراطور ماركوس اوريليوس (١٦١ ـ ١٨٨ م) فى تعزيز نقاط الحدود على نهر الدانوب(٤١) . ولم تنقطع تحرشات الجرمان على حدود الدانوب والراين، ففى عهد الامبراطورين ڤاليريان (٢٥٣ ـ ٢٦٠ م) وجاليان (٢٦٠ ـ ٢٦٨ م) تمكنت جماعة من الفرنجة من تحطيم حواجز الراين والعبور إلى غالة ومنها إلى اسبانيا حيث استولت على بعض السفن الراسية فى البحر المتوسط وأبحرت بها إلى شواطىء موريتانيا. كذلك هجمت جماعة أخرى من الجرمان على إيطاليا عبر ممرات جبال الألب ونهبت مدن الشمال الإيطالى وصولاً إلى مدينة راڤنا ، إلى أن تصدى لهم الأمبراطور جاليان عند مدينة ميلانو .

وفى سنة ٢٦٩ م إجتاح القوط مناطق الدانوب واشتبكوا مع الإمبراطور كلوديوس (٢٦٨ ـ ٢٧٠ م) عند بلدة نيش فى البلقان . وفى نفس الوقت زحفت جحافل أخرى من الفرنجة والألمانى على غالة وخربت قرابة ستين مدينة من بينها باريس وبواتييه وبوردو ، ورغم جهود الأمبراطور بروبوس (٢٧٦ ـ ٢٨٢ م) إلا أن غالة صارت نهباً للجرمان فعمت فيها الفوضى والمجاعات ...

ولقد هدأت لحين جبهة الراين فى عهود الأباطرة دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م) ، وماكسميان (٢٨٦ ـ ٣٠٥ م) ، وقسطنطين الكبير (٣٢٤ ـ

٣٣٧م) ، ولكن الجرمان ظلوا يتسللون إلى قلب شبه الجزيرة فى البلقان ، واضطر الأمبراطور قسطنطين الثانى (٣٣٧ ـ ٣٤٠ م) إلى قبول هؤلا القوط « كمعاهدين » (Foederati) فى خدمة الامبراطورية .ثم ارسلت السلطات الرومانية بالمبشرين الذين نشروا المسيحية بين هؤلاء القوط على المذهب الاريوسى الذى كان الأمبراطور منحازاً إليه(٤٢) .

وعندما زحفت حشود من مغول آسيا يعرفون باسم الهون (Huns) على شرق أوربا ارهبوا القوط بسياطهم وخناجرهم ، فاستصرخ القوط السلطات الرومانية كى تسمح لهم بعبور الدانوب هروباً من الهون . ولقد سمح امبراطور النصف الشرقى للأمبراطورية ڤالنس (٣٦٤ ـ ٣٧٨ م) للقوط بالعبور سنة ٣٧٦ م ، الأمر الذى أثار هياجاً شديداً بين المعاصرين ، عبر عنه الكاتب المعاصر اميانوس مارسللينوس بقوله « إن مطلب القوط لا ينم عن خطر يتهددهم بقدر ما يفصح عن أمل يراودهم ... إن رجال البلاط المنافقين قد صوروا لصاحب الجلالة أن شعبا تعيساً من أهل الأرض يستصرخة طلبا فى الرحمة القيصرية والسماح لهم بالاستقرار على تراب تراقيا ، وهم بهذا يحققون آمال شعب متوحش ... ان تلك الزحوف الجرمانية لا تصلح بحال للخدمة كجند مرتزقة ، بل انهم يوما ما سوف يكونون السبب فى تحطيم الامبراطورية(٤٣) .ويقارن اميانوس عبور القبائل الجرمانية لنهر الدانوب بعبور الميديين ـ فى القديم ـ لمضيق الدردنيل ،ولا يخفى الكاتب سخطه الشديد على السلطات المسئولة فى الامبراطورية بسبب تقاعسهاعن ردع الخطر قبل فوات الأوان .

من جانب آخر نجد نفراً من حملة المباخر وخصيان القيصر يمتدحون الأمبراطور ڤالنس لتسامحه وحكمته فيخلعون عليه لقب « الأمبراطور المحب لجنس البشر » ، بل إن الشاعر ثيمستيكوس يلقبه « بالقوطى » الذى جمع بين الرومان والسكيزيين[٤٤] ، ويقدر عدد القوط الذين عبروا نهر الدانوب إلى قلب البلقان بحوالى مائتى ألف ، دون حساب عدد ذويهم وعبيدهم[٤٥] .

كان من ضرب المستحيل تزويد هذه الأعداد الغفيرة بما يسد رمقها ،ولذا فإن القوط انقضوا على أهالى القرى ينهبون ويسلبون فخربوا مناطق مؤيزيا وتراقيا ، وضج الأهالى من غلظة القوط . أمام هذا الموقف المتدهور أفاق الأمبراطور ڤالنس من غيبته وسارع بإعداد حملة قادها بنفسه لتقليم أظافر القوط . والتقى الطرفان عن مدينة أدريانوبل فى ٩ أغسطس ٣٧٨ م ، وانتهت المعركة بكارثة مهولة ، فلقد حلت الهزيمة كاملة بالجيش الرومانى ، وقتل الأمبراطور ڤالنس فى أرض المعركة . وبعدها دانت البلقان للقوط فنهبوا البلاد ، وزحفت جماعة منهم حتى شارفت أسوار القسطنطينية نفسها . .

أثار مقتل امبراطور النصف الشرقى للامبراطورية على أيدى القوط ردود فعل عنيفة فى النصف الغربى للأمبراطورية ، وعلت الأصوات تطالب امبراطور الغرب جراتيان بضرورة التحرك للانتقام من القوط . ومن بين الأصوات التى دوت كان امبروز اسقف ميلان الذى صاح يقول: « تلك هى علامات الساعة، لا بل هى نهاية العالم ... ها هو صليل السيوف يدق كل مكان .. لقد مالت علينا شعوب القوط والآلان (Alans) ، وانتهكت حرمات إلليريا ، ولن ينتهى الأمر عند هذا الحد »[٤٦] .

واتساقا مع روح العصر فإن جميع المصادر الكاثوليكية المعاصرة تعلل سبب الهـزيمة المنكرة التى لحقت بالامبـراطور الشـرقى فـالنس باعـتناقـه للمـذهب الأريوسى « المهرطق » أى المخالف لجوهر العقيدة الكاثوليكية(٤٧) .

بعد مصرع ڤالنس اختار الامبراطور الغربى جراتيان جنديا مرموقا ليحكم النصف الشرقى للأمبراطورية وهو ثيودوسيوس الذى لمع نجمه بعد أن حقق عدة انتصـارات على قبـائل السـرماتيين .واتفق على أن يتولى جـراتيان تأمين حدود الراين، وأن يقـوم ثيـودوسيوس بتجمـيع فلول الكتـائب المنهـارة فى الشرق لطرد القـوط من سالكونيكا ومؤنيريا العليا . ونجحت هذه السياسة فى إيقـاف زحف القـوط ولو إلى حين . وقـد لجأ امبـراطور القـسطنطينيـة الجديد ثيـودوسيـوس (٣٧٨ ـ ٣٩٥م) إلى سياسة الدبلوماسية فرحب فى بلاط بيزنطة بملك القوط أثانارك بعد أن خلعه شعبه ومنحه حق اللجوء إلى القسطنطينية لعله يفيد به فى معالجة المشكلة القوطية التى باتت تهدد كيان الأمبراطورية فى الشرق والغرب على حد سواء .ولكن هذه السياسة المهادنة قوبلت باستنكار شديد ، إذ كيف ترحب القسطنطينية بعدوها اللدود الذى كان بالامس يتوعدها بالغزو والدمار ؟ وفى نهاية الأمر نجح ثيودوسيوس فى إبرام اتفاق مع القوط على أن يسمح لهم بالاستـقـرار فى منطقـة تراقيـا مقـابل تزويد الجيش الامبـراطورى ببضـع كـتـائب قـوطية . وهنا نسـمع صـوت الشـاعر ثيـمستـيكوس يرتفع من جديد فى مديح ثيودوسيوس وحكمته ، مبرراً خطة الامبراطور لأنـها تجعل القوط يفلحون أرض تراقيا بدلاً من قتلهم للفلاحين هناك . وقد عبر عن نفس الرأى الخطيب الوثنى باكاتوس فى قوله بأن الامبراطور الحصيف قد نجح فى تحويل أعداء الأمس إلى

خدم للامبراطورية وإلى عمال لفلاحة الأرض أو إلى جند يسهرون على حراسة الحدود[٤٨] ...

إن الخطر الذى بات يهدد العالم الرومانى ، رغم المحاولات اليائسة لاحتواء هذا الخطر من جانب الامبراطور ثيودوسيوس ـ قد ولد شعوراً من القلق والكآبة فى وجدان مفكرى القرن الرابع : فلقد ظهرت آراء تشكك فى فكرة الخلود التى خلعها الشاعر ڤرجيل على مدينة روما ، وراح الكثيرون يستشعرون مكروها يحل من السماء على أرض المدينة الخالدة . ومن البارزين فى هذا التوجس الشاعر يوفنقوس من جماعة « الأناشيد السبللينية » التى نادت بأن لا خلود لشىء على وجه الأرض ولا حتى لروما ذهبية المولد نفسها . على أن امبروز اسقف ميلان وقف مناهضا لهذه الروح المتشائمة القاتمة ، فكتب مقالاً بعنوان « الواجبات » سنة ٣٨٩ يحث فيه المواطنين الرومان على مناهضة البرابرة أعداء الأنسانية الذين يسومون العذاب لمن يقع فى أيديهم من الرومان أسيراً . وهو ايضاً يحث المواطنين على التحلى بفضيلة حب الأرض وتراب الوطن وافتداء الأسرى بالمال ، إذ لم يعد الأمر مجرد دفاع عن روما فحسب وإنما توجب على الكل أن يتصدى لقوى البغى والعدوان التى باتت تهدد الأنسانية جمعاء سواء كان ذلك فى القسطنطينية أم فى روما أم على حدود الراين أو الدانوب[٤٩] ...

وقد تحققت هذه المخاوف جميعا ، فبعد أن استخدم الأمبراطور ثيودوسيوس كتيبة من القوط فى صراعه ضد خصمه يوجنيوس المطالب بالعرش ،إزدادت شوكة القوط فى العاصمة نفسها إلى حد أن الأمبراطور قد اضطر فيما بعد إلى إبعاد هذه الكتيبة إلى أراضى الدانوب . ولكن هذا الإقصاء من العاصمة أغضب

القوط فتجمعوا حول زعيم جديد خطير يدعى الارك ، وراحوا يغيرون على أراضى تراقيا وتساليا واتيكا والمورة .وأصيبت بلاد اليونان بخراب أتى على الأخضر واليابس . ولقد فسر الكتاب الوثنيون المعاصرون هذا الدمار الذى أوقعه القوط ببلاد اليونان على أنه مؤامرة دنيئة حاكها الأمبراطور الشرقى ثيودوسيوس مع القوط للقضاء على بقايا الحضارة الهلينية الوثنية(٥٠) .والمعروف أن ثيودوسيوس كان شديد الوطأة على الوثنية ومعابدها وكهنتها فى مختلف الولايات الخاضعة للنصف الشرقى للامبراطورية ، فلقد أصدر سنة ٣٩٢ م مرسوما امبراطوريا بتحطيم معبد السيرابيوم الشهير فى مدينة الأسكندرية ، كما أمر بإيقاف تقديم الأضحيات فى المعابد ، ونعت الوثنية صراحة بأنها « شعوذة سوقية » (Gentilicia Superstiti) .سقطت مدن اليونان الواحدة تلو الأخرى فى أيدى آلارك وباتت كورنثة وارجوس وميغارة واسبرطة وبيريه خرابا يباباً . ولم تملك آثينا إلاأن تفتح بواباتها للغازى القوطى الجبار ، ويقال أن ألارك قد أمر رجاله بعدم تخريب آثينا لأنه قد أصيب بالذعر عندما وجد نفسه يحملق فى تمثال الربة آثينا ومن ورائها البطل الملحمى آخيل سيد الشجعان فى حرب طروادة ...

لقد فزع المعاصرون أمام ذلك الخراب الشامل الذى حلّ بأرض اليونان على أيدى المتبربرين ، فكتب جيروم سنة ٣٩٦ م رسالة تفيض حزنا وأسى ينعى فيها بلاد اليونان بقوله : « أنّ لى أعدد المآسى التى حلت بزماننا والحزن يعصر قلبى ، فعلى مدى عشرين عاما متتالية والدماء تسفك بين القسطنطينية وجبال الألب اليوليانية .. لهفى على العذارى والأمهات ، وعلى كل مواطن حر

أصيل سيق عبداً فى أيدى البرابرة الشقر .. لقد قيد الاساقفة والقسيسون بأغلال المذلة والمهانة ،ودمرت بيوت العبادة وحولت جوانبها المقدسة إلى اسطبلات للخيول .. لقد تدنست ايقونات القديسيين ، وعمت الاحزان فى كل مكان ، وعلا النحيب فى مختلف الأركان ورانت على الكل علامات الموت .. أين شجاعتك كورنثة ، واين انتم يا أبطال اثينا وصناديد الأركاد[٥١] ؟ .

غير أننا نجد عند زعيم الفلاسفة الوثنيين آنذاك وهو ليبانوس تفسيراً لتلك الأحداث المهولة ؟ فهو يرجح البلاء كله إلى غضب الآلهة الوثنية التى استشاطت غضبا عندما اغتال المسيحيون الامبراطور جوليان الذى نبذ المسيحية وارتد إلى الوثينية . فلو أن المعابد القديمة بقيت مفتوحة الأبواب تتقبل الأضحيات للأرباب لما سمحت الآلهة بأن تمس روما بهذا الجحيم من الحديد والنار[٥٢] .

توفى الامبراطور ثيودوسيوس سنة ٣٩٥ م بعد أن قسم الامبراطورية بين ولديه : أركاديوس للنصف الشرقى ، وهونوريوس للنصف الغربى . ولقد استفحل خطر القوط فى القسطنطينية فى عهد اركاديوس إذ تزوج هو من ابنة لأحد ضباط الجرمان ،بينما تغلغل القوط فى قلب الجيش الرومانى وملأوا أجنحة القصر الامبراطورى ، وعلا نجم زعيمهم غايناس الذى أصبح يقيل ويعين الوزراء كيفما يشاء . وثار الرأى العام فى القسطنطينية ضد هذا الوضع الخطير والمهين .وتحرك اسقف مدينة قورينا ويدعى سينسيوس من اراضى ليبيا قاصداً الامبراطور على البسفور لكى يوقظ الامبراطور الصبى الغافل من غفلته ، والقى أمامه وعلى مسمع من رجال بلاطه مقولة جريئة هاجم فيها تسلط القوط

على أمور الدولة ، ساخراً فى نفس الوقت من مظاهر الترف والدعة التى تردى فيها الامبراطور وبلاطه من زمرة المنافقين :

« هل يدان المرء فى هذا القصر لأنه يقول قولة الحق ،أم لأنه يتعفف عن أساليب النفاق التى تدغدغ آذان الجالس على العرش ؟... وما تلك الصورة التى أنت عليها ياصاحب الجلالة .. غريب هذا الذى أنت عليه كالطاووس المصفد باحمال من الحجر الكريم ، غير مدرك أن وهج الياقوت يسلب سلطان العقل ،وهو بعد سجين ... ليس غريبا والحال كذلك أن تصبح الأرض وترابها خشنة الملمس على قدميك الناعمتين أيها الأمير ، لأنك لاتستطيع السير إلا على بسط موشاة بخيوط الذهب الناعم ... قم أيها الراعى واحترس من الذئاب فهى وإن احتضنت من صغرها وبدت مستأنسة فلابد يوماً أن تكشر عن أنيابها لتلتهم القطيع ،ثم لا تلبث أن تنقض على الراعى نفسه لتأتى عليه تماماً كما فعلت مع القطيع...»(٥٣) .

لقد أتت مقولة سينسيوس أكلها فأثارت المشاعر فى العاصمة الشرقية ضد القوط وزعيمهم غايناس ،وفى نهاية سنة ٤٠٠ م دبرت السلطات مؤامرة تم فيها إغتيال غايناس وأتباعه فى ضربة واحدة .وقد هلل الناس فرحاً ،وكتب الشعراء قصائد طوالاً بهذه المناسبة .وتصور الناس أن الغمة قد انقشعت وما كانوا يعلمون أنه بعد غايناس سوف تبتلى الامبراطورية بقوطى آخر أشد وأنكى ألا وهو آلارك ..

لقد جاهد النصف الشرقى من الامبراطورية الرومانية لكى يعايش الخطر القوطى دون أن يصاب بالانهيار . وساعد على ذلك الصمود موقع بيزنطة

الاستراتيجى المتميز ، إلى جانب اسوارها العالية الحصينة ،كما لعبت الدبلوماسية البيزنطية الذكية دورها فى التخفيف من غلظة الزعماء الجرمان تارة بالهدايا وحفلات الاستقبال فى القصر الامبراطورى وأخرى باستضافة أبناء الزعماء ضيوفاً فى القصر الامبراطورى حيث تلقنوا أساليب الحضارة وبروتوكولاتها ..

بعد أن قسم الامبرطور ثيودوسيوس الامبراطورية إل قسمين جاء النصف الغربى من نصيب ابنه هونوريوس الذى كان بدوره يستعين بزعيم جرمانى خطير اسمه ستيليكون كقائد أعلى للجيش الرومانى . وكان ستيليكون يخطط للاستيلاء على أقليم إلليريا على حساب النصف الشرقى للامبراطورية . ولهذا فإن السلطات فى النصف الشرقى لم تجد غضاضة فى تشجيع الزعيم القوطى آلارك على التصدى لمخطط ستيليكون ، بل وأنعمت عليه بلقب « سيد الجند الأعلى فى إلليريا » (Magister Militum Illyicum) .

أما آلارك فقد قرر أن يزحف غربا ليستولى على إيطاليا نفسها ، فعبر برجاله جبال الألب اليوليانية ،وخوفا من الحصار والمجاعة اضطرت مدن الشمال الإيطالى إلى فتح بواباتها للغازى القوطى الجديد ،بينما جمع الموسرون كنوزهم ولاذوا بالفرار بحرا إلى جزر سردينيا وصقلية اتقاءاً لغائلة المتبربرين[٥٤] .

فى هذا الجو المخيف نشطت صنوف شتى من الأراجيف ، فهرع الكهان لاستشارة آلهة المعابد ، ولكن وحيها نطق بسوء المصير . وقد واكب ذلك الشعور بالهلع علامات طبيعية من خسوف للقمر ونشوب للحرائق وهبوب للعواصف هنا وهناك ،وفسر الناس كل ذلك بنذير للسوء القادم .وانتقلت

حمى الفزع إلى القصر الامبراطورى الذى نقل من روما إلى ميلان ، وفكر أفراد الحاشية فى الهرب . ولكن ستيليكون أقنع الامبراطور هونوريوس بضرورة البقاء فى ميلان لرفع معنويات الشعب ،ثم روج ستيليكون رواية خيالية مؤداها أن ذئبين قد هاجما الامبراطور هونوريوس وهو يتجول فى ضواحى ميلان ولكن الذئبين قد قتلا بمعجزة ، وعندما بقرت بطنا الذئبين عثر بداخلهما على كفين آدميتين . وقد بادر عرافو القصر بتفسير تلك العلامة بأن يدى زعيمى القوط والوندال سوف تقطعان بواسطة الجيش الرومانى ..

وقعت مناوشات بين الزعيم الجرمانى آلارك وبين الجيش الرومانى بقيادة الزعيم الجرمانى ستيليكون ، وفى آخر الأمر اتفق الزعيمان على غزو اقليم إلليريا سويا . ولما أن فاحت أخبار هذا الاتفاق ارتفعت الأصوات فى الغرب تتهم ستيليكون بالخيانة ،وقد عبر عن ذلك صراحة القديس جيروم مؤكدا أن هذا المتبربر قد جر الخراب على روما(٥٥) .

كما أن الجند الرومان عبروا عن تذمرهم بسبب ازدياد أعداد الجرمان فى صفوف الجيش الرومانى ، واضطر الأمبراطور هونوريوس إلى تدبير مؤامرة تمّ فيها اغتيال ستيليكون فى ٢٢أغسطس ٤٠٨ م . وبعد انقضاء عشرة أعوام من اغتيال ستيليكون كتب الشاعر الوثنى روتيليوس ناماتيانوس أن المجرم الحقيقى الذى ساهم فى تدمير الامبراطورية الرومانية والذى كان يخفى فى طوية نفسه خلاف ما يظهر هو ستيلكيون نفسه الذى وضع روما رهينة فى يده قبل أن تسقط فى أيدى آلارك(٥٦) . وخير دليل على خيانة ستيليكون أن الفرق الجرمانية التى كانت تخدم فى الجيش الامبراطورى سرعان ما هجرت المعسكر

الروماني وانضمت علانية إلى معسكر الارك ،وفي اثناء ذلك كانت تعزيزات قوطية تفد من وراء الدانوب على معسكر آلارك ، وأخيراً وصلت فرقة أخرى بقيادة صهره أتولف . وقرر آلارك الزحف على مدينة روما ...

إستولى القوط على مدن اقويليا وپادوا وكريمونة ، وقطعوا على العاصمة سبل الأتصال بالعالم الخارجي بضرب حصار حول اسوارها . وسرعان ما شحت المؤن وانتشرت الاوبئة ، وسقط الكثيرون من الجوع أو الخوف أو منهما معا ، واضطر بعض الأغنياء إلى التبرع ببعض ما لديهم لشراء الخبز من السوق السوداء وتوزيعه على المجوعين فى المدينة المحاصرة ، وكان على رأس المتبرعين أرملة الامبراطور الراحل جراتيان ، غيرأن أرملة القائد الجرماني ستيليكون لم تتبرع بشيء للفقراء ، فحامت حولها الشبهات وسرت إشاعة بأنها على اتصال سرى بالعدو القوطى ، فقبض عليهاوتمّ إعدامها ..

أدرك أهل روما أن الكارثة واقعة لا محالة ، فأوفدوا سفارة إلى معسكر آلارك يفاوضونه فى تسليم المدينة إليه على أن يؤمنهم على حياتهم وأملاكهم ،ولكن الزعيم القوطى رد على السفراء بقول ساخر : « اعلموا أنه على قدر ما يشتد صلب العود يسهل جزه بالمنجل »[٥٧] ثم طلب إلى السفراء أن يسلموه ما تحتويه المدينة من كنوز ذهبية وفضية إلى جانب الاسرى الجرمان ..

وعندما تأزم الموقف إلى هذا الحد طالب نفر من الوثنيين فى روما بضرورة تقديم الاضحيات للآلهة القديمة ،ووجد محافظ روما نفسه مضطراً إلى أن يلفت نظر البابا انوسنت الأول بأن يغمض عينيه عن قيام الشعب الروماني بتقديم الاضحيات للآلهة الوثنية بشكل علنى . ثم وجه الرومان سفارة جديدة

إلى معسكر آلارك يعرضون عليه خمسة الاف قطعة من الجلود الارجوانية اللون، وثلاثة الاف رطلاً من التوابل . ولسداد كل هذا فرضت السلطات ضريبة خاصة على أغنياء المدينة ، ولقد استجاب البعض بينما تحايل الكثيرون للتهرب من الدفع .

ولما أن طال الحصار وتعثرت المفاوضات واشتد الجوع هاجت العامة وهجموا على محافظ المدينة وامطروه بوابل من الحجارة حتى هلك . واختلط الحابل بالنابل ، واقتحم الدهماء بيوت العبادة ينهبون تماثيلها الفضية والذهبية وألقوا بها فى النار لتصهر فيحولونها إلى عملات (٥٨)..

بعد أن تسلم آلارك جزءا من الفدية المطلوبة ، سمح لأهل روما بالخروج من الحصار لمدة ثلاثة أيام عبر بعض البوابات المحددة وذلك للتزود بالمؤن .

ولم يفوت جند آلارك هذه الفرصة ، فأخذوا يبيعون للناس بعض أغراضهم باثمان خيالية . هذا وقد استجابت السلطات فى روما لمطلب آلارك فأطلقت سراح ما لديها من اسرى جرمان ، فجاء هؤلاء ليرفعوا من عدد الجند فى المعسكر القوطى المتحفز .

تراجع آلارك بعد هذا إلى منطقة توسكانيا لكى يراقب مدى التزام السلطات الرومانية بتنفيذ ما اتفق عليه بين الطرفين ، ويبدو أن الامبراطور هونوريوس لم يكن جاداً فى مراعاة تنفيذ الاتفاق المبرم ، فلقد اختار شريكا له فى حكم النصف الغربى للامبراطورية اسمه قسطنطين شريطة أن يزوده ببعض الفرق العسكرية للتصدى لآلارك .وعليه فإن آلارك أخذ يشدد من موقفه مرة أخرى ، فطلب من هونوريوس مزيداً من الفضة وأن يسمح له بإقامة معاقل قوطية فى

البندقية واستريا ودلماشيا ، وأن ينعم عليه بلقب « سيد الجند الأعلى » لسائر جيوش الامبراطورية فى الغرب . وكانت هذه المطالب بمثابة القاء القفاز فى وجه الامبراطور ، وعليه ففى نهاية سنة ٤٠٩ م زحف آلارك لحصار روما مرة ثانية ،فاستولى فى طريقه على ميناء بورتو على نهر التيبر كى يحرم روما من وصول المؤن، ثم وجه طلبا إلى السيناتو بضرورة خلع هونوريوس عن العرش وتنصيب شخص يدعى اتالوس بدلاً منه ...

وكان اتالوس هذا ابنا لمحافظ سابق لروما ، وكان على المذهب الاريوسى، كما كان على علاقة طيبة مع آلارك .وبالفعل نصب اتالوس نفسه امبراطوراً على روما ، وراح يوزع مناصب الدولة على اتباعه ، وأفصح أمام السيناتو عن أمله فى توحيد الامبراطورية شرقيها وغربيها تحت صولجانه بمؤازرة القوط وسيدهم آلارك ...

فى أثناء ذلك كان الامبراطور الشرعى هونوريوس حبيساً فى أحد القصور فى رافنا ، ولما كان عاجزاً عن التصدى لآلارك ولغريمه أتالوس فإنه عرض على الاخير أن يعترف به شريكا له فى الحكم ، ولكن أتالوس رفض العرض وهدد بالقبض على هونوريوس وتشويه خلقته ثم نفيه إلى احدى الجزر ،وفزع هونوريوس وفكر فى الهرب إلى القسطنطينية للاحتماء بجوار ابن أخيه ثيودوسيوس الثانى .ولكن امبراطور القسطنطينية كان هو أيضاً يرتعد خوفا من آلارك ، إذ باتت الامبراطورية الرومانية بنصفيها المنعزلين « ألعوبة » فى أيدى مغتصب معتوه هو أتالوس ومتبربر فاجر هو آلارك[٥٩] ،على حد تعبير المصادر المعاصرة ..

وسرعان ما دب الخلاف بين الزعيم القوطى آلارك وحليفه الرومانى مغتصب العرش أتالوس ، ولذا فقد قبض آلارك على أتالوس وابنيه واحتجزهم جميعا رهائن فى معسكره ، وقرر آلارك بعد ذلك أن يشق طريقه بالسيف ثم ضرب حصاراً حول روما للمرة الثالثة فى اغسطس سنة ٤١٠ م ..

اشتدت وطأة الحصار على أهل روما فهلك الكثيرون منهم جوعا ، وتروى المصادر أن نفراً من الجوعى قد جن جنونهم فأقدموا بالفعل على أكل لحوم البشر : « لقد أتتنا انباء مفزعة من الغرب ، وان تفاصيلها جد مخيفة . لقد باتت روما مهيضة الجناح ،وأمسى المواطنون يساومون على حياتهم بما تبقى عندهم من متاع . إن صوتى ليختنق وإن دمعى ينسكب وأنا أسجل إليك هذه السطور . لقد أذلت المدينة التى كانت يوما سيدة للعالم أجمع . وماذا تبقى لنا أن نقول ؟ إن روما تتضور جوعا وتهلك أسى قبل أن ترديها رماح العدو الذى لا يرحم .ولم يبق من البشر من يصلح للأسر .إن جنون المجاعة قد أدى بالبعض إلى التماس الطعام بأكل لحوم البشر ، كما أن بعض الأمهات قد التهمن مواليدهن الجدد(٦٠) » ...

فى ليلة الرابع والعشرين اغسطس لسنة ٤١٠ م قام بعض العبيد الذين كانوا فى خدمة سيدة نبيلة تدعى أنيشيا بروبا بفتح بوابة سالاريا لقوات آلارك القوطى،ويقال إن هذه السيدة أمرت عبيدها بفتح البوابة بدافع الشفقة على أهالى مدينة روما الذين بلغ بهم اليأس حد الجنون والهوس(٦١) ..

اقتحم القوط بوابات روما وهم يتصايحون ، ويقرعون الطبول ،وأشعلوا الحرائق فى المبانى ،والتهمت ألسنة النيران بعض القصور الفاخرة ، ثم اطلق

آلارك رجاله لنهب المدينة .. وتتحدث المصادر عن حالات اغتصاب عديدة للصبايا والعذارى والراهبات[٦٢] .. ويؤكد المؤرخ بروكوبيوس أن بعض البنايات قد سويت بالأرض ولم يبق منها أثر ينعى من بناه ،وإن القتل كان جماعيا للشيب والشبان وللنساء والأطفال ، ومن المبانى التى التهمتها النيران قصر ڤالريوس وقصر آفنتين ومعبد يونو والمذبح الفضى من قصر اللاتيران وهو الذى كان الامبراطور قسطنطين الكبير قد قدمه هدية للبابا سلڤيستر ، وكان وزنه ٢٠٤٥ رطلاً من الفضة الخالصة ، كما التهمت ألسنة النيران صالة الكيوريا البابوية ...

وبعد نهب وسلب دام ثلاثة أيام قرر الارك الخروج من مدينة روما وعبور البحر الأبيض لارساء قواعد مملكة قوطية على الساحل الافريقى .وقد جر آلارك فى موكبه جاللا بلاسيدا شقيقة الامبراطور هونوريوس إلى جانب عدد كبير رجال الدين ..

لم تنته محنة روما عن هذا الحد ،ففى كل فجر جديد كانت أمواج من البرابرة تجرف الناس من كل صوب . وهذه المرة جاءت من جوف اسيا ؛ من رعاة منغوليا المعروفين باسم الهون (Huns). ويحدثنا المؤرخ اميانوس مارسللينوس (نهاية القرن الرابع) عن وحشية الهون ، وكيف انهم عندما يولد لهم وليد فإنهم يقومون بجرح وجنتيه كى لا ينبت له شعر فى ذقنه ، وهو يشبه بنيتهم الجسمية بجذوع الشجر المشوهة ، وهم لا يطهون طعامهم بل يجففون اللحوم تحت افخاذهم على ظهور الخيل التى يندر أن يترجلوا عنها ، وهم يغطون إجسادهم بجلود الفئران ولا يخلعونها حتى تبلى تماما ، وهم ايضا

يغطون سيقانهم بشعور الماعز . ولا تلمس أقدامهم الأرض حتى وقت الطعام والشراب، بل انهم ينامون على ظهور جيادهم وقد مالوا على رقابها قليلاً ، كما أنهم يعقدون مؤتمراتهم مع رؤساءهم فى دائرة على ظهور خيولهم[٦٣] ...

وليس أدل على روح اليأس والقنوط التى أصابت الناس زمن تلك الغزوات المتبربرة من جرمانية ومغولية من تلك الحادثة التى يرويها شخص يدعى برسكوس الذى كانت السلطات فى القسطنطينية قد أوفدته سنة ٤٤٨ م إلى بلاط آتيللا زعيم الهون فى منطقة بانونيا (بودابست الحالية) التى أقام فيها معسكره بعد أن دمر القوى الجرمانية التى صادفته من بحر قزوين إلى البحر الاسود إلى شواطىء الدانوب ..

فلقد لقى برسكوس فى معسكر الهون شخصا يحادثه باللسان اليونانى، واتضح له أن محادثه هذا كان نبيلا رومانيا من منطقة مائيزيا كان وقع فى اسر الهون ، ثم قدرت له الظروف أن يغنم غنيمة فى أحدى الغارات فافتدى بالغنيمة نفسه ثم تزوج من امرأة مغولية وانجب منها أطفالاً . ، ولما أخذ برسكوس يذكره بتراث الآباء والآجداد لم يتمالك هذا اللاجىء الرومانى نفسه وراح يبكى كالأطفال وهو يتمتم من خلال دموعه : « نعم ان قوانين الرومان عادلة وان دستورهم لقويم ، ولكن الاثم كله يقع على ضمائر حكامنا وقضاتنا من أبناء اليوم الذين لا يملكون من خلق القدامى شيئا يذكر »[٦٤] ...

لقد تمكن الهون منذ ان استقروا فى منطقة بانونيا من إرهاب سائر الزعامات الجرمانية على اختلاف اسمائها ،كما أن البلاط الرومانى سواء فى القسطنطينية أو فى ميلانو بات يتملق آتيللا الجبار خوفا من سوطه الذى

لايرحم. وكان آتيللا يتربع على عرش امبراطورية مغولية كبرى امتدت من جوف آسيا إلى قلب أوربا ، وكانت ترقد تحت قدميه كنوز من الذهب لا حصر لها ولاعد . والهون هم الشعب الوحيد من بين الجماعات المتبربرة الذى لم يدخل كجند مرتزقة فى خدمة الرومان . وقد اثار اسمهم الرعب فى قلوب سكان اوربا ، حتى أن صلوات الناس قد أخذت صيغة جديدة تضمنت الابتهال إلى السماء بأن تنجى العالم من « كيد ابليس وفعل آتيللا » . وكان آتيللا قد أسر آلافا من القوط وجرهم معه فى موكبه كعبيد ،ثم زحف بهم جنوب نهر الراين لاقتحام أرض الغال . وقد وصلت جحافل الهون إلى مدينة متنر فى٧ ابريل سنة ٤٥١ م ودمرت المدينة تماما ، ثم زحف الهون صوب باريس ، ولكن آتيللا سرعان ما عدل عن خطته ويمم جنوبا شطر مدينة أورليانز ..

وجدت السلطات الرومانية الغربية نفسها فى موقف حرج للغاية ،فكلف الامبراطور فالنتنيان الثالث (٤٢٥ _ ٤٥٥ م) قائد جيوشه أئتيوس بالتصدى لآتيللا وجحافله .ولم يجد القائد الرومانى حلاً إلا بمخاطبته ود الزعماء الجرمان _ الاعداء التقليديين لروما _ لمجابهة العدو الاسيوى المشترك ، وهكذا فإن الجيش الرومانى الذى تصدى لآتيللا فى غالة كان يضم عناصر معاهدة أومرتزقة من مختلف القبائل الجرمانية ؛ من برغنديين وآلان وفرنجة وسكسون وقوط غربيين وشرقيين . وأطبق الجميع على معسكر الهون فى حقول قطالونيا على مقربة من بلدة تروى (Troyes) فى غالة ، ولأول مرة تلحق الهزيمة بجيوش آتيلا الجبار . وقد هلك فى هذه المعركة ملك القوط الغربيين الجديد ثيودريك وذلك تحت لواء العلم الرومانى .واضطر آتيللا بعد هذه الهزيمة المرة

إلى التقهقر قبالة مقر قيادته فى بانونيا . وفى طريقه عرج على ايطاليا وضرب حصاراً حول مدينة أقويليا ثم دمرها بعد أن هجرها أهلها جميعا ،ثم مال على البندقية وضربها ثم هبط على سهل نهر پو ودخل ميلانو ...

ويروى أنه شاهد فى قصور ميلانو لوحة تمثل الاباطرة الرومان على عروشهم الذهبية ، وقد ألقى بالسكيزيين (الشعوب الاسيوية كما ورد فى الاساطير القديمة) المقهورين تحت أقدامهم ، فجن جنون آتيللا وأمر الرسامين من بين الاسرى اليونان والرومان برسم لوحة كبيرة تمثل آتيللا جالسا على العرش وهويتلقى الجزية من الاباطرة الرومان المغلوبين(٦٥) ...

ازاداد خطر اتيللا على ايطاليا واضطر الامبراطور ڤالنتنيان إلى الفرار من راڤنا إلى روما ، بل ان القائد أيتيوس نصح الامبراطور بأن يهرب إلى غالة ؛ لأن آتيللا كان عازما على شق طريقه بالسيف إلى روما نفسها .ثم تقرر ايفاد سفارة من روما مؤلفة من البابا ليون الكبير والقنصل اڤيانوس للتوسل إلى اتيللا كى يعدل عن مهاجمة روما مقابل جزية مهولة من الذهب والفضة .وبعد أن وصلت كنوز الذهب والفضة إلى معسكر آتيللا ، قرر الإنسحاب إل بلاطه فى بانونيا . وفى الطريق انتشر وباء بين رجاله ، وفى صبيحة أحد الايام إكتشف اتباعه أن نوبة جنونية قد أتت عليه وهو ثملٌ اثناء الليل ، وكان ذلك فى سنة ٤٥٣م .

وتنفس القوم الصعداء ،وفسر المعاصرون هذا الحدث بمعجزة عليا أنقذت روما والرومان من مخالب التنين الاسيوى الرهيب ! .

فى أثناء ذلك كانت جماعة جرمانية أخرى تعبث بأقدار الناس فى غالة ، فبعد أن اصطلى الوندال بسياط آتيللا لاذوا بالفرار من غالة إلى اسبانيا .وفى

اسبانيا هجم الوندال على الكتائب الرومانية المرابطة هناك وصاروا سادة عل البلاد . وما لبث الوندال أن شيدوا لهم أسطولاً بحريا ،ويقال أن نفراً من الخبراء الرومان قد نقلوا اسرار بناء الأسطول للوندال مقابل رشوة دسمة(٦٦) .ولقد ارتبطت سيرة الوندال فى اسبانيا بتخريب الكنائس ونهبها خاصة تحت حكم ملكهم جوندريك . وبعد موت جوندريك تولى الحكم على الوندال زعيم جديد اسمه جنزريك ، الذى كان مقلاً فى الكلام ، غضوبا إلى حد الجنون ،تواقاً للون الذهب وملمسه ، ماكرا فى زرع الخصومة بين منافسيه ،جباراً فى كبح جماح رجاله الاشداء(٦٧) ...

تمكن الوندال بأسولطهم البحرى وبالسفن الرومانية التى استولوا عليها من غزو جزر البليار واكتشاف شواطىء موريتانيا . وكان جنزيرك مقتنعاً بأن مستقبل أمته لن يكتمل إلا بالسيطرة على حوض البحر الابيض وتحويله إلى بحيرة وندالية ... ومن ثم فقد خطط الوندال للسيطرة على الشمال الافريقى لكى يحرموا الرومان من الغلال حتى تصبح كل من روما والقسطنطينية تحت رحمتهم ..

وعندما تسربت أخبار المشروع الوندالى إلى بلاط القسطنطينية ، اشارت أصابع الاتهام إلى بونيفاس حاكم ولاية افريقيا الرومانى بالخيانة .. وبأنه يتآمر مع الوندال مقابل أن يسمحوا له بالانسلاخ بجزء من ولاية افريقيا يحكمه لحسابه . وقد بادرت السلطات الرومانية بارسال حملة تأديبية ضد بونيفاس ، وهكذا تمزق الصف الرومانى . كما أن المنازعات المذهبية الدامية بين فرقة عرفت باسم الدوناتيين وبين الكاثوليك فى قرطاج قد خلقت جواً من الفوضى

والمشاحنات العقائدية فى الشمال الإفريقى ..

شجعت هذه الأحوال المضطربة جنزريك على الابحار من جنوب اسبانيا قبالة الساحل الافريقى ، وقبل رحليه انقض على قبيلة جرمانية من جماعة السويف وابادها تماماً .. ثم أبحرت أمة الوندال وفى ركابها آلاف من الأسرى والعبيد ، ويقدر عدد أفراد هذه الهجرة بحوالى ٨٠,٠٠٠ من رجال ونساء الوندال . رسى الأسطول الوندالى فى طنجة ومنهـا تحرك الجند الوندال نحو موريتانيا القيصرية ومنها قبالة العاصمة قرطاج . وكانت مسيرة الوندال تتراوح بين ستة إلى ثمانية كيلو مترات فى الساعة ، ويرجع السبب فى بطء الحركة إلى ثقل العربات وأحمالها على الخيول التى تجرها ، وأيضا بسبب انشغال رجال الحملة فى نهب وسلب جميع البقاع التى مروا عليها (٦٨) ..

كان مجرد ذكر اسم الوندال كافيا لاثارة الذعر فى نفوس الناس ،فلقد آتت الأخبار من غالة واسبانيا وايطاليا تتحدث عن وحشية هؤلاء القوم وبربريتهم التى فاقت كل وصف . وكان اشد الناس هلعاً رجال الدين الكاثوليك بسبب ماعرف عن الوندال من تعصب مهووس لمذهبهم الأريوسى ومن كره بالغ للكثلكة . وقيل عن الوندال انهم تفردوا فى سلخ فروة رؤوس ضحاياهم ليزينوا بها سروج جيادهم وقت المعمعة ..

بينما كان الاعصار الوندالى يجتاح الساحل الافريقى ،كان الفليسوف اغسطينوس معتكفاً فى مدينة هپو (عنابة) وهو فى حيرة شديدة من أمور هذا العالم : فلقد اصيبت الرعية من خاصة وعامة بالهلع ، واختفى الرعاة من منابرهم ، وخرست النواقيس ، واشتعلت السنة النيران فى الكنائس . وفر صغار

الكهنة من وجه العدو يضربون الطرقات والبرارى كالشحاذين . ودوت صرخة صاحب « مدينة الله » (Civitas Dei) تقول : « إن الإنسان الفاضل هو الذى لا يغتم على انهيار عمود من الخشب ، ولا على انهيار كوم من قرميد الحجر ، ولا حتى على موت يصيبه ، لأننا جميعا مخلوقات ذائقة كأس الموت لا محالة، فعلام الأحزان إذن ؟ »[٦٩] .. ولا يملك هذا الرواقى العملاق إلا أن يعلن لسامعيه وتلاميذه بأن كأس الموت حق على الجميع ، وأن آلام الجسد تطهر الأرواح ، وأن على الناس أن يبتهلوا إلى السماء وقت الضيق لاجتياز مرارة الكأس التى لا مفر من تجرعها ، وأنه على الراعى ألا يفر هاربا من القطيع المروع ، لأنه لا يليق بربان السفينة أن يهجر سفينته وهى تغرق[٧٠] .

لقد بلغ جرم الوندال فى الشمال الافريقى حدا بشعا للغاية ، فنحن نعلم من رسالة للبابا ليون الكبير أن أعداد الراهبات اللائى هتكت اعراضهن وتم اغتصابهن على ايدى الوندال كانت اعداداً مهولة ولذا فإن البابا يطلب فى رسالة إلى اساقفة شمال افريقيا وموريتانيا القيصرية أن يعاملوا هؤلاء الضحايا ولكأنهن «عذارى أرامل من غير ذنب أتينه » ..

وفى نوميديا ضرب الوندال الحصار حول سائر المدائن ، فانتشرت المجاعات وتفشت الاوبئة بسبب كثرة الجثث ،وامتلأت الطرقات بأمواج من الخلق وهم يولولون . ولما أن أقتربت جحافل الوندال من بوابات قرطاج ، أصيب الناس من وراء الأسوار بالفزع الشديد ، وهربت أعداد منهم إلى الجنوب ، ولكن الوندال تصيدوهم وقتلوهم عن بكرة أبيهم . ولقد قام الوندال على مرأى ومسمع الجميع بإحراق بعض الاساقفة أحياء ، ومن بينهم بامنيانوس ومانسيوتيوس . فى

أثناء ذلك كـان الكونت بونيفـاس ــ الذى اتهم بالخيـانة ــ يعسكر مع رجـاله خلف أسوار مدينة هپو التى اغتصت باللاجئين .وفى نفس الوقت كان القديس اغسطينوس يرقد داخل نفس المدينة التعسة وهو فى حالة مرض شديد . ورغم شدة الاعياء وحمل السنين ، ظل الرجل يلهم تلاميذه ومريديه بجميل العزاء كى يجتـازوا معـه التجربة المرة .. ولما أن دنت ساعة الخلاص من أوزار هذا العالم، صرخ أغسطينوس على مسمع من تلاميذه « اللهم أطلق عبدك بسلام» وتلقف الجميع الصرخه الاغسطينية ودوت بها الحناجر . وبعد قليل فاضت روح الرجل إلى باريها ، وكان ذلك فى ليلة الثامن والعشرين من شهر اغسطس لسنة ٤٣٠ للميلاد . وسقطت مدينة هپو ، وكان نصيبها النار والدمار عن آخرها .

وفى التاسع من أكتوبر لسنة ٤٣٩ م ، اقتحم الوندال اسوار قرطاج ، وسقطت العاصمة سقوطا مروعا : إذ استولى البرابرة على كل ما فيها حتى الاخضر واليابس ، ونهبوا الكنائس من نفائسها وأدوات طقوسها ،كما اعتدوا على الحرمات دون تمييز ، ومالبثت معاول الهدم والتخريب أن اجتاحت آثار قرطاج القديمة وكاتدرائياتها ، كما حولت بعض كنائسها إلى إسطبلات للخيول .. وبعد السقوط أصيب رجال الدين الكاثوليك بحال من الجبن الشديد، ففى مواعظهم أيام الآحاد تجنبوا الاشارة من قريب أو بعيد للكارثة الكبرى التى حلت بقرطاج ، ولئن حدث فى ذات موعظة أن اشار أحدهم من على منبره ــ ولو بطريق السهو ــ إلى اسم فرعون أو نبوخذ نصر ، فإن جنزريك كان يفسر ذلك بأنه هو المقصود من وراء ذكر هذا الاسم أو ذلك ، فيأمر

بالقبض على الكاهن الواعظ ويسام العذاب ألوانا[٧٢] .

فرض الوندال سيطرتهم على الشمال الافريقى بقبضة من الحديد ،كما هيمن اسطولهم على حوض البحر الابيض ،وهكذا فإنه بعد سقوط قرطاج فى إيدى جنزريك باتت كل من روما القديمة وروما الجديدة (القسطنطينية) فى خطر داهم . ولقد عمل الامبراطور الغربى ڤالنتينان على اصلاح اسوار روما التى تهدمت وعلى اقامة التحصينات لحماية ميناء نابلى . وفى سنة ٤٤٠ م قام جنزريك بحملة بحرية من ميناء قرطاج ، ولكنه لم يعلن عن هدف الحملة مكتفيا بالقول : « نحن نقصد قوماً أغضبوا السماء » .. غير أن الأمبراطور ڤالنتنيان شعر بأن الحملة موجهة ضده ، فطلب إلى رعاياه التحلى باليقظة ومقاومة العدو حيثما ترسى سفائنه إلى أن تصل اليهم النجدة الامبراطورية ..

رست سفن جنزريك أول الأمر على شواطىء بلدة ليليبا ، ومنها هبط الجند على جزيرة صقلية فنهبوها تماما ... ولما أن علم جنزريك بقرب وصول اسطول من القسطنطينية إلى صقلية ، أبحر مسرعا بالعودة إلى قرطاج ..

اضطر الامبراطور الغربى ڤالنتينان إلى فتح باب المفاوضات مع العدو الوندالى الذى لايرحم ،وقد عرض الامبراطور أن يزوج شقيقته الاميرة يودوكسيا من ابن لجنزريك ، غير أن هذه الصفقة لم تتم ، إذ قام قائد يدعى بترونيوس ماكسيموس باغتيال الامبراطور والجلوس على العرش ، ثم زوج الاميرة يودوكسيا من ابنه المدعو ائتيوس .وقد كانت هذه الاحداث ذريعة كافية لجنزريك كى يجرد حملة يؤدب بها بترونيوس مغتصب العرش ..

أبحر الاسطول الوندالى إلى ميناء بورتو ، ورست الكتائب لتزحف براً قباله

مدينة روما . وفى الطريق اشعل الوندال الحرائق فى كل مكان ، فأصيب أهل روما بالفزع الشديد ، فهرب الكثيرون لا يلوون على شيء ، وكان من بين الفارين الامبراطور بترونيوس ماكسيموس نفسه ، ولقد كان هذا الهروب المخزى مدعاة لأن يقوم واحد من رجال حرسه الخاص بقذفه بحجر فأرداه قتيلا ،ثم هجم الجمهور الغاضب على جثة الامبراطور ومثلوا بها ثم القوا بها فى نهر التيبر .وبعد ذلك الحادث بأيام ثلاثة اقتحمت كتائب جنزريك مدينة روما ، ولم يكن فى المدينة من يتولى التوسل من أجلها سوى البابا ليون الكبير ؛ الذى قصد بنفسه إلى معسكر جنزريك عارضاً أن يسلم له كنوز كاتدرائية القديس بطرس مقابل العفو عن المدينة[٧٣] ..

وافق جنزريك على التماس البابا ليون ، واصدر أوامره بإيقاف الحرائق وقتل الانفس ، ولكنه أذن لرجاله بنهب المدينة وسفك الدماء . واستمر النهب الوندالى لمدينة روما اسبوعين كاملين ، تمّ خلالهما تفريغ القصور من كل محتوياتها النفيسة ، كما استولى جنزريك على النياشين والعلامات الامبراطورية، والأعجب من هذا كله أنه أمر رجاله بإقتطاع جزء من سقف جوبيتر فى الكابيتول ظناً منه أنه من الذهب الخالص .. وهو فى الحقيقة من البرونز الأصفر. هذا وقد استولى الوندال أيضا على كم وافر من التماثيل القديمة والكنوز التى كان القائد تيطوس قد حملها إلى روما بعد تخريبه لهيكل سليمان فى بيت المقدس ..

وحمل الوندال تلك الكنوز والآثار النادرة على ظهر احدى سفنهم ، غير أن هذه السفينة بالذات قد غرقت بماكان على ظهرها من كنوز ونفائس ،

وهكذا ابتلع اليم حضارة بأكملها .

وقد حمل جنزريك معه عددا من الرهائن ؛ من بينهم ائتيوس ابن الامبراطور بترونيوس ، وأرملة الامبراطور فالنتنيان وابنتيها ، إلى جانب نفر من أعضاء السيناتو والكتبة وخبراء السلاح . وتفيض المصادر باخبار مؤسفة عن أحوال الاسرى الرومان الذين اقتادهم الوندال إلى قرطاج : فعند وصولهم إلى الشاطىء الافريقى ، قام القادة الوندال باقتسام هؤلاء الاسرى فيما بينهم ، بعد أن عزلوا النساء عن أزواجهم والآباء عن أطفالهم . وقد رأى المعاصرون فى هذا الوندالى « الأعرج » صورة لما ورد فى الكتب عن« المسيخ الدجال » Anti-christus) ، ونموذجاً لما ورد فى وصف الحيوانات البشعة فى سفر الرؤيا(٧٤)..

بعد هذه الحملة راح جنزريك يرهب اراضى النصف الشرقى للامبراطورية، فأرسل حملات بحرية نهبت الجزر اليونانية واسرت العديد من أهلها . وقد حاولت السلطات فى القسطنطينية التصدى لاسطول الوندال ، كما جردت حملة من مصر للهجوم على طرابلس ، ولكن الأسطول الوندالى دمر هذه الحملة (٤٦٨ م)(٧٥) ...

وهكذا باتت كل من روما القديمة وروما الجديدة عاجزتين تماماً أمام جبروت الوندال . وفى اثناء ذلك كان جنزريك قد اطلق سراح الامبراطورة الاسيرة ولكنه استبقى ابنتها يودوكسيا ثم زوجها بالقوة من ابنه هونريك ،وظلت هذه الاميرة التعيسة زوجة لهونريك لمدة ستة عشر عاما ، ثم هربت سراً إلى بيت المقدس ...

بعد وفاة جنزريك سنة ٤٧٧ م ، خلفه عدد من ابنائه واحفاده هم : هونريك (٤٧٧ ـ ٤٨٤ م) ؛ جونتاموند (٤٨٤ ـ ٤٩٦ م) ؛ ترازاموند (٤٩٦ ـ ٥٢٣ م) ؛ هلدريك (٥٢٣ ـ ٥٣١ م) ؛ واخيراً جلمير (٥٣١ ـ ٥٣٤ م) الذى قدر له ولدولته السقوط النهائى على أيدى الامبراطور الشرقى جستينيان العظيم (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) وقائده المرموق بلزاريوس وذلك فى ديسمبر لسنة ٥٣٣ م .

الفصل الثالث

بقايا الحطام الروماني

الفرنجة ـ الكارولنجيون وبعث

الأمبراطورية الرومانية من الأكفان

المزيج الجرماني ـ الروماني الوليد

فى سنة ٤٨٦ م اقتحم كلوڤس الزعيم الجرمانى لقبيلة الفرنجة حدود نهر الراين واحتل منطقة باريس فى غالة . وكان كلوڤس قبل ذلك يخدم هو وأتباعه كجند معاهدين فى الجيش الرومانى . وفى غالة أخذ كلوڤس وأتباعه يتمثلون بالسادة الرومان فى الملبس والعادات ، إذ رأى فى نفسه ممثلاً للإمبراطورية الرومانية فى بلاد الغال . ومن مظاهر التمثل بالرومان كان كلوڤس يخترق شوارع باريس وقد رفعه رجاله على دروعهم ، ثم وقع اختياره على اميرة على المذهب الكاثوليكى وتزوج منها ، وظل يحتفظ بصورة رأس الامبراطور الرومانى على وجه العملة التى أمر بصكها . أما البلاط الفرنجى فكان غاصاً بموظفين يحملون ألقاباً رومانية ، كما وأن كبار الموظفين فى الأقاليم كانوا يحملون لقب « الكونت » (Comes) وهو لقب رومانى قديم بمعنى النبيل المحارب. كذلك سار جامعو الضرائب الفرنجة على نفس التقاليد والقواعد الرومانية .

ورغم هذه المظاهر الرومانية ، فإن حقيقة الأمر أن الأسرة الميروفنجية (نسبة إلى جد أسطورى للفرنجة اسمه ميروفتش) كانت اسرة جرمانية لحماً ودماً ، وكان ابناء هذه الأسرة يعتقدون انهم قد تحدروا من نسل الآلهة الجرمانية القديمة ، ومن ثم فإنهم كانوا يرخون شعور رؤوسهم حتى تتدلى تحت أكتافهم علامة على أصولهم الآلهية (٧٦) ..

وكان نظام الحكم عند الفرنجة انتخابياً ،وكان اختيار الملك الجديد يتم برفع المختار للعرش على درع الاتباع والجند . وكان ملوك الفرنجة ينظرون إلى غالة على أنها ملك خاص لهم ولأولادهم ؛ فعندما مات كلوفس قسم المملكة بين أبناءه الأربعة : مملكة أوسترازيا الواقعة على ضفتى نهر الراين ؛ ومملكة نوستريا الواقعة شمالى غالة : ومملكة برغنديا فى وديان الرون الساءون ؛ ومملكة بروفانس فى جنوبى غالة . وقد دخل الابناء الأربعة (ثيودريك ، كلوديبر ، شلدبرت ، كلوتار) فى صراع دامى كلٌ يسعى لتوسيع رقعة مملكته على حساب الأخوة الآخرين . ورغم هذه المشاحنات فإنه كان ينظر إلى مملكة الفرنجة رغم أقسامها الأربعة على أنها وحدة متكاملة باسم « أرض الفرنجة » (Regnum Francorum) .

وقد شهدت مملكة الفرنجة صراعاً مريراً بين اثنين من أحفاد كلوفس وهما الأخوان سجبرت وشلبريك ، وقد هلك فى هذا الصراع عشرات من امراء البيت المالك ومن كبار النبلاء .كان المحرك لهذه المؤمرات والاغتيالات الاميرة برونهلدة زوجة سجبرت التى دبرت سلسلة من الأغتيالات ضد خصومها ، والتى كانت

نهايتها غاية فى البشاعة ؛ إذ قبض عليها اعداؤها بعد أن قتلوا جميع أحفادها ، ثم وضعت على ظهر جمل ،وفى آخر المطاف قيدوها بشعر رأسها وأوثقوا ذراعيها وقدميها بذيل حصان جامح وألهبوا ظهره بالسياط فمزقها إرباً ، وكان ذلك فى سنة ٦١٤ م .

والحق أن أحفاد كلوفس صاروا ملوكاً ضعافا من أمثال سجبرت الثالث ، وداجوبرت الثانى ، وشلدفيج الثانى ، وقد خضع هؤلاء جميعاً لسطوة « حاجب البلاط » . (Major Domus) ، حتى أن التاريخ قد شيع هؤلاء الملوك الضعفاء باسم « الملوك العاطلين » (Les Rois Faineants) .

وسرعان مانشبت الخلافات بين حاجبى البلاط فى مملكتى نوستريا واسترازيا ، ودارت معركة بين الطرفين فى بلدة تسترى (Testry) سنة ٦٨٧م، والتى انتهت لصالح استرازيا وحاجب بلاطها ببن هرتزال الأكبر (٦٨٧ ـ ٧١٤م) .

وكان لهذا الحاجب ابن غير شرعى اسمه كارل ، وحفيد يدعى ثيدوالد ، ولقد قامت أرملة ببن (بلكتروديس) بالوصاية على هذا الحفيد ثم ألقت بكارل فى السجن . غير أن النبلاء ثاروا ضدها ، وساعدوا كارل على الهروب من السجن ، ثم اعترفوا به حاجباً على بلاط استرازيا . وكان عهد كارل الملقب « بالمطرقة » (Martel) مليئاً بالحروب ضد السكسون والفريزيين والباڤار والألمانى . وفى سنة ٧٣٢ م اشتبك كارل مارتل مع عرب اسبانيا تلبية لاستنجاد الكونت يود (Eudes) صاحب أقطانيا ضد الأمير عبدالرحمن الغافقى(٧٧) ، ووقعت بين الطرفين المعركة المعروفة فى المصادر العربية باسم «بلاط الشهداء»

أو بواتييه أو تور .

توفى كارل مارتل سنة ٧٤١ بعد أن قسم مملكة الفرنجة بين ولديه كارل ، وبين ، ولم يعبأ بتعيين ملك للمملكة لمدة أربع سنوات ، إذ كانت جميع مقاليد السلطة فى يده ، ولم يشعر أحد أن المملكة بحاجة إلى دمية أخرى من البيت الميروفنجى للجلوس على العرش الشاغر . أمضى الأخوان كارل وبين الأعوام السبعة عقب وفاة والدهما فى حروب ضد أقطانيا وباڤاريا وسكسونيا وبعض الجماعات السلاڤية . ولكى يمعن الأخوان فى السخرية من البيت الميروفنجى فقد اختارا واحداً من هذا البيت يدعى شلدريك الثالث وأجلساه على العرش ، ولكنه ظل مجرد شبح متوج وهو بحق آخر الملوك العاطلين . وفى سنة ٧٤٧ تنازل كارل عن السلطة لأخيه بين والمكنى «بالقصير» (Le Bref) ، واعتزل شئون العالم ثم ارتدى مسوح الرهبان منزوياً على قمم جبل سوراكت على مقربة من روما .

ولما أن انفرد بين القصير بحجابة البلاط الفرنجى فى مملكتى توستريا واسترازيا أخذ يفكر فى وضع تاج الملك على رأسه هو ، فأرسل سفارة إلى روما يطلب من البابا زكريا الفتوى فى سؤال ماكر : أيهما أحق أن يكون ملكاً ـ ذاك الذى يحمل اللقب والتاج وليس له حول ولا قوة ، أم هذا الذى بيده كل السلطات فيما عدا اللقب ؟ ولما كان البابا زكريا فى حاجة ملحة إلى حليف قوى ينصره على أعدائه اللومبارد فى الشمال الإيطالى ، فقد بادر مجيباً بأن صاحب السلطة الحقيقية هو الأجدر بأن يتوج ملكاً ! وعليه فقد انعقد مجلس فى مدينة سواسون سنة ٧٥١م ، واقتيد الملك الميروفنجى شلدريك الثالث إلى

قاعة المجلس حيث اجتز شعره وأجبر على ارتداء لباس الرهبنة ثم ألقى به فى أحد الأديرة النائية . ثم قام كبير أساقفة الفرنجة بونيفاس بإعلان ببن ملكاً على الفرنجة وقام بمسحه بالزيت المقدس علامة على التفويض الإلهى له فى الحكم.

وكان اللومبارد وهم من عتاة القبائل الجرمانية قد دخلوا إيطاليا سنة ٥٦٨م، واتخذوا من مدينة بافيا عاصمة لهم ، ثم مالبثوا أن سيطروا على كل أراضى السهل الإيطالى الشمالى ودوقيتى سبولتو وبنيفنتو ، وقد تقلب على عرش اللومبارد ملوك كثيرون بلغ عددهم اثنان وعشرون ملكاً ، بدءاً بالملك ألبوين (٥٦٨ ـ ٥٧٢م) وانتهاءً بالملك دزيدريوس (٧٥٦ ـ ٧٧٤ م) . وقد دخل اللومبارد فى صراع ضد بقايا المعاقل البيزنطية فى رافنا وضد البابا الرومانى . وكان الملك استولف (٧٤٩ ـ ٧٥٦ م) من أشد المناهضين للبابوية، وكان يخطط للزحف على مدينة روما ليخضعها للتاج اللومباردى ، وفى طريقه زاحفاً أرسل استولف بسفير إلى البابا ستيفن الثالث (٧٥٢ ـ ٧٥٧م) يطلب منه الاعتراف بسيادة التاج اللومباردى على الكرسى البابوى ، وغضب البابا من هذا التحرش بسلطاته، فبادر بإنزال قرار الحرمان على استولف، ثم التفت البابا إلى ملك الفرنجة ببن القصير يطلب منه الحماية ضد عدوه استولف اللومباردى . ثم قرر البابا السفر بنفسه إلى مملكة الفرنجة (٧٥٤م) ليطلب بنفسه المساعدة العسكرية من الملك الفرنجى ، ولقد أقيمت للبابا استقبالات حافلة فى مملكة الفرنجة ، وخرج ببن القصير ورجال بلاطه لملاقاة البابا لحظة وصوله ، وأمسك بلجام الجواد الذى كان يمتطيه البابا علامة على الولاء والود ، ثم استمع الملك الفرنجى إلى شكوى البابا وطيب من خاطره

ووعده بالمساعدة ضد اللومبارد . وفى أبريل ٧٥٤م عقد ببن القصير مجلساً قرر فيه أن يعيد للبابوية أملاكها فى إيطاليا (Patrimonium) من أيدى اللومبارد ، كما تعهد بفرض الحماية على روما . ولقد بقى البابا ضيفاً على ملك الفرنجة لبضعة أشهر حسم خلالها بعض القضايا التى كانت تشغل رجال الدين فى مملكة الفرنجة ، ولعل أهم عمل قام به أيضاً هو أنه أعاد مسح وتتويج ببن ملكاً على الفرنجة فى بلدة سان دينيس ، كما أنعم عليه بلقب « باتريكيان » ..

لم يكن هنالك مايبرر إعادة تتويج ببن ملكاً على الفرنجة ، إلا أن مراسيم إعادة تتويجه على يد البابا بنفسه قد قصد بها تأكيد شرعية التتويج بواسطة الرأس الأكبر للكنيسة اللاتينية ، وبالتالى إضفاء صفة الحكم الإلهى المقدس على حامل التاج ، والأهم من هذا كله أن البابا قام أيضاً بتتويج برترادا زوجة ببن وولديهما كارل وكرلمان ثم مسحهما بالزيت المقدس ، وطلب من كبار نبلاء المملكة فى هذا الحفل المهيب أن يقسموا يميناً بالولاء لبيت ببن وألا يختاروا لهم ملوكاً إلا من هذا البيت . وبهذا أقرت الكنيسة الرومانية قيام ملكية مقدسة فى هذه الأسرة الفرنجية الجديدة . ولئن كان ببن قد جنى من هذه الزيارة مكاسب وافرة ، فإن مكاسب البابوية من ورائها كانت بغير حدود : فإلى جانب الحماية التى ضمنتها البابوية من جانب ملوك الفرنجة ، أمكن للجالس على العرش البابوى فيما تلا من تاريخ أن يدعى لنفسه الحق فى تعيين وخلع الملوك ، مستنداً فى هذا الإدعاء بحق « الحل والربط » على هذه السابقة مع ملك الفرنجة .

فى أثنا ذلك عبرت كتائب الفرنجة جبال الألب ونزلت على السهل

اللومباردى ثم أجبرت الملك استولف على التعهد برد الأملاك التى كان قد استولى عليها من البابوية إلى جانب أداء يمين الولاء عن مملكته للملك الفرنجى. ولكن استولف سرعان ماتنكر لوعوده تلك ، وزحف بجيشه ليحاصر مدينة روما ، فاستنجد البابا بالملك الفرنجى مرة ثانية . وعبر الجيش الفرنجى جبال الألب مرة أخرى وأجبر استولف على رفع الحصار عن روما وإلى عقد صلح مع الملك الفرنجى والبابوية مع دفع جزية سنوية وتقديم بعض الرهائن لببن القصير . وفى أثناء المفاوضات وصل سفراء الإمبراطور الشرقى من بيزنطة يطالبون بإعادة رافنا للإمبراطورية الشرقية . ولكن ببن صاح فى وجه السفراء بأنه لم يدخل الحرب ضد اللومبارد لحساب أحد ، وإنما هو قد حمل سيفه لحماية خليفة القديس بطرس أى البابا الرومانى ، مبيناً لهم أن الإمبراطور الشرقى لا حق له فى المطالبة بأية أملاك فى إيطاليا لأنه قد تقاعس عن الدفاع عن البابا من شوكة العدو اللومباردى من ناحية ، ولأنه هو وشعبه قد خالفوا مبادئ الكاثوليكية والتقاليد الرومانية . ويحدد هذا التاريخ بداية السلطان الزمنى لبابوية العصور الوسطى والتى ساهمت مع حلفائها الفرنجة فى بعث ما قد تبقى من حطام رومانى من الأكفان .

توفى الملك ببن القصير فى ٢٤ سبتمبر ٧٦٨ م بعد أن قسم المملكة بين ولديه كرلومان على النصف الجنوبى ، وكارل على النصف الشمالى . ولم يكن الأخوان على وفاق ، ولولا تدخل الملكة الأم فى أكثر من مناسبة لاشتعلت الحرب بينهما : فلقد رفض كرلومان مساعدة أخيه كارل ضد كونت أقطانيا المتمرد . ولما أن تزوج كرلومان من ابنة الملك اللومباردى دزيدريوس

واسمها جربرجة ، سعى كارل بدوره إلى الزواج من شقيقتها ديزيدراتا حتى لا ينفرد أخوه بالحظوة فى بلاط بافيا اللومباردى . غير أن البابا انزعج عند سماع تلك الأخبار ، فكتب إلى كارل يهمس إليه أن الأميرة ديزيدراتا عقيم عاقر ، محذراً إياه من مصاهرة البيت الملكى اللومباردى ، ولكن كارل تزوج بالفعل من ديزيدراتا اللومباردية . ولكن همس البابا ظل يستحوذ عليه فقام بطرد الأميرة التى عادت بعد فترة زواج قصيرة كسيرة القلب ذليلة إلى بلاط والدها فى بافيا. ثم حدث أن توفى كرلومان سنة ٧٧١م فجأة ، فهربت أرملته جربرجة وأطفالها إلى بلاط أبيها تشكو إليه من تحرشات كارل ، ولتزيد من مشاعر البغضاء بين أبيها وبين كارل ..

رفع ديزيدريوس (٧٥٦ ـ ٧٧٤ م) مظلمة ابنته الأرملة جربرجة وأطفالها إلى البابا هارديان (٧٧٢ ـ ٧٩٥ م) ، طالباً منه إجبار كارل على إعطاء أبناء أخيه المتوفى حقوقهم المشروعةفى مملكة الفرنجة ، ولكن البابا لم يكترث بهذا الطلب ، فقام الملك اللومباردى بشن حملة على الأراضى البابوية وزحف لضرب الحصار حول مدينة روما .

استنجد البابا بحليفه كارل الذى أرسل جيشه وحاصر مدينة بافيا سنة ٧٧٣م ، التى استسلمت إليه ، ثم قبض على الملك وأودعه أحد الأديرة ، فى حين أن ابنه ادلخيس هرب لاجئاً إلى القسطنطينية ليتوفى بها بعد بضع سنين . وهكذا وضع كارل نهاية للمملكة اللومباردية وأعلن نفسه ملكاً عليها ، فى حين حصلت البابوية على نصيبها من الغنيمة بما فى ذلك مدينة رافنا التى كان البيزنطيون يلحون فى استردادها .

فى هذه الفترة من تاريخ العصور الوسطى الأوربية ظهرت فى الغرب اللاتينى الوثيقة الشهيرة بإسم « هبة قسطنطين العظيم » (Donatio Constantini Magni) ، وهى وثيقة مزيفة من الألف إلى الياء ، ولا نعرف كاتبها وإن كانت فى أغلب الظن من فعل مسئول فى البلاط البابوى وربما بيد البابا نفسه . ويرجع الفضل إلى اكتشاف زيف هذه الوثيقة التى ظلت مقبولة فى غرب أوربا على أنها وثيقة أصيلة إلى العلامة الإيطالى لورنتيوس ڤاللا فى القرن الخامس عشر أى فى عصر النهضة الإيطالية . وتروى هذه الوثيقة المدسوسة أن قسطنطين كان مصاباً بمرض عضال هو مرض الجذام ، وأن الأطباء ، وكهنة الأوثان لم يجدوا له علاجاً ، فأشاروا عليه بأن يجمع عدداً من المواليد ليذبحوا ويغتسل الامبراطور المريض بدمهم كى يبرأ .

فأمر الإمبراطور بإعداد هذه المذبحة ، فجمع الأطفال الأبرياء رغم ولولة أمهاتهم استعداداً للمجزرة البشرية . غير أن قسطنطيناً أشفق على هؤلاء الصغار الأبرياء فجأة وأمر بإعادتهم إلى صدور أمهاتهم الملتاعات . وفى هذه الليلة زاره فى المنام القديس بطرس وأرشده إلى المخبأ الذى كان يتوارى فيه البابا الرومانى سلفستر ، وبشره بالشفاء من مرضه ان هو قابل البابا . ولبى قسطنطين النداء ، فقصد إلى مخبأ سلفستر الذى رحب بمقدمه وغسله بالماء المقدس وعافاه من مرضه الرجس . ولما أن عوفى قسطنطين من دائه اللعين أراد أن يكافىء البابا على حسن صنيعه له ، فقرر أن ينسحب من مدينة روما للإقامة فى عاصمة جديدة فى الشرق ، وأن يترك روما وإيطاليا وولايات الغرب جميعاً تحت صولجان البابا وحده . كما سمح للبابا أن يقيم فى قصر اللاتيران ، وأن يزدان

كالإمبراطور بالتاج والعباءة الملكية ، وأن يمتطى جواداً أبيض(٧٨) ..

إن هذه الوثيقة المزيفة تعتبر أهم الركائز التى بنيت عليها نظرية السمو البابوى روحياً وزمنياً على مدار العصور الوسطى ..

بعد أن قضى كارل على مملكة اللومبارد ، اشتبك سنة ٧٧٨ م مع عرب اسبانيا فى موقعة سراچوسا ، ثم مع قبائل الباسك حيث كان يعبر جبال البرانس عائداً إلى فرنسا ، ثم دخل فى حرب شرسة مع السكسون والباڤار واجبر هذه القبائل الوثنية على الدخول فى المسيحية على المذهب الرومانى وذلك تحت وطأة الحديد والنار ، ثم اقام لهذا الغرض عدة اسقفيات فى بلدان مندن ، بادربون ، ڤردان ،برمن ، هالبرشتات ، مونستر ،وهامبورج ، وعندما تمرد عليه تاسيلو زعيم الباڤار سنة ٧٨٢ م ، قبض عليه واودعه وذويه فى أحد الاديرة ، ثم مال على يوهيميا واخضعها لسلطانه .كما شيد كارل اسطولا استولى به على سردينيا وكورسيكا والبليار . وأدخل تعديلا على الأراضى التى اقتطعها من اسبانيا عرف باسم « المارك » وهو وحدة عسكرية إدارية يحكمها نائب عنه بلقب « مارك جراف » ، ومن هذا الثغر بدأت عمليات التوسع جنوبا حتى نهر الابرو فيما تلامن تاريخ .

وقد كان النجاح حليف كارل فى أغلب هذه الحروب ، واتسعت دائرة سلطانه الأمر الذى أعاد للاذهان ذكريات الأيام الخوالى والأمبراطورية ، ومن هنا تولدت فكرة إحياء الإمبراطورية الرومانية فى الغرب والتى كانت قد سقطت نهائياً سنة ٤٧٦ م على أيدى الزعيم الجرمانى أودواكر .والحق أن فكرة الأمبراطورية كانت قد طمست فى مخيلة سكان الولايات بعد الغزوات الجرمانية

المتكررة والتى نجح زعماء هذه الغزوات فى سلخ تلك الولايات عن الحكومة المركزية وإقامة ملكيات مستقلة عن التاج الإمبراطور الذى وإن كان قد سقط فى الغرب إلا أنه ظل ولو من الناحية النظرية قائما على ضفاف البسفور فى روما الجديدة أو القسطنطينية . ولكن كنيسة روما وعلى رأسها البابا قد بقيت صلبة تدلل بمراسيمها وهيبتها وسطوتها على فكرة الأمبراطورية الضائعة ، ولقد أيدها فى هذا الشعور مذهب عقائدى واحد وتماثل فى الطقوس فى شتى أصقاع الغرب اللاتينى . كذلك كان للجالس على كرسى البابوية اليد الطولى فى نشر المسيحية على المذهب الكاثوليكى بين شعوب الغرب الوثنية ، فصارت للبابوية هالة روحية كبرى وصار للبابا سمات الكاهن الأكبر على كل كنائس الغرب . ونظرت شعوب اوربا إلى البابا على أنه والقانون الرومانى يمثلان الرابطة التى تشد جميع بلدان الغرب اللاتينى تحت لواء واحد ، خاصة بعد أن استأصلت شأفة الاريوسية بين القبائل الجرمانية المختلفة . وعلى هذا باتت كنيسة روما بمثابة الامبراطورية الروحية الشاملة. على أنه فى نفس الوقت لم يغفل البابوات عن حقيقة أن الأمبراطورية الدنيوية الشرعية التى ارسى قواعدها قسطنطين الكبير كانت لا تزال قائمة فى بيزنطة، ولذا فقد كان لزاماً على الجالس على كرسى البابوية أن ينظر فى حذر إلى الجالس على عرش قسطنطين العظيم، فهو الرأس الأكبر لهذا الجسد الدنيوى. غير أن البابوات قد امتعضوا من مواقف كنيسة بيزنطة فى اياصوفيا ومن أباطرتها ايضا: فلقد اهين بابوات كثيرون ونكل ببعضهم ونفوا عن كراسيهم بسبب استبداد امبراطور القسطنطينية ، كما وأن سلسلة من البدع والهرطقات وتحطيم الايقونات فى النصف الشرقى

من الإمبراطورية قد سبب الاما مبرحة لخليفة القديس بطرس ، ناهيك عن مزاعم بطريرك القسطنطينية الذى لم يكف عن زعمه بانه صنو للبابا الرومانى . واهم من هذا وذاك فإن صرخات البابوية المتكررة للنجدة لم تجد آذانا صاغية فى القسطنطينية عندما كان اللومبارد وغيرهم من الأعداء يضمرون الشر للبابا ويتربصون سوءاً للبابوية ..

والحق أن الأمبراطور البيزنطى كان منصرفا إلى دفع التهديدات التى لم تنقطع عن حدود امبراطوريته الشرقية تارة مع الفرس وأخرى مع العرب وثالثة مع السلاف والآفار ،وعليه فإن الأمبراطور الشرقى بدا عاجزاً العجز كله عن أن يمد يد العون للبابوية ولروما فى وقت محنتها . كذلك كانت التقاليد فى النصف الشرقى للإمبراطورية منذ عهد قسطنطين الكبير (٣٢٤ ـ ٣٣٧ م) أن يضطلع حامل التاج بمهمة حماية العقيدة من مخالب الهراطقة ومن ثم كان يرأس جميع المجامع المسكونية الخاصة بالجدل اللاهوتى ، كما أن بطريرك بيزنطة كان يخضع لمشورة الامبراطور إن لم يكن لأوامره ، بل وكان من حق الامبراطور ايضا أن يخلع من البطارقة من يشاء وأن يرفع على عرش ايا صوفيا من يشاء ايضا . ولقد انزعجت البابوية تماماً بل واستنكرت هذا التدخل العلمانى البغيض فى شئون كان البابا يرى دوما أنها من صميم إختصاصه هو فقط كرأس للكنيسة المسكونية غربا وشرقاً وكصاحب الحق الأوحد فى« الحل والربط ».كذلك عندما احتدم الجدل حول الايقونات وأخذ الأباطرة الإيسوريون فى بداية القرن الثامن فى تحطيم الايقونات على أنها أصنام وهدد هؤلاء الآباطرة بالزحف غربا لتحطيم ايقونات الكنيسة الرومانية فى عقر دارها ، فزع البابوات

من هذا التهديد وايقنوا أن الجالس على عرش قسطنطين قد تردى فى الكفر ، فكتب البابوات تباعا إلى أباطرة القسطنطينية الايسوريين بحقيقة مشاعرهم منذرين بأن إن هم اقتربوا من ايقونات روما وحرماتها المقدسة ، فإن شعوب الغرب قاطبة وعلى رأسهم جماعة الفرنجة فى غالة سوف تحمل دروعها وسيوفها للذود عن السيد البابا وعن الايقونات المقدسة فى بيوت العبادة فى روما.

ومن الحقائق الهامة التى ينبغى ملاحظتها فى هذا الصدد أن مراكز الفكر اللاهوتى فى القرن الثامن قد انتقلت من الاسكندرية وانطاكية وبيت المقدس إلى مراكز جديدة فى غالة وبريطانيا وأسبانيا ،وهكذا فإن الإلهام العقائدى الذى كان يفد من الشرق قد نضب ، ولم يعد يفد – فى نظر الرومان – من المشرق إلا سلسلة من الهرطقات والتجديف والتطاول على ايقونات القديسين وآثارهم.كذلك فإن الغرب اللاتينى قد أنجب عمداً لاهوتيين أمسوا يغذون الخاصة والعامة بغذاء روحى لاتينى جديد بدلاً من السفسطة اليونانية العقيمة ، وأصبح فى مقدور روما أن تفاخر برجالاتها من أمثال جيروم وامبروز واغسطينوس، وجريجورى الكبير وكولومبا وبونيفاس وغيرهم كثيرين .كما أن عدة مراكز ثقافية قد ترعرعت فى الغرب الأوربى وأصبحت مناراً للعلوم اللاهوتية والفلسفة الافلاطونية ، ولم يعد هناك مبرر فى الغرب لتلقف ما يتساقط من على موائد الاسكندرية وأنطاكية وغيرهما من المراكز الثقافية القديمة ، خاصة بعد أن انسلخت هذه المراكز عن جسد الامبراطورية بعد الفتح العربى . وراح الرومان فى القرن الثامن ينظرون إلى مدارس باريس وتور وريمز

وكانتربرى ويورك ومينز وكولون ليتلقوا عنها المفاهيم اللاهوتية الصحيحة بلسان يفهمونه ..

من هذا السياق كله فإن البابوية أخذت تفكر جديا فى التمرد على الأمبراطور الشرقى أو « اليونانى » وفى البحث عن بديل كاثوليكى قوى فى الغرب يشد ازرها ويبسط عليها الحماية ، حتى وان كان من دم جرمانى ، شريطة أن يكون هذا البديل قد تشرب بالعقيدة الكاثوليكية وتأثر بالتقاليد الرومانية .ولقد وجدت روما ضالتها فى الجالس على عرش الفرنجة فى غالة ، فى شخص كارل الحليف المخلص الذى نجاها من مخالب اللومبارد والذى نشر لواء الكاثوليكية بحد السيف بين السكسون والبافار الوثنيين وبين العناصر السلافية التى سيطرت على وسط أوربا ..

هذا وقد ظهر فى مدينة روما حزب قوى راح يفكر جدياً فى إعادة الأمجاد القديمة إلى العاصمة القديمة التى كانت ذات يوم سيدة حوض البحر الأبيض المتوسط جميعا . إلا أن أعضاء هذا الحزب كانوا ساخطين على شخص البابا الجالس على عرش القديس بطرس آنذاك ألا وهو البابا ليون الثالث بسبب طبعه الاستبدادى وتسلطه على شعب روما وبسبب بعض الشبهات التى حامت حول ثرواته المتضخمة هو وأفراد عائلته .ولذلك فانه فى سنة ٧٩٨ م ثار أعضاء هذا الحزب على البابا واوقعوا به فى أحد شوارع روما وطرحوه أرضا من على ظهر جواده ثم اوسعوه ضربا ولكماً وقيل انهم قطعوا جزءاً من لسانه . غير أن البابا قد نجح بمعونة أحد أفراد حاشيته فى الهرب من روما إلى غالة يستصرخ كارل ملك الفرنجة الذى استقبله فى معسكره فى بادربورن ، وتوسل البابا إلى كارل

أن يعيده إلى عرشه وأن يبسط عليه حمايته . ولم يتوان كارل فى الاستجابة لمطلب البابا اللاجىء ، فأعاده إلى روما مكرما تحت حماية فرقة فرنجية . وبعد قليل قدم كارل بنفسه إلى المدينة العظمى ليحسم الموقف ، فعقد محكمة مثل أمام قضائها كل من الباب ليون الثالث وخصومه ، واقسم البابا أنه برىء من الاتهامات التى وجهت إليه . وقضى العاهل الفرنجى كارل ببراءة البابا وأودع جميع خصومه فى السجن تحت تهديد السيوف والخناجر ..

ثم حلت ليلة عيد الميلاد لسنة ٨٠٠ م وامتلأت كاتدرائية القديس بطرس بالمصلين ، وايضا بعدد وافر من ضباط كارل الفرنجى المدججين بالسلاح . وبينما كان كارل بركع للصلاة إذ بالبابا ليون الثالث يطل على القوم ممسكا بتاج ذهبى ويضعه على رأس العاهل الفرنجى ، ثم انحنى له وفق عادات القدامى ،وسط صياح الجميع فى صوت واحد بلاتينية رصينة : « إلى كارل العظيم ... الاغسطس المتوج من قبل الله ... ناشر السلام ـ امبراطور الرومان .. له الحياة والنصر وطول العمر »(٧٩) ..

وهكذا أصبح كارل الفرنجى هو كارل العظيم « أو شرلمان » . (karolus magnus) الذى بعثت على يديه الامبراطورية الرومانية من الاكفان . ورغم مزاعم إينهارد كاتب سيرة شرلمان بان سيده قد فوجىء بالتاج الرومانى ، إلا أن الدلائل جميعا تؤكد أن شرلمان كان راغبا الرغبة كلها فى أن تزدان رأسه بتاج أغسطس ،فنحن نعلم أنه قبل التتويج بوقت وجيز كان قد أرسل سفراءه إلى بلاط القسطنطينية ليطلب يد الامبراطورة الارملة ايرينى الجالسة على العرش وصية على ابنها القاصر فى الزواج . وليس بمستبعد أن يكون قد طرح على

ايرينى مسألة الاعتراف به امبراطورا على النصف الغربى جنباً إلى جنب معها ، مثلما كانت الحال فى القديم عندما كان للامبراطورية سيدان ، واحد فى روما القديمة ، وآخر فى روما الجديدة . ونجد فيما كتبه واحد من رجالات بلاط شرلمان وهو الانجليزى ألكوين ما يلقى المزيد من الضوء على هذا التوجه : فهو يقول بأن العالم تحكمه قوى ثلاث : البابوية فى روما وهى التى انقذت من الضياع بفضل همة شرلمان وحسن صنيعه ؛ والامبراطورية الشرقية فى روما الثانية أو القسطنطينية وهى التى صارت أمورها تدعو إلى الاسى والشعور بالعار ؛ ثم الامبراطورية التى بعثت من الاكفان على يد شرلمان فى الغرب وهى أفضل هذه القوى جميعا ، حيث تسود العدالة وتستأصل شأفة الشرور وترفع أركان الخير والفضيلة (٨٠)...

هذا وقد كانت لدى البابوية أسباب عدة للإقدام على نقل التاج الامبراطورى من على رأس صاحبه الشرعى خليفة قسطنطين الكبير إلى رأس زعيم فرنجى ينتمى إلى جموع المتبربرين . وفى مقدمة هذه الأسباب حقيقة أن حامل التاج الشرعى فى القسطنطينية آنذاك كان صبياً قاصراً عاجزاً فقد بصره على يد والدته ايرينى التى سملت عينيه لكى تزيحه عن العرش وتجلس هى بدلاً منه بمفردها ،وهذه سابقة شاذة فى التاريخ الرومانى لأن الناس لم يألفوا أن يروا امرأة ترتدى عباءة أرجوانية ، والأدهى من هذا أنها حملت لقب « بازيليوس » أى « صاحب الجلالة » وليس لقب « بازيلسيا » أى « صاحبة الجلالة » . كذلك لم تكن الكنيسة الرومانية على استعداد لأن تغفر لايرينى جريمتها النكراء التى ارتكبتها ضد ابنها القاصر ، ومن ثم فإن ايرينى بفعلتها البشعة التى

استاء منها البيزنطيون أشد الاستياء تكون قد سهلت على كل من البابا وحليفه شرلمان إيجاد الذريعة لاتمام هذه الدراما الفريدة فى كاتدرائية القديس بطرس فى روما . ومع أن ايرينى كانت قد اعادت عبادة الايقونات فى مجمع نيقيا المسكونى السابع سنة ٧٨٧ م ، إلا أن الأسرة التى كانت تنتمى إليها وهى الأسرة الايسورية كانت قد لطخت سيرة الأسرة برمتها بوصمة الهرطقة والتطاول على المقدسات والاثار الكنسية القديمة ، وذلك بطبيعة الحال من وجهة نظر الغرب اللاتينى .

كذلك كان البابا ليون الثالث مدركاً لحقيقة أن الامبراطور الشرقى ، حتى يوم أن كان رجلا وليس امرأة ، كان عاجزاً كل العجز عن حماية البابوية من مخالب العدو اللومباردى فى شمال ايطاليا ، بل أن وقتاً قد جاء حينما عقدت بيزنطة وركيزتها اكزارخية رافنا فى ايطاليا حلفاً مع العدو اللومباردى ضد البابوية ذاتها . وكانت الحجة القوية لدى الحزب البابوى أنه طالما أن الامبراطور الشرقى عاجز عن الدفاع عن رعاياه فى روما ، فإنه من حق هؤلاء الرعايا أن ينقلوا ولاءهم لمن يستطيع بسط الحماية عليهم . ألم يكن الواجب الأول المقدس على خليفة قسطنطين الكبير أن يحمى كنيسة روما الامبراطورية (العالمية) وأن يصون لها هيبتها ويدافع عن قوامة إيمانها ؟ أو ألم يفشل الامبراطور الشرقى فى كل هذا جميعاً ؟ ثم ألم يضطلع شرلمان الفرنجى بكل هذه المهام التى كان خليقاً بالامبراطورالشرقى أن يقوم بها ؟ !

على ثقل هذه الحجج والأسانيد أقدم البابا ليون الثالث فى جرأة نادرة هو وكرادلته على التفرقة بين الخيال النظرى (De jure) وبين الواقع العملى

للأمور (De Facto) ، فقرروا تتويج شرلمان امبراطوراً للرومان ...

يضاف إلى هذا أن الشعور المتحفز فى روما كان شعوراً لا يخلو من الغيرة من تلك المدينة الواقعة على البسفور والمسماة بروما الجديدة والتى لم تكن فى نظر الرومان أكثر من مدينة محدثة النعمة .كذلك لم يغفر البابوات لبيزنطة أطماعها الرذيلة فى منازعة روما فى حقوق الإمارة على الكنيسة العالمية غربا وشرقاً ،تلك الأطماع التى وضحت فى جلسات المجامع المسكونية السبعة المتتابعة .لقد كان لروما دواماً الحق فى انتخاب الامبراطور وتتويجه ، فهى العاصمة الأولى للامبراطورية دون نزاع ، فكيف تستحل بيزنطة لنفسها اغتصاب هذه الحقوق التليدة ؟ لقد حان الوقت لروما كى تسترد حقوقها المغتصبة ، ولم يكن هناك سبيل لتحقيق ذلك إلا بأن تنفض روما عن كاهلها ذاك العبء البيزنطى الكريه « المتأغرق » وذلك بأن تلتمس لها امبراطوراً قوياً يجاورها جغرافيا ويؤازرها فى الغرب اللاتينى .كما وأن البابا قد رأى بنفسه أن شرلمان هو رجل البابا الأول فى الغرب الأوربى، وهوالذى نشر العقيدة الكاثوليكية بحد السيف ، وهو الذى حفظ للبابوية كرامتها وحقوقها الدنيوية مثلما فعل والده ببن القصير وجده كارل مارتل من قبل .

يضاف إلى هذا أن البابوية كانت ترغب فى مقاومة توجهات الحزب الجمهورى الذى كان يسعى لإقامة قوميون (Commune) فى المدينة يتحرش بالمصالح البابوية ، ولكى تؤمن البابوية نفسها تماما كان لابد من إيجاد حليف قوى يرهب هذا الحزب الجديد . وليس بمستبعد أن يكون البابا ليون الثالث قد تدارس الموقف من كل جوانبه مع مستشارى شرلمان اثناء تواجدهم فى روما ،

وأيضا مع بعض مواطنى المدينة من جماعة السيناتوريين وبعض الأسر النبيلة ، ذلك أنه لا يمكننا أن نتصور إقدام ليون الثالث على هذا العمل الخطير (التتويج) دون أن يكون قد ضمن تأييدا كافيا لمشروعه من جانب أغلبية من شعب روما .

أرسل شرلمان سفراءه إلى البلاط البيزنطى ليبلغوا السلطات هناك أن سيدهم قد توج امبراطورا للرومان ، وكان يقصد من هذه السفارة الوقوف على ردود الفعل فى القسطنطينية ،ولقد أبدت ايرينى وحلفاؤها غضبا شديداً من فعلة البابا وحليفه المتبربر شرلمان ، واعتبروا ذلك اغتصابا للقب والتاج ، إذا أن الأمبراطورية كانت قائمة بعاصمتها وجيوشها ومجلس شيوخها وكامل أجهزتها على ضفاف البسفور ،واتهم البيزينطيون البابا الثالث بأنه كاهن آثم قدتآمر ضد الحقوق الشرعية لخلفاء قسطنطين العظيم .كذلك هاجم الاسطول البيزنطى الشواطىء الإيطالية لتخويف شرلمان ، ونشطت الأحزاب الموالية لبيزنطة فى إيطاليا خاصة فى مدينة البندقية ، كما تلقى شرلمان اهانات بالغة فى رسائل مرسلة من الجالس على عرش القسطنطينية .ولكن شرلمان لم يكن بحال ليتخلى عن اللقب والتاج ،وأخيراً فى سنة ٨١٢ م عقد الأمبراطور البيزنطى ميخائيل رانجابيه صلحاً مع شرلمان واعترف بها امبراطوراً ..

بعد أن أعترفت بيزنطة بشرلمان امبراطوراً لم يفكر فى اتخاذ خطوات عدائية ضدها ، ولكن أهل روما لم يشعروا بالارتياح لهذا الموقف الودى ؛ ذلك أن البابا واتباعه قد ظنوا أنهم بهذا التتويج قد انفذوا انقلابا خطيراً ،وبأنهم قد خلعوا الامبراطور البيزنطى نهائياً ، واعادوا السيادة الامبراطورية غربا وشرقا إلى

امبـراطور واحـد فى الغـرب اللاتينى الفـرنجى . ولهـذا فـإن قـوائم الاباطرة فى سجلات روما تسجل اسم شرلمان خلفا مباشراً للأمبراطور البيزنطى قسطنطين السادس ، وتضفى هذه السجلات على شخص شرلمان نفس الشرعية التى كان يتمتع بها اغسطس وقسطنطين العظيم . وكان البابا يعتقد اعتقادا راسخا أن شرلمان هو اصلح امراء الغرب لحمل التـاج الرومـانى ، ولم يكن هنالك فى الغرب من هو أهم من رأس الكنيسة الرومانية ليقنع الناس بهذا التغيير فى نقل التاج ...

لقد ابرز البابا ليون الثالث تاجا ووضعه فى حفل مهيب على رأس الزعيم الفـرنجى ، ولـم يكن من حق البـابا أن يقـتنى تاجـا ولا أن ينعم به على أحـد. ونحن لا نعلم من اين حصل ليو على التاج أصلاً . على أنه ينبغى القول بأن ليـو الثالث قد استند فى فعلته هذه على موقعه كجالس على عرش الكاهن الأكبر ،وعلى الهالة التى كانت تحيط بمدينة روما ، وأيضا على الشعور السائد فى الغـرب اللاتينى آنذاك . ولولا أن البـابا كـان مطمـئنا إلى أن مـا سيـقـوم به سوف يقابل بالارتياح فى الغرب لما أقدم عليه .

كان هذا موقف الحزب البابوى ، أما الحزب الامبراطورى فقد جاهروا صراحة بأن سيدهم شرلمان قد اكتسب التاج الرومانى بحد السيف ، ومن ثم فهـو ليس مدينا لأحد بهذا التاج ، لأنه جائزة كفاحه . والحق أن هذا التفسير هو أوقع التفسيرات واقربها إلى منطق الواقع ، فلولا الفتـوحات الضخمـة التى انجزها شرلمان بحد السيف ، لما فكر فيه أحد كامبراطور .

على هذه الشاكلة أعيد احياء الأمبراطورية الرومانية فى الغرب اللاتينى بعد

أكثر من ثلاثة قرون ونصف من سقوطها على أيدى الجرمان . ولقد أحدث تتويج شرلمان تغيرات خطيرة فى خريطة أوربا ، ومن أبرز هذه التغيرات الصراع الذى اندلع بين خلفاء شرلمان من الأباطرة وبين البابوية ، إذ برز على المسرح السؤال الخطير ، أيهما أسمى مقاما ، هذا الذى يمنح التاج أم ذاك الذى يتلقى التاج؟ وأى السلطتين هى الاسمى : السلطة الدنيوية (Regales) التى يمثلها الامبراطور أم السلطة الروحية (Sacerdos) التى يمثلها البابا ؟ كذلك كان من نتائج التتويج أن ضمت إيطاليا والمانيا فى إطار امبراطورى واحد ،الأمر الذى جرّ الخراب على كل من الإيطاليين والألمان جميعا ، فقد ظلت إيطاليا عبئا على كواهل الاباطرة الألمان سبعمائة عاماً تقريباً ، كما هلك من الدسائس وبعوضة الملاريا الإيطالية عدد وافر من الاباطرة الالمان . كما أن سلسلة من البابوات قد هلكوا ايضا فى زخم هذا الصراع . ويقال أن بعض الاباطرة قد ماتوا بالسم الذى دسه لهم الايطاليون المتمردون ليتخلصوا منهم .

أما المانيا فبدلاً من ان تتجه إلى تأمين رقعة اراضيها على الجبهة الشرقية ، فإنها أرهقت مالها ورجالها فى حملات مضنية عبرجبال الألب لترويض هذا «النتوء» السياسى فى شبه الجزيرة الإيطالية وفى مملكة الصقليتين فى الجنوب الإيطالى . ولكم أضاع الاباطرة الألمان زهرة شبابهم وهم يلهثون من سكسونيا أو باڤاريا إلى روما أو كانوسا أو كلابريا أو بالرمو على حساب مصالح وهيبة التاج الألمانى ، الأمر الذى جعل الاقطاع يعمق جذوره فى تربة الألمان تحت امرة الأدواق الأربعة فى سكسونيا وباڤاريا وسوابيا وفرنكونيا .. ولا نبالغ أن قلنا أن إحياء الأمبراطورية الرومانية على يد شرلمان سنة ٨٠٠ م قد جعل الاتحاد الالمانى والوحدة الايطالية حلما بعيد المنال لم يتحقق حتى حلول أواخر القرن

التاسع عشر ...

استحدث شرلمان بعض النظم التى تليق بخليفة الاباطرة الرومان ، فاصدر مراسيم عامة طبقها على كل رعاياه دون تفرقة ، وكلف مبعوثيه (Missi Do-minici) الخاصين بمراقبة تنفيذ هذه المراسيم ومعاقبة من يسيء استخدامها من الكونتات والافصال . كذلك عقد المجالس التى كانت تضم كبار رجال الدين ونفرا من وجهاء العلمانيين لتنظيم شئون الكنيسة . وكان على المبعوثين أن يوافوا الامبراطور بتقارير مفصلة عن تنفيذ اوامره وتوجيهاته . ولم يكتف شرلمان بإصدار القوانين بل اضطلع ايضا بمهمة القاضى الاكبر فى الامبراطورية ، واعطى لنفسه الحق فى اية قضية والفصل فيها ، وكان حكمه فيها نهائيا . هذا إلى جانب حقه فى النظر فى قضايا الجرائم الكبرى ، كما كان من حق المتخاصمين من علية القوم استئناف النظر فى قضاياهم أمام محكمته سواء أكانت هذه القضايا مدنية أو كنسية .

تركزت حكومة شرلمان لامبراطوريته الواسعة فى بلاط قصره (Palatium) فى عاصمته إكس لاشابل (آخن) .وكانت سياسة الامبراطورية ترسم فى هذا القصر بواسطة شرلمان نفسه مستعينا بمجلس خاص يتكون من خلصائه ومستشاريه .كذلك كان القصر بيتا للمال ، ففيه توجد الخزانة الامبراطورية، وإليه كانت تعود الضرائب من الافصال والعوائد من الاتباع والمكوس من التجار والهدايا من متملقى حامل التاج من مختلف الطبقات ، إلى جانب رسوم النظر فى القضايا والأموال المصادرة والغرامات والجزية المفروضة عل الشعوب المغلوبة وغنائم الحرب من ذهب وفضة وحرائر ثمينة ومجوهرات ومقتنيات نادرة.

وكانت نفقات القصرومصروفات إقامة الحفلات واستقبال الضيوف

والسفراء تدبر من دخول الضياع الامبراطورية المنتشرة فى سائر أرجاء الامبراطورية . ولقد ورث شرلمان هذه الضياع من الملوك الميروفنجيين ،ومع أنه وهب بعض هذه الأراضى للكنائس والأديرة ، إلا أن هباته كانت ضئيلة ان هى قيست بالهبات التى انعم بها الملوك الميروفنجيون على بيوت العبادة والاديرة من قبل ..

كذلك كانت هذه الضياع تمد القصر الامبراطورى بالغلال والثيران والخنازير والانبذة والجعة وزيت الزيتون والاسماك إلى جانب الخيول لإسطبلاته الكبيرة . وقد جلبت فتوحات شرلمان إليه ضياعا أخرى كثيرة فى لمبارديا وسكسونيا وبڤاريا ،وقد اقطع الامبراطور هذه الأراضى الجديدة لافصاله المقربين ولكبار موظفى بلاطه ..

وكان شرلمان محباً للبناء والمعمار ، فشيد كنائس كبيرة اشهرها فى آخن وهى التى دفن فيها ، كما شيد قصراً رائعاً فى عاصمته آخن واخر فى مدينة انجلهايم وثالثا فى مدينة نجميجن ،كما اقام قنطرة على نهر الراين عند مدينة مينز . وكان مهندسو شرلمان من الايطاليين المهرة الذين ابقوا فى العمارة على اسلوب المدرسة البيزنطية بطرزها الجملية من الفسيفساء ..

ولعل أهم جهود شرلمان تتمثل فى برنامجه الطموح من أجل احياء الحياة الأدبية والتعليمية ، وهذا ما يطلق عليه عادة اسم « النهضة الكارولنجية » ، فلقد استقدم شرلمان إلى بلاطه نفراً من مشاهير العلماء من مختلف البلدان الأوربية وهم الذين ساهموا فى اقامة « مدرسة القصر » (Scola Palatina) .ولقد اتخذ كل من هؤلاء اسما كلاسيكيا شمل فيما شمل اسم هومر نفسه .

ولقد اهتم الشعراء فى مدرسة القصر بالشعر اللاتينى الكلاسيكى ، بينما اهتم آخرون بالنثر والخطابة . واشتغل فريق ثالث بالتاريخ والاساطير . ومن بين الاساتذة الذين استعان بهم شرلمان فى نهضته ألكوين الانجليزى الذى كان شاعراً متأثراً باشعار فورتيوناتوس ، ولهذا الانجليزى عدة قصائد بعضها يتناول احداثا تاريخية قديمة وبعضها عن سير القديسيين ، بينما يعالج البعض الآخر أهم المدن مثل يورك ومدينة لندرڤان . ومن أشهر قصائد ألكوين تلك المساجلة بين الشتاء والربيع ، وهى من النمط الشائع آنئذ فى الاوساط الثقافية الانجلوسكسونية . ولألكوين ايضا مجموعة ضخمة من الرسائل النثرية تميل إلى الأسلوب الخطابى، ومن بينها رسالة إلى صديقه آرنو أسقف ستراسبورج تخلو من التكلف والصنعة . ومن أعلام هذه النهضة ايضاً ثيودلفوس اسقف اورليان وهو قوطى الاصل ، وكان بمثابة الشاعر الأول فى البلاط ، وقد تميز اسلوبه بالوقار والشجاعة وقولة الحق . ونجده فى احدى قصائده المطولة يقدم النصح لقضاة الفرنجة وينهاهم عن الرشوة من ذهب مغربى وجلد قوطى وكؤوس فضية مزدانة بالرسوم . ويذكر أن هذا الشاعر قد تعرض فى شيخوخته لاضطهاد من قبل لويس التقى ابن شرلمان ،الذى القى به فى السجن واتهمه بالخيانة . ومن وراء القضبان راح الرجل الكهل يتذكر الشاعر اوڤيد وينهل من أفكاره ، فصور لنا ربة الحكمة وهى تتبنى قضيته وتدافع عنه وتطلب تبرأته .وقد تميز هذا الشاعر الشجاع بالنزاهة وحب الحق ، فهاجم نفاق رجال القصر ورذيلة التملق التى كانت متفشية فى البلاط ،كما أنه استخف بالالقاب التى خلعها الاساتذة على أنفسهم وعلى سيدهم الامبراطور ، فلقد اسموا شرلمان باسم « داوود »

وانجلبرت باسم « هومر » .

ومن أعلام المدرسة أيضاً مؤرخ لومباردى اسمه بولس الشماس ، الذى كان قد أمضى بعض الوقت فى دير مونت كاسينو بعدسقوط مملكة اللومبارد فى أيدى شرلمان ، ولكن شرلمان دعاه للإقامة فى بلاطه ليفيد من علمه وقلمه . وفى أواخر سنى حياته عاد بولس اللومباردى إلى حياة الدير حيث سجل « تاريخاً للومبارد » إلى جانب سجل « للتاريخ العام » أكمل به ما كان قد بدأه المؤرخ الرومانى يتروبيوس من قبل ، كما كتب سيراً لبعض الأساقفة وللبابا جريجورى الكبير .. وكتاب بولس الشماس عن اللومبارد سجل تاريخى فى قصده ولكنه ملىء بالأقاصيص والأحاجى الخيالية المختلطة بين الواقع والميتولوجيا التيوتونية وأدب البطولة ، وقد وضح هذا بشكل خاص فى تناوله لحياة كل من الملكين ألبوين وكوثنبرت[٨١] ..

أما أشهر مؤرخى عصر شرلمان على الإطلاق فهو إينهارد صاحب « سيرة شارل العظيم » أو شرلمان (Vita Caroli Magni) . وبمقارنة مؤلف إينهارد هذا بما ورد فى تاريخ بولس اللومباردى نتبين الفرق الشاسع بين شطحات الخيال عند الشماس وبين التأمل الواعى عند إينهارد ، تماماً كما نلمس نفس الفرق بين خيال هيرودوت فى « تواريخه » وبين صدق ثيكوديديس فى حرب البلبونيز مثلاً . لقد وضع إينهارد نصب عينيه وحدة محددة ذات نسب وأبعاد كان مدركاً لمداها ، ومن هذا المنطلق أخذ يسجل أحداث تاريخه ، مقدراً أهمية الخط العلمى عند كتابة التاريخ .. والحق أن الرجل كان قد أفاد الكثير من طرائق القدامى وقواعدهم فى التأليف قبل أن يمسك بقلمه ويخط سيرة شرلمان.

فهو لا يفتش عن القصص الخرافية والمغامرات فى حياة بطله ، على الرغم من إعجابه بشخص شرلمان وإعجاب شرلمان نفسه بهذا النمط من القصص البطولى ، بقدر سعيه نحو رسم صورة موضوعية صادقة لعصره ولرجالات العصر ، مسترشداً فى منهجه بكتابات ثيوتونيوس . وإينهارد من أصل فرنجى من بلدة مين ، وقد تلقى تعليمه فى دير فولدا ثم أرسله مقدم الدير هدية إلى بلاط شرلمان فلقى من الأخير كل الترحيب والاعجاب . والقارئ لكتابات إينهارد يلاحظ أن الرجل لم يلتقط من التراث الأسطورى التيوتونى والحكاوى المتبربرة (Barbara et antiquissima carmina) إلا ما يعينه على تفهم سمات البطل وسلوكياته فى واقعة بعينها ، خاصة فى مهمة القتال ومواقف البطولة . وإينهارد بعد هذا ينفر بطبعه من أدب الملاحم والأناشيد ، فهو مثلاً عندما يعرض لمعركة جبال البرانس بين مؤخرة جيش شرلمان وقبائل الباسك والتى سقط فيها البطل الفرنجى رولان ورفاقه إيجهارد ساقى الملك وأنشلم كونت البلاط وغيرهم ، يكتفى بتسجيل أحداث تلك الواقعة فى وقار المؤرخ ووضوح الرائى ، وقد حرر ذهنه من إنفعالات وخيالات العصور الوسطى .

إن هذه المدرسة الكارولنجية بعمدها من جنسيات أوربية متنوعة كانت بمثابة الشعلة التى بددت بعضاً من ظلام العصور الوسطى ، وكانت تعتمد أساساً على بعث التراث الرومانى القديم من الأكفان . ومن الأشياء الأخرى التى أولاها شرلمان كبير الاهتمام تلكم الضحالة الثقافية لدى رجال الدين فى القرن الثامن ، وأغلاطهم الفاحشة فى النحو والصرف والأسلوبية . ويتضح ذلك من واقع الرسائل التى كتبها بعض هؤلاء إلى البلاط الإمبراطورى ، والمعروف

أن شرلمان نفسه كان أميا لا يجيد الكتابة ، ولذا فإنه قد جلس فى قاعة الدرس فى القصر مع أبنائه وبناته يتعلم قواعد اللغة اللاتينية الصحيحة فى صبر زائد . ولكى يعالج لنقص المعيب فى رجال الدين فى مجال اللسان القويم فإنه أمر بان تعد عدة مواعظ سليمة الأسلوب والأجرومية وتوزع على كهنة الأبروشيات ليستفيدوا منها فى مواعظهم . كذلك أنشأ العديد من المدارس الكاتدرائية فى كل من ريمز وأورليان إلى جانب عدد آخر من المدارس فى البيوتات الديرانية فى سانت جال ، وتور ، وريشينو ، وفولدا ، وهرزفيلد ، وكورڤى ، وهرشو . وكان الهدف من هذه المدارس تخريج الكهنة المتعلمين ، إلى جانب تثقيف نفر من العلمانيين أيضاً . وكانت الدراسة فى هذه المدارس تنصب على قواعد اللغة اللاتينية فى صيغتها المبسطة الدارجة (Vulgata) إلى جانب دراسة أعمال الفطاحل القدامى من أمثال ڤرجيل وهوارس وأوڤيد وسالوست وجوڤنال وسنيكا.

كذلك كان شرلمان مهتماً بالموسيقى والألحان الكنسية ، فطلب من البابا أن يرسل له بنفر من المتخصصين فى الألحان الدينية ، وأسس لهذا الغرض مدرستين للموسيقى واحدة فى متز وأخرى فى سواسون ، وقد أدخل الإيطاليون آلة الأرغون إلى غالة فى عصر شرلمان الذى كان شخصياً شديد الشغف بأنغام هذه الآلة العجيبة ..

لقد أتت هذه الجهود أكلها وكان من أهم نتائج هذه النهضة الكارولنجية تنقية اللسان اللاتينى المستخدم من شوائب السوقية والتبربر ، وإن كانت هذه الخطوة قد وسعت الهوة بين لغة الكتابة ولغة التخاطب ، ولذا فإن هذه الأخيرة قد تطورت فيما بعد إلى لهجات شعبية محلية ودارجة هى النواة الباكرة

للفرنسية واللغات الرومانيسك الأخرى من أسبانية وإيطالية وغيرها ..

على أن الإهتمام الزائد باللاتينية الكلاسيكية قد ساهم فى حفظ عدد بالغ من المخطوطات لكتابات القدامى ولولا هذا لضاع هذا التراث القديم . كذلك كان لشرلمان الفضل فى أن يحدد للعصور الوسطى على مدارها اللسان اللاتينى كأداة للتعليم فى مختلف المدارس والجامعات الأوربية .

ولابد لنا أن نذكر فى هذا المجال أن شرلمان ظل وفياً ومحباً للسانه الجرمانى الأصلى ، ولذا فإنه أمر بأن تصاغ لهذه اللغة أجرومية على أسس علمية لكى تصبح لغة أدب خالية من فجاجتها القديمة . وقد نجح العلماء فى بلاطه فى جمع عدد وافر من الملاحم والأساطير الموغلة فى القدم والمعروفة باسم " Nibe-lungen Lied " ، ولكن الأمر المؤسف أن إبنه لويس التقى قد أهمل هذا المشروع بحجة أنه تراث وثنى فاسد .

اعتبر شرلمان نفسه سيداً على الكنيسة بحكم منصبه كإمبراطور متوج ، فهو الذى دافع عن كنيسة روما ضد أعدائها اللومبارد ، وهو الذى نشر الكاثوليكية بحد السيف بين مختلف القبائل الوثنية ، وهو بعد هذا « المختار » من قبل السماء والممسوح بالزيت المقدس . ولذلك فقد اضطلع شرلمان بمهمة اختيار الأساقفة ورؤساء الأساقفة ، وكثيراً ماكان يعينهم دون انتخاب . كذلك كان يمارس حقه فى عقد المجامع الكنسية ورياستها وتوقيع قراراتها لتصبح نافذة المفعول . وكانت الكنيسة ورجالاتها يخضعون جميعاً لقوانين الإمبراطورية شأنهم فى هذا شأن العلمانيين من الرعايا .

وشرلمان بعد هذا هو أول من فرض ضريبة العشور وجعلها إجبارية تدفع للكنيسة ،وقد تلقف رجال الدين هذا القرار وزعموا أنه نص ملزم فى الكتاب

المقدس وراحوا يطبقونه فى سائر بلدان غرب اوربا ، ولم يكتف شرلمان بهذه السلطات الواسعة على الكنيسة بل طالب بحقه ايضا فى رسم السياسة العامة وفى اعتماد الطقوس والعقائد . ويتضح هذا من موقفه من المجمع المسكونى السابع الذى كانت الامبراطوره ايرينى البيزنطية قد عقدته سنة ٧٨٧ م لاعادة عبادة الايقوانات ، فقد ارسلت ايرينى قرارات هذا المجمع إلى البابا هادريان (٧٧٢ ـ ٧٩٥ م) الذى وافق عليها وسر بها سروراً بالغا ، ثم ارسلها بدوره إلى شرلمان لكى يذيعها على رجال الدين فى غالة . غير أن شرلمان لم يقنع بكل ما ورد فى هذه القرارات ، فجمع مجلسا من الأساقفة سنة ٧٩٤ م وأخذ يفند بعض هذه القرارات ، ثم أرسل إلى البابا هادريان بهذه التفنيدات فى مكتوب عرف باسم «كتاب كارل » (LIBRI CAROLINI) مشفوعا برسالة غاضبة تنصح البابا ألا يتخذ موقفا فى أمور العقيدة قبل أن يستشير شرلمان .وفى رسالة أخرى كتب شرلمان إلى البابا يفهمه أنه كرجل دين ينبغى أن ينحصر همه فى القيام بالصلاة فحسب ، وحذره من مغبة التدخل فى المسائل الشائكة التى هى من اختصاص الأمبراطور ومستشارية فقط . وتتضح مفاهيم شرلمان لسلطانه على الكنيسة ورجال الدين ومن بينهم البابا نفسه من موقفه من البابا ليو الثالث : فلقد فرض عليه شرلمان المثول بين يديه ثم أمام المحكمة التى عقدها خصيصا فى مدينة روما ليبرأ نفسه من التهم والجرائم التى نسبت إليه ..

ولم يكن فى مقدور البابا ليو الثالث أن يعود للجلوس على عرش البابوية إلا بعد أن قرر شرلمان براءته وسمح له بذلك . وهذه الحجج والسوابق الشرلمانية هى التى التقطها فيما بعد الاباطرة الالمان فى صراعهم العنيد مع البابوية ، ذلك

الصراع الذى جرّ الخراب على كل من البابا والامبراطور ..

كـان شـرلمان قـد تزوج مـرات اربع ،وأنجب ثلاثة أولاد وعـدداً وافـراً من البنات، وقبل وفاته قسم الامبراطورية بين أولاده الذكور شارل وببن ولويس . ولكن شارل وببن توفيا قبل أبيهما ، ولم يبق إلا لويس (المعروف بالتقى) ليرث كل اراضى الامبراطورية ،وذلك سنة ٨١٤ م وهى سنة وفاة شرلمان عن عمر يناهز السبعين عاماً ...

لا جدال فى أن بنيان شرلمان الضخم قد دفن مع مؤسسه فى قبره بمدينة اكس لاشابل سنة ٨١٤ م .ولقد وضع ستة من ورثته التاج الامبراطورى على رؤوسـهم وهم : لويس التـقى (ت . ٨٤٠ م) ؛ لوثيـر (ت . ٨٥٥ م) ؛ لويس الثانى (ت ٨٧٥ م) ؛ شارل الاصلع (ت ٨٧٧ م) ، شارل السمين (ت ٨٨٧ م) ، أرنولف (ت ٨٩٩ م) ، ثم لويس الطفل (ت ٩١١ م) ، الذى انتهت بوفاته سلالة البيت الكارولنجى فى مملكة الفرنجة الشرقيين أو المانيا..

الفصل الرابع

القيصر والكاهن

الصراع بين السلطتين الزمنية والدينية ـ النظرية البابوية والنظرية الامبراطورية ـ مشاهد وأحداث

خرجت الكنيسة الرومانية بعد الغزوات المتبربرة فى القرنين الرابع والخامس غاية فى الضعف فى مختلف البلدان الأوربية ، ففى انجلترا دمر الغزاة بيوت العبادة كما اصيب الكهنة فيها بحال من الانحطاط الدينى والثقافى ؛ وفى فرنسا لحق الدمار بالعديد من الكنائس ،وفى المانيا كانت الحال اشد سوءاً . أما البيوت الديرية التى افلتت من الدمار مثل دير سان بنوا سير ـ لوار فإنها كانت تعانى ايضا من عدم الانضباط أو سوء مسلك الرهبان . ويلاحظ أنه فى عهد الملوك الميروفينجيين فى غالة مال السادة العلمانيون على ممتلكات الكنائس واغتصبوها ..

أما البابوية فى روما فكانت فى حال يرثى لها ، وكانت طوال الوقت معرضة للتهديد من جانب غزوات من صقلية . وكان يتم إختيار البابا بواسطة النبلاء الرومان ، ولم يكن البابا فى البداية أكثر من شيخ رومانى . وقد اشيع فى العصور الوسطى أن امرأة قد تسللت وجلست على عرش البابوية ، وان كانت هذه الرواية لا تقوم على دليل قاطع ، إلا أنها تشير إلى تصور الناس عنها . وفى كل من غالة والمانيا لم يكن أمام الكنيسة لكى تعيش إلا أن تربط نفسها

بالسادة العلمانيين من امراء الاقطاع لضمان الحماية ، ومن ثم صار رجال الدين افصالاً لأمراء الاقطاعيين . ومع أن عددا من الاساقفة قد اضطروا إلى العمل العسكرى كفرسان مقاتلين فى خدمة السادة الاقطاعيين ، إلا أن أغلبيتهم لجأت إلى وسيط من السادة النبلاء يتولى عنهم قيادة فرسان مؤجرين للخدمة إلى جوار السيد الاقطاعى ، وذلك مقابل مكافأة مادية أوعينية معقولة للوسيط الذى عرف بلقب (Advocatus) . وكان طبيعيا مع هذه الأوضاع الاقطاعية أن يقوم كبار النبلاء بتعيين كبار رجال الدين من كبار اساقفة وأساقفة ،وهذا ما عرف فى العصور الوسطى باسم « التقليد العلمانى » .هذا وقد استغل الوسطاء الفرصة لاغتصاب الكثير من اراضى الكنائس التى كانوا يقومون بحمايتها . وفى القرن العاشر نجح كبار رجال الدين فى المانيا فى تحرير انفسهم من قبضة كبار النبلاء من كونتات وأدواق بعدأن ربطوا أنفسهم وممتلكاتهم بالتاج الألمانى ، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أن الملك الالمانى كان لا يقل جشعاً عن سائر الأدواق فى محاولته ابتلاع حقوق رجال الدين الالمان..

ومع أن تاريخ الكنيسة الرومانية الباكر يتسم بالغموض ، إلا أنه يمكن لنا أن نرصد بعض الملامح الرئيسية، ومن بينها ظهور نظام « الابروشيات » (Par-ishes) فى القرى التى كانت تحت اشراف السادة الإقطاعيين .كذلك حدث تطور هام فى القانون الكنسى اعتماداً على كتابات الآباء الباكرين والمراسيم البابوية وقرارات المجامع الدينية .على أنه مع ازدياد قبضة السادة الاقطاعيين على رجال الدين ، فكر الاخيرون فى سبيل يدفعون به هذا الضغط الاقطاعى عن كواهلهم، ووجد رجال الدين أن خير وسيلة يجابهون بها النبلاء العلمانيين أن

يزيفوا عدة وثائق ويذيعوها على الناس كسبيل للمناداه بحقوق قديمة اغتصبها منهــم رجال الاقطــاع ، وقــد عــرفت هذه الوثــائق باســم « فتاوى ايزيــدور » ‹ Pseudo - Isidorian Decretals › ، وقد ظهرت فى منتصف القرن التاسع ونسبت إلى ايزيدور الاشبيلى والدوائر البابوية فى روما . ومن بين هذه المزيفات المزيفة الكبرى التى نسبت إلى قسطنطين الكبير وقصته مع مرض الجذام والبابا سلفستر ، كما اشرنا فى فصل سابق ..

هذا وقد كان لتأسيس دير كلونى ‹ Cluny › على يد وليم دوق اقطانيا سنة ٩١٠ م اثر كبير فى اعطاء دفعة معنوية للكنيسة الرومانية ، فلقد حظرت قوانين هذا الدير على رهبانه أن يتلقوا إقطاعات من سادة علمانيين مقابل اية خدمات دنيــوية ، وإنما يكون المقــابل قــاصــراً على إقــامــة الصلوات والدعــاء لصــالح المقطعين. كذلك نصت قوانين كلونى على ضرورة قيام الرهبان بالعمل اليدوى والفلاحة بدلاً من الكسل والتثاؤب ، وصار الشعار عندهم « العمل عبادة » ‹ Orare est laborare› . كذلك امتاز اتباع كلونى بالالتزام بنظام صارم دقيق فى الطعام والشراب والعمل والصلاة وساعات النوم الى جانب الطاعة التامة لمقدم الدير ‹ Abbot › ، وامتد هذا الاثر ليشمل الكهنة فى الابروشيات .كذلك خلع اتباع كلونى انفسهم من التبعية للسلطات الدنيوية ووضعوا انفسهم تحت مظلة البابوية مباشرة . ولحسن حظ الكنيسة الرومانية أن الامبراطور الالمانى هنرى الثالث (١٠٣٩ ـ ١٠٥٦ م) كان صاحب نزعة دينية ، فأخذ على عاتقه مهمة إصلاح الكنيسة من مفاسدها ، فبادر بنشر مبادئ كلونى فى كل أرجاء المانيا ..

وبدأت موجة الاصلاح تسرى فى جسد الكنيسة الكاثوليكية ، وكانت المهمة الكبرى أمام المصلحين تخليص الكنيسة ورجالها من قبضة رجال الاقطاع العلمانيين ، وتحرير البابوية من تدخل السلطات الزمنية فى اختيار شخص البابا ، فقد كانت العادة عند اختيار مرشح جديد للبابوية أن يشارك كبار رجال الدين والنبلاء الرومان فى هذا الاختيار ، وغالبا ما كان الاباطرة الالمان يتدخلون لفرض مرشح يرضون عنه . ولذا فإن المصلحين ابتدعوا هيئة انتخاب دائمة عرفت باسم «كلية الكرادلة» كانت مهمتها اختيار البابا الجديد ، وتألفت هذه « الكلية » من ستة اساقفة من ابروشية روما الكبرى إلى جانب سبعة من الدياكنة (Diaconi) .وكان مسموحاً منذ وقت مبكر لأفراد من الاكليروس من غير الايطاليين بالمشاركة فى هذه الهيئة شريطة أن يساموا ضمن اكليروس مدينة روما . ومع هذا الاصلاح ابتدع البابوات تقليداً جديداً يوفدون بمقتضاه « قاصداً » (Legatus) بابويا يرسل إلى الأجزاء النائية فى غرب أوربا لمعالجة المشاكل الكنسية ، الأمر الذى مهد لتشديد قبضة البابوية على سائر الكنائس فى الغرب الأوربى .كذلك استن بابوات القرن الحادى عشر تقليداً جديداً اخر بان يمنح البابا لكبار الاساقفة فى الغرب الأوربى رمزاً بابوياً عبارة عن ضفيرة مطرزة من الصوف مزدانة بزخرفة دينية ارجوانية الشكل تعبيرا عن الرضا والحبور ، وبالتدريج صار الحصول على هذا الرمز شرطا لمصداقية وصلاحية كبار الأساقفة فى سائر كنائس الغرب . هذا وقد أنشأت الكنيسة لافرادها محاكم كنسية تجنبها مغبة المحاكمة أمام المحاكم العلمانية ، وقد تدرجت هذه المحاكم من محاكم ابتدائية يرأسها كبير الدياكنة إلى محاكم اسقفية فكبار اسقفية صعدا حتى تصل إلى محكمة البابا فى روما .كذلك اصر

المصلحون على محاربة آفتين خطيرتين فى سلك الكهنوت وهما زواج رجال الدين (النيقولاوية) ثم شراء المناصب الدينية بالمال (السيمونية) . ومن المعروف أن الكنيسة الكاثوليكية تصر على بقاء جميع رجال الدين من الكهنة والرهبان على التبتل (Celibacy) ، وذلك بخلاف الحال مع كنائس العالم الاخرى فى الشرق .

والغريب فى الأمر أن المسئول الاكبر عن حركة الاصلاح تلك كان واحداً من خلفاء شرلمان هو الامبراطور الالمانى هنرى الثالث ، الذى بسبب نزعته الدينية الصادقة ، قصد إلى إيطاليا سنة ١٠٤٦ م وعقد مؤتمراً فى بلدة بافيا أدان فيه آفة السيمونية . وكان الجالس على عرش البابوية آنذاك البابا جريجورى السادس الذى كان قد اشترى الكرسى البابوى بمبلغ طائل من المال . ولهذا فإن هنرى الثالث عقد مؤتمرا آخر فى بلدة سوترى أعلن فيه خلع البابا جريجورى السادس وأمر بنفيه إلى منطقة الراين ، ثم عين ثلاثة بابوات تباعا من أختياره هو وهم :كلمنت الثانى ، وداماسوس ، ثم ليو التاسع . كان ليو التاسع اصلاً من ابناء دير كلونى ، وتدرج حتى صار اسقفا لمدينة تول فى منطقة اللورين العليا . وقد اصطحب ليو التاسع معه إلى روما حاشية من كبار المتحمسين لمبادىء كلونى والاصلاح الكنسى وعلى رأسهم الكاردينال همبرت من سلفا كانديدا ،وفردريك اللورينى ثم هلدبراند .

وضع البابا ليو التاسع تقليداً اتبعه كافة خلفائه إلا وهو عقد مجلس سنوى عند كل عيد فصح فى مدينة روما تقرر فيه خطة الاصلاح لما قد يعن من مشاكل كنسية . وكانت قرارات هذه المجالس ترسل إلى الاسقفيات والابروشيات، ويكون الاساقفة ملزمين بمباشرة تنفيذ هذه القرارات ، وهم

مسئولون أمام البابا ومجلس الكرادلة (Curia) عن تنفيذها . وكان الهدف الاسمى لدى هذه المدرسة الجديدة تخليص رجال الدين من التبعية لرجال الاقطاع . ولم تقتصر رسالة ليو التاسع على إصلاح أحوال رجال الدين الذين كانوا قد ترددوا إلى درك بالغ من الفساد ،وإنما كان هذا البابا لا يغض الطرف عن اعوجاج الملوك والامراء ، إذ رأى فى نفسه مسئولا عن الرعية جميعا من علمانيين ودينيين، ولهذا ليس بمستغرب أن نعلم أن أول من ثار ضد برنامج ليو التاسع الاصلاحى هم رجال الدين ذاتهم ،فبينما كان أحد الكرادلة المبعوثين من قبل البابا يخاطب مجمعا من الاكليروس سنة ١٠٥٣ م ويأمرهم فيه بمراعاة قانون التبتل ، إذ بهم يقومون بشغب صاخب ويقذفونه بالحجارة . ولكن المهم فى الأمر أن كنيسة روما قد أخذت على عاتقها مهمة الاصلاح شريطة أن يدرك الجميع أن أسقف روما هو « الكاهن الأكبر » لسائر بلدان الغرب الاوربى...

كان من بين بطانة ليو التاسع راهب نابه اسمه هلدبراند ، الذى أظهرجرأة نادرة منذ دخوله عضوا فى مجلس الكرادلة سنة ١٠٤٥م حتى جلوسه على العرش البابوى باسم جريجورى السابع . والمعروف أن هلد براند كان ضمن أتباع جريجورى السادس الذى نفاه الامبراطور هنرى الثالث إلى منطقة الراين . ولما أن جلس هلدبراند على كرسى القديس بطرس عقد العزم على تجاوز البرنامج الاصلاحى لليو التاسع والمجاهرة ببرنامجه هو حول نظرية « السمو البابوى » . وقد تمثل هذا فى قوله بان البابا هو خليفة القديس بطرس وبأنه يمثل العدالة السمائية على وجه البسيطة . وكان هلدبراند شديد الاقتناع بأنه بحكم موقعه مسئول أمام الله ليس فقط عن كنائس الغرب الأوربى وإنما ايضا

عن سائر الكنائس فى العالم أجمع . أما امراء هذا العالم وملوكه واباطرته فهم فى نظره مجرد أدوات بوليسية لتنفيذ الاحكام التى يمليها عليهم البابا .ومن يجرؤ من أهل السلطان الزمنى على مخالفة البابا فإن البابا يرشقه بأسلحته الثلاثة من حرمان وقطع ولعنة (Excommunication, Interdict, Anathema) .

وفى سنة ١٠٧٥ م اصدر هلدبراند مجموعة من المراسيم عرفت باسم «الإملاءات البابوية » (Dictatus papae) مشتقة فى أغلبها من الوثيقة المزيفة التى قيل أن قسطنطين الكبير كان قد منحها للبابا سلفستر وكنيسة روما ، وأهم هذه الاملاءات :

- أن البابا الرومانى وحده هو الذى يلقب بلقب « العالمى » .
- أن للبابا وحده حق تعيين وخلع كبار رجال الدين .
- أن للبابا الحق فى التزين بالعلامات الامبراطوية .
- أن للرعية الحق فى التمرد ضد من تحل عليه لعنة البابا .
- أنه على الأمراء والملوك تقبيل قدمى البابا .
- أن للبابا الحق فى خلع الملوك والاباطرة .
- أن البابا وحده هو الذى يقرر من الصالح ومن الطالح .
- أن للبابا الحق فى محاكمة الجميع ، ولكنه هو لا يحاكم إلا من قبل الله(٨٢) .

وهكذا فإن « الكاهن الاكبر » بدلاً من محاولة تخليص الكنيسة الغربية من سيطرة العلمانيين ورجال الاقطاع ، سعى جاداً إلى بسط السلطان البابوى على الامراء والاباطرة والوصاية عليهم حتى فى صلب صلاحياتهم الدنيوية . وكان

هلدبراند مصراً على الا يتقلد أى من رجال الدين فى الغرب الأوربى أى منصب الا من خلاله هو ، وليس بواسطة الملوك أو الأباطرة ، حتى ولو كان المنصب يتضمن اموراً دنيوية إلى جانب المنصب الكهنوتى . وهذا يعنى حرمان الامراء والملوك والاباطرة من حقوقهم الاقطاعية التقليدية فى علاقاتهم برجال الدين ...

كانت هذه النظرية الهلدبراندية تمثل تحديا صارخاً للامراء والملوك ، وبشكل خاص للامبراطور الالمانى الجديد هنرى الرابع (١٠٥٦ ـ ١١٠٦ م). والعجيب فى الأمر أن والد هذا الامبراطور (هنرى الثالث) ، كما سبق أن بينا، هو الذى أخذ بيد البابوية من كبوتها وابتدأ برنامج الإصلاح الدينى الذى وصل من خلاله هلدبراند إلى كرسى البابوى .

لم يكترث الامبراطور الالمانى هنرى الرابع بمزاعم هلدبراند ، وكان هذا الامبراطور قد قاسى الأمرين فى طفولته من وصاية كبار الاساقفة عليه ، فكبر وكبرت معه مرارة حقيقية ضد رجال الدين بشكل عام . قام هنرى الرابع بتعيين اساقفة فى مملكته المانيا وقلدهم صكوك وظائفهم الدينية والزمنية على حد سواء كما كان يفعل اسلافه .ولكن هلدبراند ارسل إليه ينذره بان يكف عن هذا «التقليد العلمانى » وإلا فإنه منزل عليه قراراً بالحرمان . فما كان من هنرى الرابع إلا أن جمع كبار رجال الدين فى مملكته إلى مجمع فى بلدة ورمز، وذلك فى يناير ١٠٧٦ م ،وأعلن المؤتمرون أن هلدبراند قد وصل إلى عرش البابوية بطريق غير شرعى ، وبأنه راهب فاسد ، وأنه لا ينبغى على الكنيسة أن «تبقى على ذئب ليحكمها » .ورداً على هذا فقد عقد هلدبراند مجلسا فى

فبراير من نفس العام وفيه أعلن حرمان وخلع هنرى الرابع ،وذلك على ثقل صلاحياته كخليفة للقديس بطرس ، وحفاظا على سلام الكنيسة ،ومن واقع حقه في القاء خصومه فى اغلال اللعنة ، معلنا أنه « يخلع هنرى الملك ابن هنرى الامبراطور ، معفياً كافة الرعية من عهد الولاء له » .

انتهز خصوم هنرى من الأدواق وكبار رجال الدين فرصة قرار الحرمان الذى انزله عليه البابا ، وثاروا ضده واشتعلت الحرب الاهلية فى المانيا ، واجتمع كبار رجال الدين الالمان وقرروا تعليق منصب التاج لمدة عام ، واشترطوا على هنرى لكى يسترد عرشه أن يحصل على الغفران من البابا هلدبراند ، وتحفز ادواق سكونيا للاجهاز على هنرى الرابع ..

ولكن هنرى انسل خفية عبر جبال الالب إلى سهل لومبارديا حتى وصل إلى توسكانيا وقلعة كانوسة الخاضعة للكونتيسة ماتيلدة حليفة البابا هلدبراند . وكان هلدبراند قد تحرك من روما فى طريقه إلى المانيا ، معلنا أنه قادم « ليدق المسمار الاخير فى نعش هنرى الرابع » . وفى الطريق نزل هلدبراند ضيفاً على حليفته ماتيلدة فى قلعة كانوسة ..

علم هنرى بوجود هلدبراند ضيفاً فى قلعة كانوسة ،فامضى ثلاثة أيام كاملة فى جليد يناير ١٠٧٧ م أمام بوابة القلعة وهو حافى القدمين ، عارى الرأس ، مرتدياً رداء الندم المصنوع من الصوف الخشن ، حاملاً طفله ومصطحباً زوجته . وبعد وساطة أحد كبار الرهبان الايطاليين ، وافق هلدبراند على استقبال هنرى وهو يمسك بالسيف من نصله ، راكعا ذليلاً حتى ارتمى على الأرض يقبل قدمى البابا ، باكيا أن اغفر لى أيها الاب المقدس ! وقبل البابا هذا الندم

ورفع قرار الحرمان عن رأس الملك التائب .

كان إذلال كانوسة علامة على وصول السلطان البابوى إلى قمة مجده ، على حساب الكرامة الالمانية التى لطخت فى وحل كانوسة . ولكن هنرى الرابع عاد إلى المانيا ليصفى الحساب مع خصومة ،وبعد كفاح مرير نجح فى الحاق الهزيمة بهم تباعا . ولما أن أفاق من مشاكل الادواق فى المانيا ،تجاهل وعوده فى كانوسة ، وعاد إلى تعيين كبار الاساقفة دون مشاورة البابا هلدبراند ، فما كان من البابا إلا أن أصدر قراراً جديداً بالحرمان ضد هنرى (١٠٨٠م) ،ولكن هنرى قرر أن ينتقم لكرامته ،وان يقلم أظافر هلدبراند الذى تجاوز بفعلته فى كانوسة كل الحدود ،فقاد جيشه وعبر جبال الالب ثم ضرب حصاراً حول مدينة روما ، ووقع هلدبراند فى المصيدة ، وراح يستنجد بحليفه الدوق النورماندى روبرت جويسكارد الذى كان يحارب فى البلقان ضد جيوش الدولة البيزنطية المتهالكة . إستجاب جويسكارد لصرخة حليفه البابا ، فهجم على مدينة روما واشعل النيران فى مبانيها الأمر الذى استاء منه الشعب الرومانى الذى رأى أن هلدبراند بطموحه الزائد ق جرّ الخراب على روما والرومان . وفى نهاية الأمر اختطف جويسكارد حليفه هلدبراند من قلب المدينة واصطحبه معه حيث عاش منفياً فى بلدة سالرنو إلى أن توفى سنة ١٠٨٥ م ..

أما الامبراطور هنرى الرابع فقد كانت نهايته ايضا مأساوية ، إذ أخذ البابوات الذين خلفوا هلدبراند تباعا فى صب قرارات اللعنة على رأسه ، ثم حدث أن تمرد على ابنه ووريثه هنرى الخامس واودعه أحد الاديرة . ولما توفى هنرى الرابع سنة ١١٠٦ م ترك جسده دون أن يصلى عليه بسبب قرارات

الحرمان المتتابعة التى لحقت به ...

بعد ذلك جلس على العرش البابوى واحد من ابناء دير كلونى المرموقين وهو اوربان الثانى (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩ م) ، وهو الذى حرك مشاعر العدوان بين الخاصة والعامة فى بلدان غرب أوربا للهجوم على الأراضى المقدسة فى فلسطين بحجة تخليص بيت المقدس من أيدى الأتراك السلاجقة .وهبت غوغاء الفرنجة وفرسانها المفلسون وقطاع الطرق وارباب السجون تحت قناع الصليب للنهب والسلب وللإغتراف من العسل واللبن الذى وعدهم به البابا اوربان فى مؤتمر كليرمونت سنة ١٠٩٥ م ..

وقد تعمد هذا البابا ألا يشرك فى هذه الحروب أحداً من ملوك أوربا حتى يحكم سيطرته من خلال مندوبه الاسقف أدهيمار على أمراء الاقطاع وعلى الحملات الشعبية . وأوربان الثانى هو المسئول عن إشعال حرب شرسة اتسمت بالسلب والنهب وسفك الدماء ضد شعوب الشرق الادنى (Levant) لقرنين كاملين من الزمان ، حتى قدر للسلطان المملوكى الأشرف خليل بن قلاوون ان يجهز على بقايا الصليبيين فى عكا سنة ١٢٩١ م . على أن هذه الهجمة المتبربرة الشرسة والمتعصبة قد تركت فى ضمائر الناس جروحا عميقة لا تندمل ابداً على درب العلاقات بين الشرق والغرب ..

وفى عهد الامبراطور الالمانى هنرى الخامس خفت حدة الصراع بين الامبراطورية والبابوية ، وتوصل الطرفان إلى اتفاق ورمز سنة ١١٢٢ م الذى جعل انتخاب كبار رجال الدين خاضعا لقواعد القانون الكنسى (Juris Canonicus) ، على أن يرسل الامبراطور من يمثله لاعتماد هذا الانتخاب ،

ويعتبر هذا الحل انتصاراً للسلطة البابوية . والواقع أن نظرية السمو البابوى قد تأكدت على يد سلسلة من البابوات الاشداء بدءاً بأوربان الثانى ومروراً بباسكال الثانى ، ويوجين الثالث ، وهادريان الرابع ، ثم وصولاً إلى اشدهم بأساً البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦ م) .

هذا فى حين أن السلطة الامبراطورية فى المانيا كانت تمر بحال من التدهور ، فلقد ضرب الهرم الاقطاعى بجذوره على التراب الالمانى ، واغتصب الادواق الالمان الحقوق الملكية ، وتحول الفلاحون الالمان من أحرار إلى عبيد أو اقنان للأرض .وفى شمال إيطاليا حيث كان للامبراطور الألمانى نفوذ عريض وقديم منذ أن قضى شرلمان على مملكة اللومبارد وضمها إلى التاج الفرنجى ، أنتهزت المدن الايطالية فرصة الصراع بين الامبراطور والبابا وراحت تحطم أغلال القيصر والكاهن جميعا ، وتكون لنفسها وحدات سياسية شبه مستقلة قريبة الشبه بنظام دويلات المدن (Polis) ،وكانت هذه نواة لنشوء القوميونات (Communes) الايطالية .

وبوفاة هنرى الخامس انتهى عصر الاسرة السالية من فرنجة الراين ، وأعقب هذا نشوب صراع مرير بين اسرتين ألمانيتين قويتين هما اسرة ويلف من سكسونيا واسرة هوهنشتاوفن من سوابيا . ونتيجة لهذا الصراع الدامى ،والفوضى التى عمت البلاد ، اتفق الأدواق الاربعة سنة ١١٥٢ م على اختيار ملك قوى هو فردريك السوابى كى يلم الشمل ويعيد الهيبة إلى التاج الالمانى . ويرتبط عهد فردريك الوسابى المكنى « برباروسا » أى صاحب اللحية الحمراء كما وصفه الايطاليون (١١٥٢ ـ ١١٩٠ م) بقيام فكرة « الامبراطورية الرومانية

المقدسة» . ورغبة من بربروسا فى عدم الدخول فى صراع ضد أدواق سكسونيا وفركونيا وباڤاريا ومناطق الراين لاسترجاع اراضى التاج المغتصبة ، فإنه فكر فى تعويض ما خسره التاج على حساب اراض خارج المانيا فى كل من برغنديا وايطاليا مكتفيا من الأدواق الالمان بأداء يمين الولاء والطاعة له .

وفى سنة ١١٥٣ م عقد بربروسا صلحاً مع البابا يوجين الثالث عرف بصلح كونستانس لتكوين حلف ضد عدو مشترك هو الملك النورماندى روجر سيد صقلية .وفى سنة ١١٥٦ م تزوج بربروسا من الأميرة بياتريس وريثة برغنديا ، وبذلك ضم هذه الولاية الغنية إلى صولجانه . ثم التفت بربروسا إلى مدن الشمال الايطالى وقوميوناتها الفتية . وكانت ميلان اقوى هذه المدن فى مناهضة السياسة الامبراطورية ، ولذا فقد انحازت إلى البابا فى صراعه ضد الامبراطور الالمانى . أما مدينتا كريمونة وباڤيا فقد وقفتا فى صف الامبراطور الالمانى .وفى سنة ١١٦٢ م اندلعت ثورة فى ميلان بتحريض من البابوية ،وعقد الميلانيون حلفاً مع العديد من المدن اللومباردية عرف باسم « العصبة اللومباردية » ، كما أنشأوا جيشاً قويا للتصدى للمطامع الالمانية على التراب الايطالى . وقد غضب بربروسا من موقف ميلان فعبر جبال الالب سنة ١١٦٢ م وقمع الثورة ودمر المدينة ،ثم عين عليها نوابا امبراطوريين لمراقبة القوميونات ولتنفيذ السياسيه الامبراطورية . ولكن المدن الايطالية أخذت تعزز من كتائبها وتعد العدة ليوم فاصل ، فلقد اكتوت هذه المدن لكونها مسرحاً للأحداث الدامية بين القصر والكاهن الاكبر ، حتى حلت سنة ١١٧٦ م عندما باغتت جيوش العصبة اللومباردية مجتمعة جيش بربروسا واوقعت به هزيمة ساحقة فى واقعة لينانو

(Legnano) .وترجع هزيمة بربروسا فى الدرجة الأولى إلى بسالة المدن اللومباردية ، وأيضا إلى تخلى بعض الافصال الألمان عنه اثناء المعركة . واضطر بربروسا فى هذه المرحلة إلى مهادنة العصبة اللومباردية فاعترف لها بالاستقلال السياسى والقضائى والاقتصاى والعسكرى ، مع بقاء بعض المظاهر السياسية الصورية للامبراطور فى شكل ضريبة صغيرة ورمزية مع موافقة على تعيين موظفى القوميونات ..

ثم تفرغ بربروسا لمشكلاته داخل المانيا ، ونجح فى القضاء على اخطر منافسيه وهو ولف (Welf) دوق سكونيا سنة ١١٨٠ م وبعدها شجع رجال القانون فى جامعة بولونيا من انصاره على بلورة نظرية « التفويض الالهى » للامبراطور فى الحكم ،وبانه يحكم كخليفة لشرلمان ،وبأن التاج الامبراطورى الذى يزين رأسه ليس هبة أو منة (Beneficium) كما تزعم البابوية ،وإنما هو حقه المكتسب بحد السيف وخلافته لبيت شرلمان ، وهكذا رسخ بربروسا مفاهيمه لفكرة الامبراطورية الرومانية المقدسة .وفى سنة ١١٨٤ م قام بربروسا بتزويج ابنه هنرى السادس من الاميرة النورماندية كونستانس وريثة عرش جزيرة صقلية ، وبذلك ربطت مملكة صقلية النورماندية بالتاج الالمانى . هذا وقد مات فردريك بربروسا غريقا سنة ١١٩٠ م وهو يقود الجيش الالمانى فى الحملة الصليبية الثالثة ضد السلطان صلاح الدين الايوبى ، وذلك فى نهر ضحل فى آسيا الصغرى رغم أن المنجمين فى بلاطه كانوا قد حذروه بأنه سوف يموت غريقا !.

اعتلى هنرى السادس عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة سنة ١١٩٠ م ،

وكانت الموارد المالية الوافدة من الجنوب الايطالى ومملكة صقلية عاملاً هاماً فى تعزيز موقف الامبراطور الجديد ، الذى راح يخطط لنشر لواء الامبراطورية على كل بلدان حوض البحر الابيض المتوسط ، بما فى ذلك غزو الدولة البيزنطية نفسها وضم تاج القسطنطينية إلى تاج شرلمان . كذلك تضمن هذا البرنامج الطموح الزحف « نحو الشرق » (Drag nach Osten) لضم بقايا مملكة بيت المقدس الصليبية إلى الامبراطورية « المقدسة » . غير أن هذا المشروع الألمانى الكبير الذى تبناه هنرى السادس لم يقدر له أن يتم بسبب الوفاة المبكرة لهنرى السادس سنة ١١٩٧ م تاركا العرش لوريثه الطفل فردريك الثانى ..

فى أثناء ذلك كانت النظرية البابوية فى السيادة تزداد رسوخا فى كلية الكرادلة فى روما ، يؤيدها فى ذلك نفر من اللاهوتيين وعلماء القانون الكنسى، وليس من باب الصدفة أن أغلب بابوات النصف الثانى من القرن الثانى عشر قد اختيروا من بين الضالعين فى القانون الرومانى والقانون الكنسى ، وكان على رأس هؤلاء البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦ م) .

لقد تبنى انوسنت الثالث نظرية هلدبراند فى السمو البابوى والإمرة العالمية على الكنيسة ليس فقط فى الغرب الاوربى وإنما ايضا فى بلاد الشرق . كذلك خطط أنوسنت الثالث للوصول إلى بيت المقدس عبر القسطنطينية التى كانت كنيستها قد انشقت عن روما منذ القطيعة الكبرى سنة ١٠٥٤ م. وقد كان موت الامبراطور هنرى السادس المبكر وتركه طفلا قاصراً من وراءه فرصة ذهبية لكى يقوض انوسنت الثالث سياسة الهوهنشتاوفن التوسعية .وانوسنت الثالث هو البابا الذى نجح فى إذلال الملك الانجليزى يوحنا واجبره على وضع التاج

الانجليزى فى وضع التبعية للبابوية ، كما وأنه اصدر قراراً بالحرمان ضد الملك الفرنسى فيليب اغسطس ليجبره على أن يطلق زوجته الثانية ،وهو بعد هذا الذى شن حملة « صليبية » ضد منطقة ألبى (Albi) فى الجنوب الفرنسى بحجة القضاء على الهراطقة ،وذلك من خلال محاكم التفتيش التى أرهب بها شعوب اوربا جميعا ...

كان فردريك الثانى يبلغ سنتين من العمر عند وفاة والده هنرى السادس ، لذا فإن والدته كونستانس النورماندية وضعته تحت وصايتها فى حكم جزيرة صقلية ، بينما تولى عمه فيليب السوابى الوصاية على التاج فى المانيا . وانتهز اوتو الرابع ابن هنرى الأسد ـ العدو اللدود لآل الهوهنشتاوفن ـ الفرصة وراح يطالب بحقوقه فى دوقيتى سكسونيا وبڤاريا ،واستعان فى سعيه بخؤولته ملوك انجلترا ريتشارد قلب الاسد ويوحنا ،وقد ساهم هذان الملكان الانجليزيان بالمال والسلاح حتى تمكن أوتو من أن يتوج ملكا على المانيا ١١٩٨م، مما اشعل الصراع بينه وبين فيليب السوابى ..

وقد سارع البابا انوسنت الثالث بتأييد أوتو ضد فيليب كى يضعف فى النهاية من قوة المانيا . ولكن فيليب تغلب على اوتو وانصاره ،و اضطر اوتو إلى الهرب إلى لندن ليحتمى فى بلاط أخواله . غير أنه فى سنة ١٢٠٨ م أُغتيل فيليب السوابى ، فظهر أوتو من جديد على المسرح الألمانى ، وفى سنة ١٢٠٩م وافق البابا انوسنت الثالث على تتويج اوتو امبراطوراً مقابل التنازل عن بعض الاراضى الإيطالية للبابوية .ولم ينقض عام واحد حتى قام اوتو بغزو بعض الاراضى فى مناطق توسكانيا وابوليا بل انه أخذ يتأهب لغزو جزيرة صقلية ايضا.

وانزعج البابا انوسنت الثالث من مسلك اوتو ، فأصدر ضده قراراً بالحرمان (١٢١٠ م) وأعلن فردريك الثانى امبراطوراً شرعيا سنة ١٢١١ م . وعلى التو سافر فردريك إلى المانيا حيث تم تتويجه ملكا فى مدينة مينز (١٢١١) .

وقد شاءت الظروف أن تشتعل الحرب بين فرنسا وانجلترا بسبب الخلاف حول دوقيتى نورمانديا واقطانيا ، وتمكن الملك الفرنسى فيليب اغسطس من أن يوقع الهزيمة الساحقة بعدوه يوحنا ملك انجلترا وحليفه وابن أخته اوتو الرابع الالمانى المناهض لفردريك الثانى ، وذلك فى موقعه بوفين سنة ١٢١٤ م . وهكذا خلا الجو لفردريك الثانى ، الذى أعاد تتويج نفسه مرة أخرى فى عاصمة شرلمان اكس ـ لا ـ شابل سنة ١٢١٨ م .

كان فردريك الثانى شخصية عجيبة سابقة لعصره ، إذ كان اميراً مثقفا ملماً بالعديد من اللغات من بينها العربية واليونانية ، وكان محباً للعلم والعلماء وخاصة العرب منهم ، كما كان على علاقة طيبة مع سلاطين البيت الايوبى فى مصر . وفى سنة ١٢٢٠ م قرر هجرة المانيا كلية والعيش فى دفء الشمس الساطعة فى بالرمو عاصمة جزيرة صقلية ، فقام بتقسيم المانيا بين الادواق فى شكل إقطاعيات وتبعيات واستقر فى مدينة بالرمو .وقد اتصف فردريك بالعقلانية والتسامح الدينى فى عصر كانت سمته الرئيسية هى التزمت، ولذا فإن المعجبين به قد اطلقوا عليه لقب « أعجوبة الدنيا » (Stupor mundi) ، بينما لقبه اعداؤه من رجال الدين بلقب « الزنديق الاكبر » .ومن المعروف ان فردريك الثانى هو الذى اسس جامعة فى نابلى ، وهو الذى شجع الانشطة التجارية والصناعية ، وصار بلاطه محطاً لعلماء الغرب والشرق ، وقد تمت تحت مظلته

ترجمة امهات الكتب القديمة فى الطب والفلك والفلسفة والفيزياء عن العربية إلى اللاتينية ، الأمر الذى ساهم فى نقل أوربا من عصر الظلام إلى تباشير عصر النهضة .

وقد عاصر فردريك الثانى ثلاثة من أعتى البابوات وهم انوسنت الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦ م) ، هونوريوس الثالث (١٢١٦ ـ ١٢٢٧ م) ، ثم جريجورى التاسع (١٢٢٧ ـ ١٢٤١ م) . وقد الح البابا هونوريوس الثالث على فردريك بالقيام بحملة صليبية للاستيلاء على بيت المقدس ، ولكى يرغبه فى المشروع الصليبى توسط فى تزويجه من الاميرة بولندة وريثة مملكة بيت المقدس سنة ١٢٢٥ م . ولكن فردريك لم يبد حماساً لهذا المشروع الصليبى بسبب علاقاته الودية مع السلاطين الايوبيين من خلفاء صلاح الدين ..

ولكى يعوض فرديرك عن حقوقه الضائعه فى المانيا التى ابتعلها امراء الاقطاع ،فإنه راح يبحث عن مكاسب فى المدن الايطالية وقوميوناتها ، فعقد مؤتمراً فى كريمونة سنة ١٢٢٦ م أكد فيه الحقوق التاريخية للامبراطورية فى بلدان الشمال الايطالى .ولكن مدينة ميلان زعيمة العصبة اللومباردية استنكرت هذا التحرش الجديد من جانب حفيد بربروسا . والواقع أن البابوية كانت وراء المدن اللومباردية فى تصديها لمطامع فردريك ، الذى وصفه الايطاليون المتزمتون « بالزنديق الاكبر » وبأنه يولى حيواناته التى كان يقتنيها فى حديقة بالرمو اهتماماً أكثر من اهتمامه ببقايا الصليبيين فى عكا . ولوح البابا بقرار الحرمان ان لم يستجب فردريك بقيادة حملة صليبية .وأمام هذا التهديد رضخ فردريك للامر واعد حملة من عدد ضئيل من الفرسان وأبحر بهم ، ولكنه ما لبث أن

عاد أدراجه إلى صقلية ، متعللاً بسوء الصحة ، فما كان من البابا جريجورى التاسع إلا أن أنزل عليه قرار الحرمان بالفعل (سبتمبر ١٢٢٧م) .

والمعروف أن السلطان الكامل ملك مصر وأخاه المعظم صاحب سوريا لم يكونا على وفاق ، وازدادت العلاقات سوءاً عندما استعان المعظم بالخوارزمية ضد أخويه الكامل والأشرف ملك الجزيرة الفراتية ، وهنا التفت السلطان الكامل إلى صديقه الامبراطور فردريك الثانى سنة ١٢٢٦ م وارسل إليه وفدا برئاسة فخر الدين بن الشيخ إلى صقلية . ولكن الأحوال بين الأخوة الثلاثة تغيرت سنة ١٢٢٧ م ، عندما توفى الملك المعظم وخلفه ابنه الناصر على ملك سوريا فانتهز السلطان الكامل الفرصة واستولى على القدس ونابلس سنة ١٢٢٨ م .

فى أثناء ذلك كان فردريك الثانى قد انتهى من اعداد حملته الصليبية ، وبالفعل أبحر على رأس حملة صغيرة فى يونية ١٢٢٨ م ، وكان بعض رجاله قد سبقوه إلى قيسارية ويافا . وقد توقف فردريك فى جزيرة قبرص لتغطية نفقات الحملة ولتوسيع نفوذه فى حوض البحر الابيض المتوسط .واضطر حنا دى ابلين الوصى على الملك الطفل هنرى إلى أن يضع قبرص تحت حماية وتبعية فردريك .وقد ظن فردريك أنه سوف يحصل على بيت المقدس من السلطان الكامل دون قتال مقابل ما يقدمه له من عون ضد أخيه المعظم ملك دمشق . ولكن فردريك اصيب بخيبة أمل شديدة عندما وصل الى الشام واكتشف أن الأمور قد تبدلت بوفاة المعظم وسيطرة السلطان الكامل على بيت المقدس ونابلس ..

أحس الملك الكامل أنه ليس من مصلحته فى تلك الظروف أن يصطدم

بالصليبين فى الشام ، ولكنه فى نفس الوقت لم يكن ليفرط فى بيت المقدس وجهاد صلاح الدين بطل حطين فيؤلب عليه المشاعر فى سائر أرجاء العالم الاسلامى .

أما عن فردريك ، فقد خرج من بلاده وعلى رأسه لعنة الحرمان البابوية ، كما أن جيشه كان هزيلاً لا يمكنه من خوض حرب ضد الملك الكامل ، ولذا فإنه عند وصوله إلى عكا أرسل رسولين إلى الكامل للتفاوض بشأن بيت المقدس، ولكن الكامل رفض تماما تسليم بيت المقدس لفردريك . اتجه فردريك إلى مدينة يافا وبدأ فى تحصينها لتخويف الملك الكامل ، ولكن أخباراً أتت من صقلية بأن البابا أصدر ضد فردريك قراراً بالحرمان واباح لرعاياه الاعتداء على ممتلكاته . وهنا لجأ فردريك إلى حيلة ماكرة ، إذ راح يتذلل للملك الكامل حتى قيل انه كان يبكى بالدموع مبينا للكامل أنه « مملوكه » وحليفه ، متوسلا الا يخيب أمله فيه وإلا يعيده إلى الغرب الاوربى منكس الرأس فيشمت فيه البابا والخصوم . واستجاب الكامل لتوسلات فردريك وعقد معه اتفاقية يافا فى ٢٨ فبراير ١٢٢٩ م التى نصت على اعادة بيت المقدس للصليبيين على أن يحتفظ المسلمون بقبة الصخرة والمسجد الاقصى ، مع تبادل الاسرى بين الطرفين .

لم يعجب هذا الإتفاق الصليبيين وخاصة جيرالد بطريق مملكة بيت المقدس الذى هدد بانزال قرار الحرمان على المدينة وعلى من فيها إن هم استقبلوا فردريك الثانى الملك « الملعون » من قبل البابوية . ورغم هذا التهديد فإن فردريك قام بزيارة بيت المقدس ودخل كنيسة القيامة ثم تناول بيديه تاج الامبراطورية من على مذبح وضع خصيصا للمناسبة وقام بتتويج نفسه بنفسه ،

وفى هذا الفعل اشارة واضحة إلى أنه تلقى السلطة مباشرة من الله وليس من الكاهن الاكبر للغرب اللاتينى . هذا وقد خاطب الجماهير التى التفت حوله من صليبيين وغيرهم ، ووصف جموع الصليبيين « بالخنازير » مفنداً الادعاءات البابوية ومواقف بطريق بيت المقدس واسقف قيسارية المتزمتة . وبعدها ابحر فردريك من عكا إلى قبرص حيث امضى بضعة أيام ، ثم غادرها إلى عاصمته فى صقلية .

فى أثناء ذلك روجت البابوية اشاعة بأن فردريك الثانى قد هلك فى الشرق، ولكن ظهوره المفاجىء فى ميناء برنديزى اوقع البابا جريجورى التاسع فى حرج شديد . ولكى تعفى البابوية نفسها من هذا الحرج ، اضطر البابا جريجورى التاسع إلى عقد صلح مع فردريك الثانى فى مؤتمر عقد فى سان جرمانو سنة ١٢٣٠ م ، وفيه تقرر رفع الحرمان عن فردريك ، وعلى أن يتعهد الامبراطور بحماية الاملاك البابوية . على أن هذا الصلح كان مجرد هدنة بين العدوين اللدودين ، ففى سنة ١٢٤٥ م عقد البابا مجمعا فى مدينة ليون وفيه تمّ حرمان فردريك مرة ثالثة مع قرار بعزله عن العرش بسبب « زندقته » وانتخاب ملك آخر بدلاً منه . ونتج عن هذا الحرمان الاخير أن اضطربت الأمور فى المانيا والمدن اللومباردية وفى صقلية نفسها . وفى خضم هذه الأحداث التعسة فى مختلف أركان الامبراطورية توفى فردريك الثانى سنة ١٢٥٠ م .

والواقع أن مصير الامبراطورية الرومانية المقدسة قد انتهى مع موت فردريك الثانى ، خاصة وأن ابنه هنرى قد مات بعد سنين قلائل فى المانيا ، وفى سنة ١٢٦٦ م هجم الكونت شارل دى انجو شقيق الملك الفرنسى لويس التاسع

بتحريض من البابوية على جزيرة صقلية وقتل الابن الثانى (غير الشرعى) لفردريك واسمه مانفريد ، وبعدها عانت المانيا من الفوضى والحرب الاهلية حتى سنة ١٢٧٣ م عندما تم انتخاب رودلف هابسبورج امبراطوراً ليؤسس بذلك قواعد أقوى الأسر الاوربية نفوذا واشدها استبدادا والتى ظلت تتحكم فى مصائر الغرب الاوربى حتى مجىء نابليون بونابرت وقضائه عليها تماماً .

لاشك فى أن البابوية قد نجحت فى تحطيم أحلام آل الهوهنشتاوفن الالمان، وأمالهم فى الامبراطورية الرومانية المقدسة . ويلاحظ أنه خلال هذا الصراع المرير وقفت الملكية الفرنسية فى معسكر البابوية وخاصة فى عهد الملك لويس التاسع وشقيقه شارل دى انجو ثم فى عهد فيليب الرابع ابن لويس التاسع ..

وعندما نصل إلى عهد الملك فيليب الرابع المكنى « بالوسيم » نجد تبدلاً فى السياسة الفرنسية : فلقد كان هذا الملك (١٢٨٥ ـ ١٣١٤ م) شديد الثقة بنفسه ، كما كان ناقما على البابوية لأنها جرت والده إلى حملة فاشلة فى قطالونيا .

وقد احاط فيليب الرابع نفسه بحاشية من رجال القانون الذين كانوا ينادون بعلو السلطة الزمنية على السلطة الدينية .وقد ادى هذا إلى دخول فيليب فى صراع مع كل من البابا هونوريوس الخامس (١٢٨٥ ـ ١٢٨٧ م) والبابا نيقولا الرابع (١٢٨٨ ـ ١٢٩٤ م) .

وبعد وفاة نيقولا الرابع اجتمع الكرادلة فى روما لاختيار البابا الجديد وسط نزاع شديد بين عائلتين نبيلتين فى روما وهما عائلة اورسينى وعائلة كولونا إلى حد وصل إلى التقاتل وسفك الدماء فى شوارع روما(٨٣) . وللخروج من هذا المأزق اتفق الكرادلة على انتخاب أحد الرهبان المعتزلين فى نابلى للبابوية وتخطى مرشحى اورسينى وكولونا المتنازعين . ولكن البابا الجديد سلستين الخامس لم يكن يصلح لهذا المنصب الخطير ، ولذا فإنه سرعان ما اعتزل كرسى البابوية ورجع إلى ديره فى نابلى . وجاء من بعده رجل قوى اسمه الاصلى بندكت جيتانى الذى توج للبابوية باسم بونيفاس الثامن (١٢٩٤ ـ ١٣٠٣ م) وكان بونيفاس شخصا متعاليا مغروراً بنفسه وشديداً فى طموحاته ، وقيل انه كان يرفس الكرادلة بقدمه عندما يغضب ، وبانه وزع المناصب العليا والثروات فى روما على أقاربه ، الأمر الذى أثار حفيظة أعدائه من أسرة كولونا . ومن بين المآخذ التى أخذت على بونيفاس أنه أعطى لواحد من ابناء أخوته مالاً وفيراً من خزانة الفاتيكان ليشترى به لنفسه ضيعة كبرى . ولكن آل كولونا كانوا له بالمرصاد فأوقعوا بابن الاخ هذا واستولوا على هذا المال منه ، فما كان من البابا بونيفاس إلا أنه دعا إلى حرب « صليبية » ضد آل كولونا ، واستولى أتباعه على أملاك كولونا وثرواتهم ثم أمر بنفيهم خارج روما . وهكذا فقد بونيفاس مصداقيته ، وتضخم عدد أعدائه داخل روما نفسها ...

فى هذا الأثناء شهدت أوربا حرباً عاتية بين فرنسا وانجلترا حول دوقية غسقوينا ولذا فإن كلا من الملك الفرنسى فيليب الرابع (١٢٨٥ ـ ١٣١٤ م) والملك الانجليزى أدوارد الأول (١٢٧٢ ـ ١٣٠٧ م) قررا فرض ضريبة على

رجال الدين كل فى مملكته لسد الحاجة إل المال والرجال والاسلحة . ولكن هذا الاجراء اغضب البابا بونيفاس الثامن ، فأصدر سنة ١٢٩٦ م املاءاً بابويا بعنوان (Clericis Laicos) يحظر به أن يدفع رجال الاكليروس (Clericis) أية ضريبة للعلمانين (Laicos) دون موافقة صريحة من البابا . ورد فيليب الفرنسى على هذا الموقف البابوى بأن منع تصدير الفضة والذهب إلى الخزانة البابوية ، فاضطر البابا إلى التراجع من موقفه معلنا أنه فى مقدور الملك الفرنسى أن يفرض ضريبة على الاكليروس الفرنسى عندما تكون الحاجة ملحة على أن يشاور البابا فى هذا الأمر فى حينه ، ولكى يبرهن البابا بونيفاس الثامن على حسن نواياه تجاه الملك الفرنسى أصدر قراراً بخلع لقب « القديس » على والده لويس التاسع ...

غير أن حدثا وقع فى الجنوب الفرنسى عكر الصفو بين الملك الفرنسى والبابا : فلقد كان فيليب حانقاً على أحد الاساقفة الفرنسيين فى الجنوب الفرنسى ، فحرض رجال بلاطه على تدبير خطة يقلم بها أظافر هذا الاسقف . لم يكن من العسير على رجال البلاط أن يبرزوا قائمة بالاتهامات ضد هذا الاسقف ، ثم رفعوها إلى البابا بونيفاس الثامن طالبين عزله من منصبه الدينى حتى تتمكن السلطات العلمانية فى فرنسا من محاكمته أمام محاكمها . ومن بين الاتهامات التى وجهت للرجل تهمة الهرطقة ، ولكن البابا اعترض على هذه الاتهامات ، بل انه أعلن من جديد تأكيده على قراره السابق فى عدم تدخل العلمانيين فى شئون رجال الاكليروس . ورد فيليب على هذا الموقف بأن جمع مجلس طبقات الأمة الفرنسى لمناقشة موقف البابا . وفى خلال ذلك

اصدر بونيفاس مرسوما بابويا جديدا يؤكد فيه على وحدة الكنيسة المقدسة وسموها على السلطان الزمنى للملوك والامراء (Unam Sanctam) ، بل انه هدد سنة ١٣٠٣ م بانزال قرار الحرمان على رأس فيليب الرابع نفسه ..

كان رد فعل الملك فيليب الرابع غاية فى الخبث والدهاء ،فلقد استعان بواحد من خبثاء بلاطه اسم وليم دى نوجارت لشن حملة تشهير ضد كبار رجال الدين من خصوم التاج الفرنسى داخل فرنسا ثم ضد البابا بونيفاس نفسه. اذاع نوجارت أن اسقف بلدة تروى (Troyes) على صلة آثمة بإحدى الساحرات ، وبأن الاثنين معا يمارسان السحر الاسود ضد شخص الملكة الفرنسية نفسها ، وذلك بتناول صورة لصاحبة الجلالة ووخزها بالابر المسمومة تكراراً ومراراً حتى تتشوه الصورة ، وبعدها تموت الملكة من فعل الوخز فى الصورة . وبعد إذاعة هذه الشائعات تمكن الملك فيليب الرابع من مصادرة أملاك الاسقف الذى ادين بتهمة السحر الاسود ..

بعد هذا طلب الملك من رجله نوجارت أن يبتدع شيئا مماثلاً ضد البابا بنونيفاس الثامن للنيل منه . وأعد نوجارت قائمة من الاتهامات ليدين بها بنونيفاس ، من بينها أنه ساحر وهرطيق وبأنه قد دس السم لعدد من خصومه من الكرادلة ، وبأن له عشيقة فى قصر الفاتيكان . وبعد إذاعة هذه الاتهامات على الملأ ، توجه نوجارت إلى إيطاليا بصحبة واحد من ألد أعداء البابا وهو سيارا كولونا . وانضم آل كولونا إلى الرجلين فى روما ومعهم جمع من مشاغبى روما، وزحف الجميع على بلدة آناجنى حيث كان بونيفاس يقيم مع أفراد عائلته . وفى ٧ سبتمبر ١٣٠٣ م قبض المهاجمون على بونيفاس ، ولكن أهل

البلدة تزاحموا حتى اختطفوا البابا من مخالب أعدائه وحرروه من قيوده بالقوة . وكانت الصدمة بالغة الشدة على نفس بونيفاس الذى توفى بعد قليل متأثراً بهذا الإذلال البشع ..

وجد البابا الجديد بندكت الحادى عشر (١٣٠٣ ـ ١٣٠٤ م) نفسه فى موقف حرج للغاية ، فلقد كان تابعا مخلصاً لبونيفاس ، ولم يكن ليسمح بالمهانة التى تعرض لها سيده الراحل أن تمضى دون عقاب ، ولكنه فى نفس الوقت لم يكن ليرغب فى دخول حرب مكشوفة ضد فيليب الرابع . ولذا فإنه قرر رفع الحرمان عن فيليب شريطة أن يقوم الملك بمعاقبة نوجارت الذى كان سببا فى موت البابا بونيفاس من الصدمة . على أن الاجل لم يمهل بندكت ليتم الصفقة إذ توفى بعد أقل من عام واحد من توليه منصب البابوية . وفى يونيه ١٣٠٥م اجتمع مجلس الكرادلة واختاروا للبابوية برتراند دى جوت كبير أساقفة بلدة بوردو الفرنسية . وتشير كل الدلائل إلى أن فيليب الرابع قد أثر على الكرادلة فى هذا الاختيار للبابا الجديد الذى اتخذ اسم كلمنت الخامس (١٣٠٥ ـ ١٣١٣م) .

وبات معروفا لدى الجميع أن البابا الجديد هو صنيعة فيليب الرابع ملك فرنسا دون جدال ، ثم حدث أمر غريب للغاية ، فقد استدعى البابا الجديد مجلس الكرادلة من مدينة روما إلى مدينة ليون بفرنسا حيث تم تكريسه للبابوية ثانية ، ثم اتخذ البابا كلمنت الخامس قراراً أذهل الغرب الاوربى قاطبة ألا وهو نقل المقر البابوى من مدينة روما إلى بلدة آفنيون (Avignion) على الضفة الشرقية لنهر الرون فى كونتية فيناسان فى ولاية برغنديا . كذلك غير كلمنت

الخامس من تركيبة مجلس الكرادلة اذ عين خمسة وعشرين من الثمانية وعشرين كاردينالا من الفرنسيين . وهكذا باتت البابوية مؤسسة فرنسية لحماً ودما . ولسخرية الأقدار اكتشف المعاصرون أن البابوية التى كانت قد نجحت فى تحطيم آل الهوهنشتاوفن الالمان الاشداء قد انتهى بها المطاف لتصبح اسيرة فى جيب آل كابيه فى فرنسا ، وتعرف هذه الفترة من انتقال البابوية من روما إلى افنيون باسم الاسر البابلى (Babylonian Captivity) .

أتاح هذا الانتقال إلى افنيون الفرصة لوليم نوجارت لكى يعيد طرح قضية البابا بونيفاس من جديد ، فحاول إغراء البابا الفرنسى الجديد بنبش قبر بونيفاس وأخراج عظامه وأحراقها علناً أمام الناس .. ولكن البابا فزع من هذا التهور وطلب من نوجارت التمهل خوفا من اثارة مشاعر الناس فى الغرب الأوربى ..

وفى أثناء ذلك كان الملك فيليب الرابع ورجاله يخططون لما هو ادهى وانكى : فلقد قرر الملك الفرنسى أن يسطو على أملاك وخزائن جماعة الرهبان الداوية الذين فروا من عكا بعد سقوطها فى أيدى السلطان أشرف قلاوون ، وقد حملوا معهم خزائن مليئة بالفضة والذهب . بدأ رجال فيليب باشاعة أن رهبان الداوية قد تخلوا عن المسلك الديرانى المثالى وانغمسوا فى ملذات هذا العالم وفجوره ، وبانهم عندما يقسمون قسم الفروسية يقومون بطقوس فاجرة ، من بينها الركوع أمام تمثال للشيطان . وعليه فقد صدرت الأموار الملكية بالقبض على أفراد هذه الجماعة ، وصودرت أملاكهم وخزائنهم ، ثم اطلع الملك الفرنسى البابا كلمنت على هذه الاجراءات ، فكون البابا لجنة لتقصى الحقائق ، وفوجئت اللجنة بأن الاتهامات كانت مختلقة وملفقة فى أغلبها .

ولم ينتظر فيليب نتائج اللجنة فقام بتحريض خلصائه من كبار الاساقفة بالقبض على أعضاء هذه الجماعة واحراقهم . وبالفعل قام كبير اساقفة سينس (Sens) بإحراق خمسين من هؤلاء الرهبان . وجاء دور البابا ليدلى برأيه فى الأمر بعد أن أطلع على تقارير اللجان ولم يجد بدأ من أن يعلن حل جماعة الدواية ، بل انه أرسل بالتهنئة الحارة للملك الفرنسى لغيرته الشديدة على سلامة الدين وقوامة العقيدة . وبذلك استولى فيليب الرابع على كل أملاك الداوية دون مقاومة .

ظل الكرسى البابوى قائماً فى بلدة افنيون لمدة اثنين وسبعين عاماً كاملة تحت قبضة التاج الفرنسى ، إلى أن نجح البابا جريجورى الحادى عشر سنة ١٣٧٧ م من الهروب إلى إيطاليا وإعادة المقر البابوى إلى روما منهياً بذلك ما عرف فى التاريخ الأوربى الوسيط باسم الأسر البابلى ..

الفصل الخامس

السادة والعبيد

الهرم الإقطاعي ـ الجذور الرومانية والجرمانية للاقطاع

عالم الاقنان ـ ثورات الاقنان في فلاندرز وفرنسا وانجلترا

تصدعت امبراطورية شرلمان سنة ٨٤٣ م فى أعقاب نشوب حرب أهلية بين أحفاده ، وما لبثت غزوات متبربرة جديدة أن اجتاحت الغرب الأوربى فى موجات متلاحقة من أهل الشمال النورمان وقبائل الماجيار الزاحفة من الشرق . وفى هذه الظروف المضطربة أخذ نظام الإقطاع فى التبلور ليصبح القاعدة الاقتصادية والإجتماعية والعسكرية لسائر بلدان الغرب الأوربى . والواقع أن الطبيعة كما خبرها إنسان تلك القرون كانت متجبرة ومستعصية على الترويض ؛ إذ انبسطت على خريطة أوربا فى ذلك الوقت مساحات شاسعة من الأرض لم تمتد إليها يد الإنسان ، وإنما كانت مرتعاً للحيوانات الضارية من دببة برية وذئاب مفترسة تحوم حول أطراف البرارى والغابات ثم تنقض على قلب الرقع المنزرعة بحثاً عن فريسة آدمية . وقد نعجب عندما نعلم أن بعض الجماعات فى العصور الوسطى الأوربية كانوا يقتاتون على التقاط الثمار البرية تماماً مثلما كان يعيش الإنسان البدائى فى سحيق الأزمان . ولم يكن الناس يخشون شيئاً قدر

خشيتهم ظلام الليل وقسوة برده وصفير رياحه . ومن هنا فإن إنسان العصور الوسطى قد سلم أمره لقوى غيبية متقلبة الطبع لا سبيل للسيطرة عليها أو التنبؤ بمفاجآتها . وتفيد السجلات بأن نسبة عالية من مواليد تلك العصور كانوا يهلكون عقب ولادتهم بقليل بسبب قسوة الظروف المعيشية ، ولم يكن حظ الكبار أفضل من حظ الصغار ، فمن لا يهلك فى الغابة يقتل فى الحروب ، ومن يفلت من هاتين المحنتين لا يعمر أكثر من أربعين عاماً فى أغلب الأحوال.

إن تلك الظروف القاسية هى التى شكلت عقلية العصور الوسطى ، إذ كان الناس يرون فى مظاهر الطبيعة من عواصف وبرق ورعد علامات على سوء المصير ، وأصيب المجتمع بحال من التوتر والهلوسة ، فتاه العوام والخواص فى غيبة أشبه ما تكون بأحلام اليقظة ، ونشطت فى هذا المناخ البيوتات الديرانية فراح أهل الدين يقضون فراغهم فى تفسير الأحلام والرجم بالغيب ، وفسروا الظواهر الطبيعة بخيال ساذج فى زمان غاب فيه العلم وتوارى عنه حكم المنطق والتعقل . ومن هنا فإن من يتصدى لتأريخ العصر الوسيط فى أوربا يصطدم بالضرورة بمشاعر من اليأس ونوبات الغضب وتقلب الطباع وبالأفكار القهرية الاستحواذية وغيرها من التناقضات الصارخة بين طبقات المجتمع .ويترتب على هذا كله صعوبة بناء تاريخ عقلانى لعصر لم يعرف أبجدية العقلانية ، فنحن أمام عصر « الإيمان الأعمى » ،وتتضح هذه اللاعقلانية فى حوليات العصور الوسطى، فلم يكن لدى أغلب القوم احساس بعامل الزمن ولا بدلالة الرقم ، حيث لم تكن لديهم الوسائط التى يقيسون بها الوقت من ساعات مائية أو شمسية ، ولم تكن الأخيرة حتى أن وجدت لتجدى كثيراً فى جو ملبد بالغيوم

فى أغلب فصول السنة . ونحن نعلم أن الملك ألفرد الإنجليزى (القرن التاسع) كان يستعين بعدد مهول من الشموع يشعل الواحدة من الأخرى لمتابعة مرور الساعات . وهناك رواية من مقاطعة هينولت عن مبارزة اتفق على إقامتها بين اثنين من المتخاصمين ، ووصل واحد من الخصمين فى وقت الفجر ووصل كذلك إلى موضع المبارزة الحكام ورجال الدين للشهادة عليها ، ولكن الخصم الآخر لم يظهر ، فطالب الأول بالحكم له بالفوز لأن الثانى قد فشل فى الحضور فى الموعد المتفق عليه . ولكن الحكام ظلوا يتداولون فى الأمر طويلاً لكى يتحققوا من أن الخصم الثانى لم يأت فى « الميقات » المتفق عليه ، ولم تكن لديهم وسيلة ثابتة الدلالة لتحديد هذا الميقات أو تلك الساعة على وجه التحديد . ولم يكن الزمن ذا قيمة واضحة المعالم فى أذهان هؤلاء القوم ، ولذا فإن العديد من وثائق وسجلات العصر الوسيط تخلو من التأريخ ، مع أنها قد كتبت أصلاً لكى تصبح سجلاً زمنياً لرصد حدث معين أو مناسبة هامة كتاريخ ميلاد أو وفاة أو وراثة أرض أو حفل تكريم إلى آخره . وقد تواكب مع هذه اللامبالاة بعامل الوقت لا مبالاة شبيهة بالأرقام والأعداد والإحصاءات ، وعليه فإن المؤرخ يجابه فى حوليات العصر أرقاماً خرافية حول أعداد الجند وعدد القتلى ، فعلى سبيل المثال لا الحصر تذكر الوثائق أن وليم الفاتح دوق نورمانديا كان يقود ما بين ثلاثين وستين ألفاً من الفرسان يوم أن غزا إنجلترا سنة ١٠٦٦م ، بينما توضح الأبحاث الحديثة أن وليم لم يكن يقود فى غزوه لانجلترا أكثر من خمسة آلاف من الفرسان .

كانت اللغة اللاتينية هى لسان العصر ، ولكن غالبية الناس كانوا يتخاطبون

باللهجة العامية المحلية (Vernacular) ، ومن هنا وجدت ثنائية حتى فى اللسان ، إذ كانت الجرمانية والكلتية والأنجلوسكسونية والفرنسية القديمة تفرض نفسها جنبا إلى جنب قبالة اللاتينية . ولقد تعرضت اللاتينية الكلاسيكية لتدهور كبير عندما تسربت إليها ألفاظ كثيرة من أصول متبربرة حتى تساير روح العصر ومتطلبات أهله ، ناهيك عن انهيار قواعد النحو والأسلوبية .ولكن اللاتينية ظلت لغة الكتابة الوحيدة ، وهنا نجابه صعوبة أخرى ؛ فلو أن مشادة وقعت بين اثنين من الفرسان حول إيجار إحدى الإقطاعيات ، فإنهما يتنازعان ويتجادلان طيلة الوقت باللسان المحلى وليس باللاتينية ، غير أنه عندما تسجل لنا وقائع تلك المشادة فإنها تسجل باللاتينية بيد واحد من الكتبة المحترفين . وغنى عن البيان أنه بين ما يرد إلينا باللاتينية وبين ما قد وقع بالفعل باللسان المحلى هوة جد سحيقة .

يضاف إلى هذا أن اللاتينية الوسيطة كانت لساناً قاصراً فى الغالب على رجال الدين فهم الطبقة الوحيدة المتعلمة ، أما العالم العلمانى فكان أبعد ما يكون عن اللسان اللاتينى ، ويكفى أن نعلم أن امبراطوراً عظيماً مثل شرلمان ذاته لم يكن يجيد القراءة ولا الكتابة ، وأن أوتو العظيم مؤسس الأمبراطورية الرومانية المقدسة لم يكن يعرف حروف الهجاء ، كما أن أبناء الطبقة الإقطاعية النبيلة شمال البرانس والألب كانوا أميين (illiterati) بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، لدرجة أن الغالبية العظمى منهم ممن اعتادوا على زيارة الأديرة فى أمسياتهم لم يكونوا بقادرين على مجرد القراءة (idiota) فى الكتب المقدسة . وفى البداية لم يكن أحد ليجرؤ على مجرد التشكيك فيما يقوله رجال

الدين ، حتى لو كان ما يقال أحياناً منافياً لأبسط قواعد المعقولية .

ولرسم صورة لأوربا الإقطاعية ينبغى أن نلاحظ أن المجتمع قد أخذ بفعل الظروف يتشكل فى طبقات ثلاث : قوم وظيفتهم الصلاة ، وقوم وظيفتهم الحرب ، وقوم وظيفتهم فلاحة الأرض . ومع أن النظام الإقطاعى قد ورد من منابع جرمانية مع قبائل القوط والفرنجة ، إلا أن للإقطاع أيضاً جذوراً رومانية ، ذلك أن تغيير وضع الفرد بالنسبة للآخرين على أساس حيازة الأرض أمر يرجع إلى القرن الثالث للميلاد ، فعندما ازدادت وطأة الضرائب على كواهل الفلاحين لجأوا إلى رهن أراضيهم إلى السادة الأغنياء مقابل قرض معين . وعندما عجز الفلاح عن سداد ديونه ضاعت عليه الأرض وأصبح مجرد مزارع على أرض كان يملكها يوماً ما ولكنها لم تعد ملكه بعد . كما شهد نفس القرن محاولات الفلاحين الرومان فى التهرب من دفع الضريبة للدولة وذلك بالتنازل عن الأرض لأحد كبار موظفى الدولة أو من طبقة السيناتوريين المعفاة من الضريبة ، وفى مقابل ذلك يسمح السيد الجديد للأرض للفلاح بالاستمرار فى زراعة الأرض مقابل خدمات والتزامات أقل وطأة من الضريبة الحكومية ، وبالتدريج ضاعت الأرض على جماعات كثيرة من الفلاحين فتحولوا إلى معدمين تماماً .كذلك عندما نقص عدد العبيد بالإمبراطورية الرومانية قلت الأيدى العاملة فى فلاحة الأرض ، واضطر السادة من أصحاب الأراضى الشاسعة إلى السماح لبعض الفلاحين بزراعة شرائط من أرض السيادة المهجورة مقابل أجر هزيل أو جزء من المحصول ، وقد عرف هؤلاء باسم « المعمرين » (Coloni) وهى النواة الأولى لجماعة الأقنان (Serfs) فى العصور الوسطى .

هذا وقد عرف الرومان منذ العصر الجمهورى نظاماً عرف باسم « الولاية » أو « الظهيرة » (Patronage) بمعنى أنه يحق للأعيان من طبقة الباتريكيان أن يفرضوا حمايتهم على أفراد من المجتمع الأقل درجة ، بحيث يصبح الفرد الذى تبسط عليه تلك الحماية « وليا » (Cliens) لهذا السيد أو ذاك . وكان السيد الحامى يتولى الدفاع عن أوليائه أمام المحاكم ، ويرعى مصالحهم الأخرى مقابل قيام هؤلاء بأداء خدمات معينة له عند قيامه بالسفر فى مهمة خارج دائرته. ومع مرور الوقت تمتع كبار السادة بحق فرض حمايتهم على ولايات بأكملها ؛ فقد وضع أبناء بيت سكبيو مثلاً كل المقيمين فى روما تحت حمايتهم . كذلك صار من حق النبيل الرومانى الذى يعتق عبداً من عبيده أن يفرض عليه حمايته . وعندما يزداد نفوذ نبيل ما فى الدولة ، يقبل عليه الكثيرون من « الأدنياء » يلتمسون منه أن يفرض عليهم الحماية ، وإذا ما قبل السيد هؤلاء تحت مظلته يصبحون « أهلاً للحماية » (Suscepti) .ولما أن ضربت الفوضى بأطنابها فى ولايات الإمبراطورية الرومانية ، عمد السادة إلى تحويل هؤلاء الذين أصبحوا تحت حمايتهم إلى حرس خاص لهم ، يتنقلون مع السيد أينما ذهب ويقومون بحراسته عندما يقوم بالقاء خطبة عامة فى الميادين ويسهرون أيضاً على حراسته وذويه فى قصره .

وكان هؤلاء الحراس يعيشون على كرم السيد وهباته لهم خاصة بعد أن تأكد للسيد أن هؤلاء أفضل بكثير من الاعتماد على العبيد المسلحين .

وعندما تغلغل الجرمان فى صميم حياة الإمبراطورية الرومانية ، عمد كثير من النبلاء الرومان إلى تأليف حرس خاص لهم من بين هؤلاء الجرمان ، الذين

عرفوا بشدة بأسهم فى القتال . وفى القرن الرابع صار لكل نبيل مرموق حرسه الجرمانى الخاص ، يعيش أفراده فى قصر السيد للسهر على حياته ومصالحه ، ولم يكن هذا النظام غريباً على التقاليد الجرمانية ؛ فقد كان لكل زعيم جرمانى فى موطنه الأصل « عصبة » من الرفاق يحاربون فى صفه ، وكان عليه أن يمدهم بالسلاح ويزودهم بالطعام ويشاركهم فى أقتسام الغنائم التى يحصلون عليها من إغاراتهم ومعاركهم ،وقد عرف هذا النظام باسم « رفاق الزعيم » (Comitatus) .وفى وقت الحرب تسود عل هذه العصبة روح الجماعة ، فيشاركون جميعاً فى الطعام والشراب ، وقد يتخلل فترات السلم نشوب حروب جانبية بين واحدهم والآخر . ويتميز النظام الجرمانى عن النظام الرومانى بأن الأول تسوده روح الزمالة والمشاركة بين السيد والرفاق المحاربين ، كذلك كان فى مقدور أى من شجعان العصبة أن ينسلخ عنها ليكون لنفسه فرقة زمالة مستقلة تقوم بإغاراتها ومناوشاتها لحسابها الخاص . وقد لاحظ المؤرخ الرومانى تاكيتوس (القرن الأول للميلاد) فى كتابه (جرمانيا) بأنه كان يتحتم على كل شاب جرمانى أن ينخرط فى واحدة من تلك الفرق لأن الحرب كان الحرفة الوحيدة للكسب والعيش عند سائر القبائل الجرمانية . وهكذا عندما دخل الجرمان فى خدمة الرومان ، أدخلوا معهم نظام « الزمالة » وكان هذا يتم فى حفل خاص ووفق مراسيم خاصة تمثلت أساساً فى أداء يمين الولاء (Allegentia) حتى يصبح المحاربون الجدد رفاقاً إلى جانب كونهم حرساً خاصاً له .

وإذا وصلنا إلى القرن الخامس نجد كبار نبلاء الرومان والقادة يعتمدون فى

تأكيد نفوذهم السياسى لا على الفصائل الرومانية الملحقة بقيادتهم وإنما على كتائبهم الخاصة من الجرمان ،وهؤلاء الجرمان لا يخدمون الدولة الرومانية بقدر ما يخدمون مصالح سيدهم المباشر ، وقد عرفت هذه الفرق الجرمانية باسم «أصحاب الجرايات المميزة » (Bucellarii) .لقد كان القائد الرومانى أئتيوس، بطل معركة شالون سنة ٤٥١ م ضد جحافل الهون بقيادة أتيللا ، يملك جيشاً خاصاً من هؤلاء الجرمان أصحاب الجرايات المميزة ، ولعل هذا هو السبب الذى أوغر صدر الإمبراطور ڤالنتينان الثالث ضد ائتيوس ، فدبر مؤامرة تم فيها اغتيال ائتيوس ثم استولى الإمبراطور لنفسه على هذه الفرقة الجرمانية ، غير أن الولاء الأصلى لهذه الفرقة كان للقائد الرومانى الذى تم اغتياله ، ولهذا فقد دبر رؤساء هذه الفرقة الجرمانية مؤامرة أغتالوا فيها الإمبراطور ڤالنتنيان بعد وقت قليل من اغتيال سيدهم ائتيوس .

إن هذه الفرق المتبربرة من أصحاب الجرايات هى التى كونت بعد الغزوات الجرمانية للتراب الرومانى القوة المحاربة للدويلات والممالك الجرمانية التى قامت على حطام الإمبراطورية الرومانية . وكانت العادة أن يحصل أفراد هذه الفرق على رواتبهم عن طريق النهب والسلب والغنائم ، غير أن القوط الغربيين عندما دخلوا غالة ثم أسبانيا ابتدعوا نظاماً جديداً بتوزيع الأراضى على أفراد الفرق ، وبذلك يكون العرف القوطى فى توزيع الأرض على الجند المحاربين هو النواة الأولى للنظام الإقطاعى ، وإن كان ذلك العصر لم يخلع على من يتلقى الأرض لفظة « فصل » (Vassalus) الإقطاعية الدلالة[٨٤] .

عندما تحطمت الحكومة المركزية فى أواخر حكم الكارولنجيين فى غالة ،

صارت إدراة شئون الولايات فى أيدى نواب الملك الملقبين بلقب « كونت » (Comes) وهى كلمة مشتقة من لفظة « كوميتاتوس » (Comitatus) التى سبقت الإشارة إليها عند الجماعات الجرمانية فى مواطنها الأصلية ، ثم أخذ هؤلاء الكونتات فى حكم ولايات المملكة نيابة عن الملك ، وفى بعض الأحوال كان الملك يعهد بشئون إقليم كامل لواحد من أفراد البيت الملكى الذى أنعم عليه بلقب « الدوق » (Dux) .وفى بداية الأمر كان هؤلاء النواب الملكيون يحكمون الولايات باسم الملك ، غير أنه عندما ضعفت هيبة التاج راح هؤلاء يحكمون الولايات لصالحهم متجاهلين حقوق حامل التاج . ونلمس ازدياد نفوذ هؤلاء الأدواق والكونتات فى العصر الكارولنجى فى غالة من تلك الاجراءات التى اتخذها شرلمان عندما أصر على تعيين « مبعوثين ملكيين » (Missi Dominici) لمتابعة سير الأمور فى الولايات ولمحاسبة الأدواق والكونتات وضمان بقائهم خاضعين لسلطان التاج . غير أنه مع انهيار الحكومة المركزية وقيام الحروب الأهلية بين أحفاد شرلمان ، ازدادات قبضة الأدواق والكونتات قوة وراحوا يقيمون فى ولاياتهم محاكمة خاصة بهم ، كما اقتنوا الجيوش الخاصة أيضاً ، والأهم من هذا وذاك أنهم أخذوا يقطعون أراض لأفصال أو أتباع لهم مقابل الخدمة العسكرية فى صفوفهم ، وكثيراً ما كانت الحروب تشن ضد حامل التاج نفسه . ولم يملك الملوك الضعاف إلا أن يسلموا بالأمر الواقع ، مكتفين بيمين الولاء للتاج وبتعهد بالمساهمة بعدد من الفرسان فى وقت الحرب وببعض من المال فى عدد من المناسبات ، وبهذا ضرب النظام الإقطاعى بأركانه فى مختلف البلدان الأوربية .

وعندما قامت الملكيات الإقطاعية فى غرب أوربا متمثلة فى آل كابيه فى فرنسا ، وفى خلفاء وليم الفاتح النورماندى فى إنجلترا ،وفى السكسون فى المانيا، أصبح حامل التاج من الناحية النظرية سيداً إقطاعياً على الجميع فى مملكته ، فهو يتربع عل قمة الهرم الإقطاعى ويتلقى التاج فى أغلب الأحيان بالوراثة . على أنه قبل تتويجه ملكاً ، كان هذا أو ذاك يلقب بلقب « السيد » (Domi- nus) شأنه فى هذا شأن سائر السادة الإقطاعيين فى المملكة . غير أن حفل التتويج الملكى ومسح الملك بالزيت المقدس على يد كبير من رجال الدين يجعل منه « ملكاً بإرادة الله » (Rex Dei Gratia) ،وهذا الطقس يخلع على صاحب الجلالة مسحة دينية تضاف إلى صلاحياته العلمانية ، فإذا كان الجالس على العرش شخصاً قوياً فإنه يملك ويحكم أيضاً ؛ فهو الذى يعين كبار المسئولين فى أجهزة الحكم وفى البيوتات الدينية ، وهو الذى يوجه السياسة الخارجية ، ويعلن الحروب ويقود الجيوش ويبرم معاهدات السلام . وللملك أيضاً دخله الخاص من ضياعه الإقطاعية كأى سيد إقطاعى آخر ، إلى جانب دخوله الأخرى من أقصاله المنتشرين فى أقاليم المملكة . ويلاحظ على الملك الإقطاعى أنه كان دائم الترحال هو وحاشيته من قلعة إلى أخرى ، وهو يتحرك فى موكب محمل بالوثائق وبالخزانة الملكية أيضاً . وقد كشفت وثيقة من عصر الملك هنري الأول الإنجليزى (١١٠٠ ـ ١١٣٥ م) عن طبيعة البلاط الملكى المتجول ؛ فهو يجمع رتلاً من الناس يتدرج بين كبار الموظفين حتى الصبية الذين يسهرون على مواقد التدفئة ، ويقف على رأس هذه الحاشية مستشار الملك (Chancellor) وكان يختار عادة من بين كبار رجال الدين ،

ويقف على قدم المساواة مع كبير الأمناء (Dapifer) الذى يشرف على الجناح الملكى (Aula) والمائدة الملكية ، ثم هنالك الموظف المنوط بالإشراف على مخدع الملك (Camerarius) ، ثم يأتى بعد هذا أمين الخزانة الملكية التى كانت توضع فى صندوق خاص فى حجرة نوم الملك ، وهناك موظف يشرف على الشراب والفاكهة (Piacerna) ويساعده فى عمله نفر من حملة الكؤوس وأمناء المخازن وأخصائيون فى أنتقاء الفواكه التى تروق ذوق صاحب الجلالة ، وهناك الكونستابل الذى يشرف على الحرس الملكى ، وخدم الاسطبلات ، ويعينه فى مهامه « المارشال » الذى كان من مهامه الأخرى حفظ النظام . وإلى جانب هؤلاء كان هناك حراس كلاب الصيد ومدربوها ، والمشرفون على تربية الصقور ، إلى جانب نفر من المتمرسين فى صيد الذئاب والوعول والقطط البرية (Catatores) (٨٥) وكان البلاط الملكى أشبه ما يكون بدار الحضانة ، يتدرج فيها الموظف الذكى الماهر حتى يحتل موقعاً مميزاً وكثيراً ما دفع كبار النبلاء إلى تقديم مبالغ طائلة من المال للملك كى يسمح لأبنائهم بشرف الخدمة فى البلاط لاكتساب الخبرة واتقان آداب المعاملة .

لم يكن الملك الاقطاعى فى بداية الأمر أكثر من الأول بين الأقران (Pri- mus inter Pares) من السادة الاقطاعيين من أدواق وكونتات ، ولذا أقام الملوك مجلساً ملكيا (Curia Regis) تألف من أفصال التاج من البارونات وكبار رجال الدين إلى جانب كبار موظفى البلاط وهم المستشار الملكى وكبير الأمناء ورئيس الخزانة . وكان عصر الملكيات الإقطاعية عصر حروب لا تهدأ ، وان كان الملك لا يمارس الحرب كل يوم إلا أنه يستعد لها كل لحظة . ولقد

تلقى البارونات إقطاعياتهم من التاج مقابل الخدمة العسكرية بأنفسهم وبفرسانهم (Servitium Debitum) ، ولم يكن جيش الملك الاقطاعى كبير الحجم ، ففى انجلترا على عهد النورمان لم يكن الجيش يزيد على سبعة الاف من الفرسان . وكان على الفارس أن يؤدى هذه الخدمة القتالية فى صف سيده لمدة أربعين يوما فى العام وقت السلم ، أما فى وقت الحرب فإن هذه المدة تطول لتصل شهرين كاملين ، وإذا ما استمرت الحرب لمدة أطول من الشهرين فإنه لا يجوز للفارس أن يترك ميدان القتال ويتخلى عن الملك بشرط أن يتحمل الملك نفقات الفارس عن خدمة المدة الزائدة . وفى القرن الثالث عشر جد نظام يدفع الفارس بمقتضاه مبلغا محدداً من المال إلى التاج عرف باسم (Scutage) أى «البدل» للأعفاء من الخدمة العسكرية .

إن أوضح ما يميز العلاقات فى المجتمع الاقطاعى هى صلة الدم ، وهى موروث جرمانى الأصل ، وقد عرفت هذه الصلة فى فرنسا باسم (Lineage) أى «التحدر» . ولقد تعززت هذه الصلة عندما التحمت بوشائج الولاء والطاعة. وفى مجتمع كهذا تنمو بطبيعة الحال مشاعر الانتقام وطلب الثأر صيانة لنقطة الدم (Vendetta) التى قد تصيب أحداً من الأنساب . وقد وضحت هذه المشاعر بوجه خاص بين الفريزيين حيث كانت جثة القتيل تبقى دون أن تدفن حتى ينتقم له ذووه من القاتل . وقد ظهرت ملاحم شعبية كثيرة تمجد أعمال الانتقام وطلب الثأر بين عائلات عديدة فى إيطاليا وفرنسا وأسبانيا . وإلى جانب صلة الدم تولدت فى المجتمع الاقطاعى صلة أخرى هامة ، وصفها لسان العصر بعبارة : « فلان من الناس هو رجل السيد فلان » (Homo Suus) ؛ فالكونت « رجل » الملك ، والفارس بدوره « رجل » الكونت . ولفظة «رجل»

فى هذا السياق الوسيط ذات دلالة خاصة ، فهناك وثيقة ترجع إلى القرن الحادى عشر تحمل شكوى بعض الراهبات إلى دوق نورمانديا يطلبن فيها من الدوق أن يتدخل لأن واحداً من البارونات قد أجبر «رجالهن » على الخدمة فى قلاعه دون وجه حق ، وواضح أن تعبير «رجالهن» هنا لا يعنى شيئا بالنسبة للراهبات أكثر مما كان يفهمه العصر من هذا المصطلح(٨٦) . ومن كلمة (Homo) هذه جاءت كلمة (Homage) بمعنى الولاء وهى تعبر عن حقيقة قائمة بالفعل بين طرفين الأول يقبل اداء الخدمة العسكرية والثانى يحتاج إلى هذا الشخص بالذات لأداء هذه الخدمة الهامة . والاثنان بالضرورة من طبقة النبالة ويتم الاتفاق بينهما وفق مراسيم خاصة أبرزها أن يضع الفصل يديه بين يدى السيد (Suzerain) ثم يتلقى منه قبلة العهد والميثاق . والولاء تقليد جرمانى الأصل يرجع إلى لفظة « mannschaft) وقد أدخلت على التقليد فى العصر الكارولنجى بعض الطقوس الدينية كالقسم على الكتب المقدسة أو الأيقونات ، ومن هذا تولد اصطلاح « الطاعة » (Fealty) أو الوفاء (Treue) .

ومراسيم الولاء والطاعة تلك هى التى تقنن العلاقات بين السيد والفصل ، وبها تكتمل عناصر « العقد » الاقطاعى . وكان على الفصل أن يركع أمام السيد ثم يضع يديه داخل يدى السيد ، ثم يقسم له على أن يبقى له وفيا فى كل الأمور وأن يخدمه بكل إخلاص ، مؤكداً له بأنه بذلك يصبح « رجله » (Homo) الذى يتحلى بفضيلة الطاعة . وهنا يطبع السيد قبلة على وجه الفصل ويعلن قبوله « تابعا » له ، ثم يضع بين يديه قطعة من « الطين » (Seisin) علامة على إقطاعه بالأرض .

لقد تولدت هذه النظم بعد انهيار سلطة الحكومة المركزية فى فرنسا ، فى جو محفوف بأخطار التهديد الخارجى المتبربر ، ولم تعد الحكومة قادرة على تقديم الحماية الكافية للناس ، وباتت العائلة عاجزة عن حماية أبنائها من غائلة الزمن. ولذا فإن كل فرد بات يحتاج إلى من يبسط عليه جناح الحماية ، وحتى الأقوياء أصبحوا هم أيضا فى حاجة ماسة إلى أتباع اشداء يشدون بسواعدهم وسيوفهم من أزرهم . ولم يكن هؤلاء القوم وهم يقيمون تلك العلاقات التى أملتها الظروف القاسية يخططون لنظام تصوروه مسبقا . ولذا فإن الاجتهاد فى البحث عن جذور الاقطاع عند الرومان أو الجرمان ،وإن كان يفيد فى القاء بعض الضوء على تلك العلاقات ، لا يكفى لشرح ظاهرة الاقطاع التى لابد من التأكيد على أنها من املاء الظروف قبل كل شىء ، ولعل المثل القائل بأن الناس يشبهون أزمانهم أكثر من شبههم بآبائهم [٨٧] يصدق هنا تماماً .

نحن إذن أمام مجتمع عجزت فيه الحكومة المركزية والعائلة عن تقديم ضمانات بالحماية للفرد ،وفى تلك الظروف العصيبة انهارت روابط الانتماء التقليدية ، ولم يكن هنالك من مخرج لالتماس هذه الضمانات إلا عن طريق التبعية الاقطاعية . ولما أن تعقدت العلاقات الاقطاعية ، وصار بمقدور الفصل أن يتلقى أكثر من إقطاع من أكثر من سيد واحد ، ابتكر أهل العصر نمطا جديداً من التبعية ظنوا أنه أكثر وثوقا من السابق وأطلقوا عليه اصطلاح « التبعية العليا » (Lige Homage) والكلمة مشتقة أصلامن منابع فرنجية ويقابلها فى الألمانية كلمة « Ledig » بمعنى « المطلق » ،وقد ترجمها كتاب الحوليات فى منطقة الراين إلى اللاتينية بمعنى التبعية المطلقة (Absolutus) .وكان لابد من

ظهور هذا المصطلح بمفهومة الجديد ليحسم التعقيد الذى أصاب العلاقات الإقطاعية نتيجة لدخول الفصل فى تبعية لأكثر من سيد واحد بقصد توسيع دائرة حيازته لمساحات أوسع من الأراضى .

وتظهر هذه الكلمة لأول مرة فى مقاطعة آنجو سنة ١٠٦٤ م ، ومنها انتشرت إلى نورماندیا وبرغنديا وبيكاردى . ويرادف هذه الكلمة فى اسبانيا لفظة (Soliu) وإن كان مدلول اللفظ ظل غامضا فى كل من إيطاليا والمانيا لبعض الوقت . وهكذا تحايل أهل العصر على ظاهرة تعدد السادة للفصل الواحد ، فميزوا بين « الولاء المطلق » والولاء العادى خاصة فى أوقات الحروب ، وأصبح الفصل ملزما بالوقوف فى صف سيد واحد فى ميدان القتال وهو ذلك السيد الذى يدين له وحده بالولاء المطلق ، مكتفيا بإرسال بعض المساعدة الرمزية لبقية السادة .

التزم كل من السيد والفصل وفقا للعقد المبرم بين الطرفين ببعض الواجبات والحقوق :

فكان الفصل ملزما بالخدمة العسكرية إلى جوار سيده والعمل على حفظ حياته وأرضه وشرفه ، وفى مقابل هذا تعهد السيد ببسط الحماية على فصله ومعاملة ذويه بالاحترام وقواعد الشرف . كذلك كان الفصل مطالباً بأن يقدم للسيد « عونا » (Taille) فى صورة هدايا فى بعض المناسبات مثل تقليد الابن الاكبر للسيد للفروسية أو عند زواج كبرى بناته مثلا . وعند موت الفصل كان ابنه الأكبر مطالباً بدفع مبلغ محدد من المال للسيد ، وعرف هذا باسم « وفاء الحق » (Relief) ، ذلك لأنه من الناحية النظرية تظل الأرض ملكا للسيد

وتعود إليه عند وفاة الفصل ، ولكى يرثها الابن عن أبيه المتوفى إقطاعاً لابد له من وفاء الحق للسيد لتجديد مراسم العقد الاقطاعى . وفى بداية الأمر لم يكن السيد ملزما بإعطاء تعهد كتابى بالتزاماته نحو أفصاله وإنما كان يكتفى بكلمة الشرف (Parole D'honneur) أمام بعض الشهود ، على أنه فى القرون التالية ظهرت مواثيق مفصلة تعدد واجبات وحقوق الطرفين . وكان على السيد أن يحافظ على حياة الفصل وشرفه حتى بعد وفاة الفصل بمعنى بسط الحياة على آل بيته بعد الوفاة ، كما أنه كان مطالبا بانصاف أفصاله من أى ظلم قد يقع عليهم ولو كان هذا الظلم صادراً من جانب السيد نفسه .

إن نظام السيادة والتبعية هذا كان البديل الجديد للانتماءات العائلية التى تمزقت بفعل عوامل العنف والشغب فى المجتمع الاقطاعى . وقد احيط هذا النظام بقدر وافر من التقدير والإحترام إلى حد أن القانون الأنجلوسكسونى فى القرن العاشر كان ينظر إلى الشخص الذى « لا سيد له » على أنه « خارج على القانون » (Outlaw) . وأخذت الروابط بين السيد والفصل تتوطد حتى غدت أقوى من صلات الدم ذاتها ، وليس أدل على هذا التحول من أن القانون النورماندى كان يعاقب جريمة قتل أحد السادة لواحد من أفصاله بنفس القدر الذى يعاقب به جرائم قتل الأهل . وقد جرت هذه الصلات معها فكرة الثأر لمقتل أى من الطرفين بيد غريبة ، وصارت لفظة الأخذ بالثأر « Ultor » اللاتيينة مرادفة عند أهل العصور الوسطى للفظة « الحمى أو الأنتقام (Mund-poro) الجرمانية الأصل . وصارت تلك السمة قاعدة حتى فى المحاكم ، ففى انجلترا فى القرن الثانى عشر كان لا يجوز التبليغ عن جريمة قتل إلا إذا كان القتيل قريباً أو فصلاً أو سيداً لمن يقدم بالبلاغ ، ولهذه القاعدة جذور جرمانية

نجدها فى ملحمة « بيولف » (Boewulf) فعندما أغتيل هذا الزعيم البطل صـار لأتبـاعـه الحق كل الحق ليس فـقط فى المطالبـة بدمـه ، وإنما أيضـا فى المطالبة بنصيب من « الدية » التى تدفع تعويضا عن هذا القتل (Wergild) .

كـان العقـد الإقطاعى يبرم بين رجلين ينتميـان فى جميع الأحوال إلى الطبقة العليا فى المجتمع ، وإن كانا من درجات متفاوتة فى سلم النبالة . وفى حالة خرق أحد الطرفين للمواد الواردة فى العقـد يصبح الاقطاع « لاغياً » (Forfeit) ، ويتم هذا الإلغاء أيضـا وفق مراسم خاصة . وقد نقل المجتمع الغربى هذا التقليد عن الجرمان أيضا ، فصار « فسخ » العقد يتم فى حضور الطرفين المتخاصمين أمام حشد من الشهود . ويقف الطرف المتظلم ليلقى بخصلة من شعر رأسه أو بخيوط من ردائه على الأرض ، علامة على بطلان العلاقة القديمة . وكثيراً ما كانت هذه اللحظات مثاراً للحرج والكدر والتحدى (Defi) ولا يحسم الأمر عندها إلا بالمبارزة بين الطرفين . وفى حالة ثبوت وقوع الخطأ من جانب الفصل تصادر إقطاعيته وترد للسيد (Commise) ، مثلما فعل الامبراطور فردريك بربروسا الألمانى مع واحد من أعتى أدواقه وهو هنرى الاسد دوق سكسونيا ، ومثلما فعل أيضا فيليب أغسطس ملك فرنسا مع يوحنا المفلس (Lackland) ملك انجلترا . أما إذا اتضح أمام الشهود بأن الخطأ قد وقع من جانب السيد ، فإن للفصل الحق فى رفع مظلمتة أمام محكمة السيد نفسه أو محكمة سيد السيد ، وهكذا تدرجا فى السلم الاقطاعى ووصولا إلى حامل التاج نفسه . وكانت محكمة السيد تتألف من السيد نفسه ومن بقية أفصاله ، وغنى عن البيان أنه كان من صالح الأفصال أن يقفوا فى المحكمة إلى

جانب رفيقهم الفصل المتظلم ضد سيدهم ، حرصاً على مصالحم وخوفاً من وقوع نفس الضرر عليهم ذات يوم .

ورغم هذا كله ، فلابد من الاعتراف بأن هذه المحاكم لم تكن ذات فعاليه تذكر ، ذلك لأن روح العصر من عنف وخشونه أملت على الناس حسم المواقف بالسيف وبالسيف وحده ، ولعل المثل القائل « القوة هى الأحق » (Might is right) يعبر خير تعبير عن روح العصور الوسطى الأوربية .

وفى نهاية الأمر ورغم هذا الوجه القاتم لبعض حالات التوتر بين السيد والفصل ، فإن وثائق العصر ترسم صورة وردية لكثير من العلاقات الحميمة بين السيد والفصل ، فهى نقطة غبطة واعتزاز : فالفصل مرادف للصديق (Amicus) والمفضل إلى النفس (Dru) ، وفى قصيدة للشاعر دون دي ماينس (Doon de Mayence) نطالع أبياتاً تفيض بمشاعر نبيلة من الود الخالص بين الفصل وسيده :

« لو أن سيدى قتل فإنى معه أموت

لو أن سيدى شنق علقونى بجواره

لو أن سيدى سيق إلى المحرقة

دعونى أحتضن معه جمر الحريق السارى

لو أن سيدى يغرق

ففى بطن اليم معه يكون قرارى» (٨٨) .

إن هذه المشاعر الفياضة رغم اضطراب الأوقات وعنف العصر ، سرعان ما

انتقلت من القلاع إلى ساحة القضاء ، فان اختلف الابن مع أبيه أو العكس عولجت القضية من منظور التقاليد الإقطاعية ارتكازاً على فكرة الولاء والطاعة . وقد اتخذ شعراء الطروبادور فى الجنوب الفرنسى من هذه العلاقة الحميمة بين الفصل والسيد خطاباً لدلالات الحب والهيام فى بروفنسال . وقد وافق هذا الاقتباس طبيعة قصص الغرام فى ذلك العصر ، فالمحب الولهان فى أغلب الأحوال كان من طبقة أقل فى سلم النبالة من الطبقة الأعلى التى تنتمى إليها المحبوبة أو « سيدة القلعة » . ولذا فإن شعر الطروبادور يشير إلى المحبوبة بعيدة المنال لا فى صيغة المؤنث وإنما فى صيغة المذكر ، فتخاطب بالقول : « يا سيدى الجميل » (Bel Senhor) بدلا من « سيدتى الجميلة » ،وقد وجدت هذه الروابط طريقها إلى أساليب المجاز والكتابة وأيضا فى الأدب الشعبى والأمثال، فأصبح يقال مثلا « إن فلانا قد أصبح « فصلاً للشيطان » للتدليل على تكريس حياته لفعل الشرور . ولم تسلم الكتابات الدينية والمواعظ من لغة العصر الاقطاعى ، فصرنا نسمع عن « المسيح » كفصل لله الاب ، وفى طقوس العبادة أخذت الصلاة صورة ضم اليدين فى خشوع تام مثلما كان يفعل الفصل بين يدى سيده وقت أداء يمين الولاء والطاعة .

هذا عن الجانب المشرق فى وجه العملة ، أما الوجه الآخر فإنه يصور الحروب الدامية التى قامت بين الأفصال وسادتهم ، وإن كان هذا لايعنى أن جميع الأفصال كانوا يشنون الحروب على قلاع سادتهم ؛ ونقرأ فى آداب العصر أن الجميع قد أقسموا يمين الولاء ـ البعض كانوا للقسم أوفياء ، ولكن البعض الآخر تنكروا جاحدين لما أقسموا عليه[٨٩] . إن هذه المعانى تفصح عن روح العصر وعن الهوة السحيقة بين النظرية والواقع ، وهنا يكمن التناقض فى

مختلف نظم العصور الوسطى ومن بينها نظام الاقطاع .

ولفهم أسباب التدهور الذى أصاب العلاقة بين السيد والفصل يجب أن نتذكر أن نظام التبعية فى صورته الأولى كان يحتم على الاتباع الالتفاف حول زعيمهم فى قلعته ، حيث كانوا يحيطون السيد (Herr) بمشاعر الاحترام فهو قائدهم ومورد اقطاعاتهم ، وكان الأتباع بالنسبة للسيد بمثابة الرفاق (Gasindi) أو الأبناء (Vassi) أو الذين يعتمدون عليه فى مورد رزقهم وأخبازهم (Hlafoetan) ولكن تبدل الظروف وتعقد الأحوال وازدياد المشاجرات أدى بالأتباع إلى أن يهجروا قلعة السيد لكى يتمكن كل منهم من السهر على حماية إقطاعه الأصغر حجما ، خاصة وقت الغزوات النورماندية والهنغارية . وأمام هذه التحولات المتتابعة بدأت بعض مصالح السادة تتعارض مع مصالح الأفصال ، فكان لا مفر من وقوع الصدام بين الطرفين . يضاف إلى هذا أن نظام توريث الإقطاعيات لأبناء الأفصال المتوفين قد ساهم فى غرس الأحقاد والضغائن فى نفوس الطرفين . ولم يكن الوريث لإقطاعية ما يقوم باداء مراسم الولاء والطاعة للسيد إلا لكى يضمن الحفاظ على رقعة الأرض التى كانت بيد أبيه بغض النظر عن مشاعره الحقيقة تجاه هذا السيد . وكان على الوريث أن يؤدى نفس الالتزامات التى كان يؤديها والده للسيد ، وهى فى أغلبها التزامات عسكرية فرسانية قد لا يتقنها أو يرغب فيها الابن بنفس القدر الذى كان يوفيها به الأب المتوفى من قبل . ومن هنا فإن الشعور بحرية الأختيار، وهو من المفاهيم التى أخذت تسرى فى مختلف الأوساط مع ازدياد التعليم وازدهار الجامعات ، قد أحبط عند الأبناء من ورثة الأراضى الإقطاعية .

ولذا فإن عدداً كبيراً من الأفصال قد اشتبكوا مع سادتهم واستولوا على الأراضى منهم بقوة السيف .

كانت النبالة فى عرف القبائل الجرمانية تتمتع بامتيازات خاصة ، وأبرز هذه الامتيازات الحق فى تعويض كبير القيمة فى حالة وقوع ضرر بهم (Wer-gild) وتشير الوثائق الانجلوسكسونية إلى أبناء هذه الطبقة بأنهم « ولدوا أعزاء » (edelinge) دون سائر الناس . على أنه عندما أقام الجرمان ممالكهم على حطام الامبراطورية الرومانية لم تعد علامات السمو فى المجتمع تقوم على عامل الوراثة وإنما على قدر ما يملكه الفرد من أراض ونفوذ .وليس أدل على سقوط عامل الوراثة فى ارتباطه بالنبالة من أنه لا يمكن أن نتتبع شجرة أنساب أهم الاسر الحاكمة فى أوربا إلى عهود بعيدة فى الماضى ، فالجد الاكبر لعائلة ولف (Welfs) التى لعبت دوراً كبيراً فى تاريخ الفرنجة الغربيين كان واحداً من الكونتات التابعين لدوقية باڤاريا وهو الذى تزوجت إبنته من الملك لويس التقى ابن شرلمان ؛ كما أن نسب كونتات تولوز لم يتضح إلا فى عهد لويس التقى أيضا ؛ أما ماركيزات إڤريا الذين صاروا فيما بعد ملوكا على ايطاليا فقد ظهروا على مسرح الأحداث فى عهد الملك شارل الأصلع ؛ وأما فرع لودلڤنج أدواق سكسونيا ثم ملوك المانيا لبعض الوقت فقد ظهروا على مسرح الأحداث فى عهد الملك لويس الطفل ؛ أما اسرة البوربون فقد انبثقوا من آل كاپيه وهم أعرق الاسر فى أوروبا ، وإن كنا لا نعرف شيئا عن الجد الأكبر لكاپيه سوى أنه كان يلقب بروبرت القوى وأنه قتل فى غالة سنة ٨٦٦ م ، وإن كان البعض يرجعه إلى أصول سكسونية ، وفى إيطاليا ظهرت عائلة ألتونى (Altoni) وهم

أبناء لزعيم يدعى سجفريد من لوكا الذى توفى سنة ٩٥٠ م ، ولا يمكن تعقب اثرهم قبل هذا التاريخ . هذا وقد شهد منتصف القرن العاشر ظهور اسرة سوابية قوية هى اسرة بانبرج التى أسست دولة النمسا(٩٠) .

هذا عن أكثر البيوتات الأوربية عراقة فى أوربا ، أما إذا أردنا أن نتتبع أصول عائلات الطبقات الاقطاعية الأقل شأنا ، فإننا لن نعثر على شىء يفيد ، ويمكن القول أن النبالة بمفهومها القديم سواء عند الرومان أو الجرمان لم تعد واردة فى عصر الاقطاع ، وصار النبيل هو الشخص الذى لا يوجد بين أجداده من كان خاضعاً للعبودية ، وهو فى نفس الوقت الذى يملك مساحات شاسعة من الأرض الزراعية ، إلى جانب مقدرته على حمل السلاح وامتطاء صهوة الخيل كفارس مسلح بالسيف والحربة والخوذة والدرع الثلاثى أو المستدير .

وكلمة فارس ترادف كلمة « مقاتل » (Miles) وهى ايضا مرادفة لكلمة فصل ، وقد أعتبر الفرسان مهمة القتال أهم بكثير لمجتمع الأقطاع حتى من واجب الصلاة . وكان الفارس يفخر بقوته الجسمية ، وبعضلاته المفتولة ، وهو يكتسب هذه اللياقة البدنية بالمران منذ نعومة الأظفار فى احدى قلاع السادة ، وتصوره الوثائق فارعا فى الطول ، منبسط الأطراف ، عريض المنكبين ، صلب العظام ، متناسق الأعضاء ، مزدانا باثار جراح السيوف على جسده ، وهو فوق كل هذا أكول نهم يتمتع بشهية الخيل : « يا إلهى إنه من طرازك العفى ـ أنه يبتلع فخذ لحم كامل ولا يكتفى .. وهو يشرب فى رشفتين دنا من الشراب .. وياويل من يميل عليه بترسه(٩١).

على أنه كان مطلوبا من الفارس من الناحية النظرية أن يتحلى إلى جانب

فضيلة الشجاعة واحتقار الموت بفضائل معنوية من قبيل الحرص على الشرف والحفاظ على مشاعر الولاء والمبادرة للتطوع فى الحروب « المقدسة » والسعى لاعلاء اسم سيدته المحبوبة .

وقد أضافت المؤسسات الدينية مهمازا جديداً هو الوعد بالفردوس لمن يموت فى سبيل قضية دينية . وبهذه الطاقة القتالية المشاغبة الكامنة فى أجسام أشبه ما تكون بأجسام حيوانات الغابة لجأ ملوك الاقطاع والبابوات إلى إطلاق الفرسان الأوربيين على أراضى السلاف والجنوب الايطالى وجزيرة صقلية واسبانيا وعلى الأراضى البيزنطية وآسيا الصغرى ثم فى حروب العدوان الصليبى على الأراضى المقدسة . فكانت هذه الحروب سبيلاً من سبل امتصاص الطاقات القتالية المدمرة لدى هؤلاء الفرسان . كذلك لجأت الكنيسة فى الغرب الفرنجى إلى فرض أيام معينة يحرم فيها القتال وعرفت هذه الأيام باسم « هدنة الله » (Turga Dei) ، وعرفت أيام أخرى باسم « سلام الله » (Pax Dei) ، وهى أيام الأعياد والمناسبات الدينية المختلفة . والحق أن فرسان القرن الحادى عشر كانوا على درجة بالغة من الخشونة وفظاعة الطبع؛ فهم يشربون حتى الثمالة ، وكانت قلاعهم غاصة بالنساء الفاسدات . وإذا خسر أحدهم جولة فى إحدى مباريات الشطرنج مثلا فقد يبارز خصمه أو ضيفة حتى يجرحه ، وإذا تباطىء الخادم فى إحضار كأس من الشراب فقد يرشقه برمح نافذ ، وإذا ضايقته زوجته بالثرثرة فهو يضربها فى قسوة بالغة . كذلك كان الفارس يحتقر أبناء الطبقات الدنيا من الفلاحين إحتقاراً شديداً ، ولا ينظر إليهم كآدميين مثله « لأنهم لا يجيدون فن القتال » (Imbellis) ، وهو فى نفس الوقت وبنفس القدر يزدرى

طبقة التجار لأنهم يجمعون ثرواتهم من مهنة شبيهة بالربا .

كان الفارس يسكن فى قلعة حصينة تحيط بها عن قرب أكواخ الفلاحين العاملين على أرض الضيعة . وكانت القلعة فى أول الأمر على شكل برج خشبى يضم حجرة كبيرة للنوم فى الطابق الأول ، بينما خصص الطابق الأرضى كمخزن للمؤن . وحول البرج يوجد الخندق الذى يحيط به من الخارج سور ترابى يليه خندق آخر . أما المطبخ فكان يقع فى حيز خارج بناية البرج خوفا من اندلاع الحرائق . وبمرور الوقت لجأ الفرسان إلى إستخدام الحجارة كمادة بناء لقلاعهم بدلا من الخشب . وكان البرنامج اليومى للفارس يبدأ فى الصباح الباكر بالرياضة والصيد فى الغابات . وقد أعد الفرسان إعداداً خاصاً بقصد تلقينهم فى قلاع السادة قواعد السلوك وأدب المعاملة (Courtoi-sie) وهى كلمة مشتقة من لفظة (Court) أى البلاط الخاص بالسيد الاقطاعى والذى كان بمثابة المدرسة الأولى التى يتلقى فيها الشباب من أبناء تلك الطبقة أساليب التعامل وسلوكيات النبالة . وقد ولدت هذه الكلمة فى بلاط سادة الجنوب الفرنسى وفى منطقة نهر الميز ، وهى كلمة فرنسية الأصل . وقد نقل الايطاليون هذه الكلمة عن الفرنسيين فى أوائل القرن الحادى عشر ثم انتقلت ، بعد ذلك إلى المانيا عن طريق أقليم هينولت وبلدان بربانت وفلاندرز وعرفت عند الألمان باسم (Hofklich). هذا وقد وفد كثيرون من أبناء النبالة الألمانية على القلاع الفرنسية ليتعلموا تلك الآداب السلوكية ، وقد لعبت مدن شارترز وباريس دوراً هاماً فى تجسيد معانى السلوك الفروسى المهذب لدى أبناء الطبقات العليا . ويرتبط بهذا السلوك موقف هذه الطبقة تجاه المرأة النبيلة ؛ فلقد

ظهرت فى فرنسا طبقة من سيدات « الصالونات » عرفن بعشقهن للأدب والشعر والفن وملاحم الفروسية ، وأصبحت شهرة الفارس القتالية والسلوكية تحدد فى تلك الصالونات . ولقد حرص مشاهير الفرسان على إثبات جدارتهم وتأكيد قوتهم حتى تذكر أسماؤهم على ألسنة رواد هذه اللقاءات النسائية مقرونة بالأعجاب والاحترام . ومن هنا كان أهتمام الفرسان بالأدب والشعر ، وخاصة الغزلى منه . ورائد تلك الحركة هو الدوق وليم التاسع صاحب اقطانيا (ت ١١٢٧ م) وكان عاشقاً ومشجعاً للشعر والغناء والطرب .

ثم جاءت مارى كونتيسة شامبانى (١١٤٥ ـ ١١٩٨ م) وهى إبنة لويس السابع ملك فرنسا من زوجته إليانور وريثة أقطانيا وصاحبة السجل الحافل من المغامرات وقد جسدت فى شخصها وحاشيتها أفانين الشعر الطروبادورى وقصص الغرام ونقلت هذا كله معها إلى عاصمة زوجها فى مدينة تروى (Troyes) .

ومن هذه البلدة الأخيرة شاعت ملاحم البطولة الفرسانية وقصص الغرام لتعم كل أرجاء أوربا الغربية . وقد أنجبت تروى شاعراً مرموقاً هو كريتيان الذى نظم العديد من قصائد البطولة والغرام والذى كان ينشد قصيده على مسامع الفرسان وسيدات قلوبهم دون خجل أو تورية . ولقد عرف بلاط مارى دى شامبانى ألوانا من الحب العذرى وغير العذرى جميعاً ، وأصبح الفارس الذى ليست له علاقة غرامية بواحدة من سيدات الصالونات ليس أهلاً للقب الذى يحمل شرفه على نصل سيفه . وقد لعبت المرأة الفرنسية دوراً كبيراً فى إشعال نار المبارزات بالسيف ، كما كان لها دور فى إطلاق الصقور فى رياضة الصيد، وهى أيضا ضيفة الشرف بين المشاهدين فى حلبة المبارزة . وباسم هذه المحبوبة أو

تلك كان الفرسان الشجعان يحطمون رماحهم وقسيهم ثم قلوبهم أيضاً !

لقد ساهمت موجة الطروبادور فى التخفيف من غلظة الفرسان فى فرنسا ، ويروى أن فارسا جباراً اسمه وليم مارشال قد طلب من بناته وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن يسمعنه شيئا من شجى الألحان قبل أن تفيض روحه . وكثيراً ما هلك فرسان مكلفون بالحراسة على حين غفلة منهم وهم يستمعون بشغف إلى بعض الأغانى المحببة إلى نفوسهم . ولقد عرف العصر كثيرين من أبناء هذه الطبقة الذين انغمسوا فى الملذات ، وإن كانت الملاحم تضع المسئولية فى ذلك على «ضعف النساء» وليس على نزوات الفرسان . كذلك لم يكن بعض السادة فى القلاع يجدون حرجاً فى أن يقدموا لضيف مرموق احدى الفتيات الجميلات لمؤانسته وإدخال البهجة على قلبه(٩٢) . وواقع الأمر أن مجتمعا مثل هذا المجتمع الذى كانت الزيجات فيه تتم وفق المصلحة أو الصفقة ، لم يكن يعرف كثيراً الزواج الناجح ، لذا فإن البديل لهذه العلاقة الزوجية « الكريهة » كان فى اتخاذ المحظيات والخليلات ، ونحن نعلم أن قلاعاً كثيرة كانت مليئة بالأبناء اللقطاء ، كما أن بعض أغانى الطروبادور تخاطب الغرائز الفجة والحب الحسى الذى قيل أنه كان يتم حتى فى مخازن السلاح بل وفى حظائر الخيول.

على أنه إلى جانب الحب الحسى ظهرت أشعار كثيرة فى الحب «العذرى» وهو علاقة لا تمت بصلة إلى العلاقات الزوجية ، لأن المحبوبة هنا سيدة متزوجة ولن يكون العاشق لها زوجاً فى يوم من الأيام . وهذا الحب «الأفلاطونى» ينصب دوما على سيدة من الطبقات الأعلى فى سلم النبالة ، وهو حب من النوع « المحرم » حيث تظل إمكانية اقامة علاقة غرامية حسية

مجرد سراب مستحيل . وهذه المحاذير التى تحول دون تحقق هذا الحب هى العوامل التى تفجر عند الشعراء صوراً من الوله والصبابة ودفوف الأحزان عند شعراء الطروبادور . وعندما يشحب الأمل فى تحقيق هذا الحلم ، يتولد فى النفس إحساس بلذة هذا « الحلم المستحيل » ، وهكذا اتخذت هذه العلاقة بين العاشق الولهان والمحبوب بعيد المنال أبعاداً أشبه ما تكون بتلك العلاقة بين الفصل وسيده الأقطاعى . وعلى العموم فإن شعر الطروبادور فى كليته كان يحتقر العلاقة الحسية ، وهو فى أنقى حالاته شبيه بعلاقة آدم بحواء قبل أن يستلقيا جنبا إلى جنب تحت ظلال الشجرة المحرمة الثمرة فى جنة عدن . وقد انتقل هذا الشعر الرومانسى من فرنسا إلى ألمانيا حيث عرف باسم (Minnen-sang) .

بقى أن نذكر عن هذه الطبقة أن بعض كبار الفرسان أو البارونات كانوا يتمتعون بثراء فاحش ؛ فقد أصدر أحد السادة فى منطقة الليموزين بفرنسا أمره بأن تحرث أرضه ثم تبذر بقطع من عملة الفضة ، كما أن سيداً آخر أمر بإعداد الطعام لضيوفه على نار الشموع ، بينما قام سيد ثالث بإحراق ثلاثين من دوابه دفعة واحدة .

وهذا الثراء الفاحش كان بطبيعة الحال من عرق ودم رقيق الأرض من جماعة الأقنان الذين ما كانوا يجدون ما يسد الرمق . وفى منتصف القرن الثانى عشر ظهر اتجاه نحو صبغ أفراد طبقة الارستقراطية المحاربة بصبغة قانونية بهدف تثبيت حق الوراثة فى عروق أبناء هذه الطبقة ،ومنذ ذلك التاريخ ظهرت كلمة «جنتلمان » (Gentile homme) أى شخص من « جنس » (Gens) نبيل عن طريق الوراثة . وكان هذا الصك الإجتماعى يتم وفق طقوس خاصة تقام

عندما يتخرج الشاب النبيل من تدريبه ليقلد فارساً . وجدير بالذكر أن أبناء هذه الطبقة كانوا يستخفون كثيرا بالطبقة البورجوازية من أثرياء المدن الجديدة وغالبيتهم من التجار ، ولذا فإن البارونات لم يتورعوا عن قطع الطريق عليهم وتجريدهم من تجارتهم التى يكدسون من ورائها ثروات دون عناء حرب أو قتال .

هذا عن السادة ، أما عالم العبيد فهو مختلف تماماً ؛ ففالح الأرض فى العصور الوسطى له عدة أسماء : فهو قن رقيق (Serf) ، وهى كلمة مشتقة من كلمة « عبد » (Servus) اللاتينية ، وهو أيضا « بوروليتار » (Proletarius) وهى كلمة من جذور لاتينية أيضا وتعنى ذلك الشخص الذى ينتمى إلى الطبقات الدنيا فى المجتمع ، وهو ايضا « ڤلين » (Villein) بمعنى الأجير المرتبط بزراعة أرض الضيعة ولا يبرحها أبداً . وكان الأقنان يؤلفون الغالبية العظمى من سكان غرب أوربا فى عصر الأقطاع ، وقد ارتبطوا بالأرض الزراعية فى القرى والكفور والضياع (manors). وكانت كل قرية أو ضيعة تخضع لسيد واحد ، ويحتجز السيد الجزء الأكبر من الأرض لتزرع لصالحه ، وهو الجزء الذى عرف فى مصطلح العصر باسم « الدومين » (Demense) ، بينما قسم الجزء الباقى إلى شرائح صغيرة ومبعثرة يقوم الفلاحون بزراعتها لحسابهم مقابل خدمات والتزامات ثقيلة وضرائب عينية أو مادية ، غالبا ما كان الفلاح لا يجد بعد سدادها للسيد ما يسد رمقه وأطفاله . غير أن القن لم يكن عبدا بالمعنى الذى نعرفه عن العصر اليونانى ـ الرومانى ، ولكنه فى نفس الوقت لم يكن أيضا فى عداد الأحرار ، فهو بين بين بمعنى أنه لايباع ولا يشترى ، وإن كان لايسمح له بحمل السلاح أو أن يمثل أمام المحاكم كواحد من

المحلفين . وكان القن رهن إشارة سيد الأرض ، ولا يمكنه أن يبرح تلك الأرض فهو أشبه ما يكون بعبد للأرض نفسها . وفى مقابل استغلال شريط ضيق على هامش أرض الضيعة كانت على القن التزامات غاية فى القسوة : فعليه ضريبة سنوية عن هذا الشريط ، وعليه ضريبة الرأس (Cens) وعليه ضريبة العشور للكنيسة (Dime) ، وعليه العمل سخرة ثلاثة أيام اسبوعيا فى أرض السيد (Corvée) ، كما أنه يدفع ضريبة لاستخدام طواحين ومعاصر السيد ، وأخرى لكى يسمح له بعبور قنطرة الناحية . ومن الأمور المفجعة أنه كان على القن أن يتنازل عن الليلة الأولى من زواجه لمتعة السيد (ius primae noctis) ، وقد ظل هذا الجرم معمولاً به فى جهات مثل بفاريا حتى القرن الثامن عشر .

وبينما يتلقى الفرسان إقطاعياتهم من السادة الأعلى برمز السيف فى حفل مهيب، كان يسمح للقن بزراعة الأرض الهزيلة على الأطراف وفق رمز يدل على المذلة والمهانة وهو رمز « الشوكة والسوط » (Furcam et Flagellum). ومن الناحية النظرية كان على القن أن يؤدى للسيد كل ما يؤمر به ، وليس له أن يعلم فى يومه شيئاً عن أمر غده . ويبين لنا « الكتاب الأسود » لاقليم بيتربوره بانجلترا الذى ظهر ما بين سنتى ١١٢٥ ـ ١١٢٨ م الواجبات التى كانت على القن فى تلك الناحية تجاه السيد ، وهى تتضمن الخدمة فى الأرض على مدار فصول السنة ؛ ودفع ضريبة عن شريط الأرض الذى يفلحه لصالحه ، وتقديم خمسين دجاجة وستمائة وأربعين بيضة ، والعمل فى المرعى لرعاية حيوانات السيد ، وتقديم حمل من الخشب والمشاركة فى غسل وجز صوف الأغنام[٩٣]. وكان على زوجة القن وأولاده الصغار أن يعاونوه فى أداء ما يطلب منه من خدمات للسيد .

ولقد وجد عدد قليل من الفلاحين الذين كانوا أقل تعاسة من الأقنان ، وهؤلاء إما أنهم كانوا يعملون على وسايا تابعة للتاج مباشرة (Terra Regis) أو أنهم كانوا يزرعون شريحة من الأرض دون تبعية واضحة لسيد بعينه . وقد أحتفظت هذه الفئة القليلة من الفلاحين بشيء من الحرية ولكن فى مكابدة شديدة . وفى الطرف الآخر كانت هناك فئة أشد تعاسة من الأقنان ، عرفوا أحيانا باسم « البورداري » (Bordarii) وأحيانا أخرى باسم « كوتارى » (Cottari) وهؤلاء هم أرباب الأكواخ التعسة التى كانت شبيهة بحظائر الحيوانات ، والذين كانوا يقتاتون على ما يتساقط من أيدى بعض الفلاحين الأحرار فى مواسم الحصاد . وأبناء هذه الفئة من المعدمين يؤجرون أنفسهم لمن يقدم لهم ما يسد أودهم فحسب . وإلى جانب هؤلاء وأولاء كانت القرية الأقطاعية تعرف فئات من رعاة الأبقار (vallarii) ، ورعاة الأغنام (Bercarii) ، ورعاة الخنازير (Porcarii) هذا إلى جانب حداد القرية والنجار .

ولما أن ازدادت الأخطار الخارجية فى شكل الغزوات المتبربرة المتأخرة ، ولما أن ضعف نفود الملوك واشتعلت الحروب الأقطاعية ، اضطر الفلاحون الأحرار الذين كانوا يفلحون أرض التاج إلى الخضوع لضغوط وسطوة السادة المحليين ، وتحولوا إلى أقنان بنفس الالتزامات التى سبقت الاشارة إليها .

وعندما أكتمل الهرم الإقطاعى فى القرن الحادى عشر ، انقسم الناس فى غرب أوربا إلى قسمين واضحين : الحر وغير الحر . والحر هو الذى يملك أرضا ويحمل سلاحاً وله « وضعية » إجتماعية (Status) ؛ أما غير الحر فليس له وضعية شرعية واضحة ، فهو لا يجلس فى المحاكم ولا يعتد بشهادته

ولايسمح له بحمل السلاح ، وعليه أن يدفع ضريبة الرأس ‹Chevage › ولا يحق له الزواج من امرأة حرة ، وهو مربوط بالأرض لا يبرحها . وقد صار للسادة حينذاك الحق فى شنق الأقنان على بوابات قلاعهم ، ولذا فإن السادة كانوا يعلقون على مداخل قلاعهم عدداً من المشانق دلالة على نفوذهم وسلطانهم .

النشاط الثانى إلى جانب الفلاحة فى القرية هو الرعى ، وكانت الأبقار والأغنام والخنازير تعتمد فى مرعاها على نطاقات من البرارى والأحراش وأطراف الغابات . ولم يكن حق المرعى مطلقاً للفلاحين ، وإنما كان يحدد لكل فلاح عدد الأبقار والأغنام التى يحق لها المرعى بقدر ما يفلحه هذا الفلاح أو ذاك من مساحة من أرض السيد ، إلى جانب دفع ضريبة عن هذا المرعى .

وبعد موسم الحصاد كانت تزال الاسوار المحيطة بالأرض الزراعية لكى تطلق عليها الأبقار والأغنام للرعى حتى يحل موسم إعداد الأرض للنوبة الزراعية المقبلة .كذلك كانت كل قرية تبقى على نطاق من الأرض يخصص للحشائش التى تجمع وتخزن ، وبعدها يسمح لحيوانات القرية بالمرعى على بقايا وجذور تلك الأعشاب ،وكان هذا يتم بين أغسطس وفبراير من كل عام ، وكان على جميع فلاحى القرية أن يدفعوا للسيد ضريبة مقابل ذلك عرفت باسم « حق العُشب » (Herbogium) .ولما أن بدأ استصلاح الأراضى على حساب الغابات والمرعى ، باتت الثروة الحيوانية فى غرب أوربا مهددة بالخطر ،وقد وضحت الخطورة بشكل صارخ فى انجلترا فى القرن الثانى عشر ؛ فنحن نعلم أن مساحة قرابة ١٥,٠٠٠ فداناً من المرعى فى مقاطعة لنكولن قد حولت دفعة واحدة إلى أرض زراعية وقد نتج عن هذا التحول ذعر شديد ، وأخذت الأبقار

والأغنام تهيم على وجهها بل وتعتدى على بعض الأراضى الزراعية . الأهم من هذا أن معدل ما أصبحت تدره البقرة من لبن على مدى أربعة وعشرين أسبوعاً قد تدنى ليحقق ثلاثة شلنات وست بنسات فقط(٩٤) .

وقد كانت الأغنام بوجه خاص مصدر رزق طيب للفلاح ، إذ أن تربية مائة منها يضمن ربحا سنويا قدر وقتها بجنيه كامل ، كما أن جلود الأغنام كانت سلعة مطلوبة لاستخدامها فى صنع رقائق الكتابة (Parchment) ، كذلك عرف عن أهل العصور الوسطى حبهم لجبن الضأن . وقد قدر كاتب من القرن الثالث عشر ما تدره عشرون من الأغنام بنفس القدر الذى تدره بقرتان حلوبتان وهوما يعادل ٢٥٦ رطلاً من الجبن ونصف دن من الزبد فى الأسبوع الواحد(٩٥) . وقد زودتنا سجلات العصر باسعار رؤوس الثروة الحيوانية : فقد كان الثور يباع بثلاثة شلنات ،ورأس الضأن بأربعة بنسات ، والبقرة بشلن واحد وثمانية بنسات ، والخنزير بثمانية بنسات .

وفى أواخر القرن الثانى عشر عندما أزيلت الغابات والمراعى لزيادة الرقعة الزراعية ، شحت المراعى فشهدت الأسواق أرتفاعا فى أسعار الثروة الحيوانية بما يعادل نصف الأسعار السابقة .

وفى بداية عصر الاقطاع كان إنتاج القرية يستهلك محلياً ، ولكن مع تطور الأحوال والأوقات وزيادة الرقعة الزراعية عرفت منتجات طريقها إلى أسواق المدن المجاورة . وقد فرض السادة على الفلاحين ضريبة لنقل بضاعتهم على عربات خاصة عبر طرق وعرة إلى أسواق المدينة . وكان على القرويين بين الحين والآخر امداد السادة وحامل التاج بمنتجات القرية إلى أماكن نائية جداً ؛ فمثلاً

كان على بعض القرى فى سنة ١١٧١ م أن ترسل ثلاثة آلاف شحنة من القمح إلى أيرلنده حيث كان الملك الإنجليزى يحارب فى هذه الجزيرة ، وفى سنة ١١٨٩ م فرض على قرية كنت (Kent) أن تمد القصر الملكى بعدد ١٩٠٠ دجاجة بمناسبة حفل التتويج الملكى ، وفى سنة ١٢٠٣ م فرض على عدد معين من القرى أن تشحن عدد ٢٢١٧ رأساً من الخنزير إلى بلدة روين (Rouen) فى ولاية نورماندیا حيث كانت كتائب الملك الانجليزى تحارب ضد الفرنسيين .

كان سيد القرية الإقطاعى يعهد بإدراة شئونها إلى موظف عرف باسم «بيلف» (Bailiff) ، وكانت مهمتة ضمان تحصيل جبايات الضرائب من الفلاحين ورئاسة محكمة القرية ، وقد وردت صورة هذا الموظف كريهة وقميئة فهو متسلط قاس فى معاملاته مع أهل القرية جميعا . وإلى جانبه وجد موظف آخر أقل شأنا ، مهمته متابعة سير العمل عن قرب .وقد احتفظ السيد فى قلعته بسجلات دقيقة عن حسابات الضيعة ، ومنها نتعرف على قيمة الإيجارات والضرائب ومعدل الإنتاج السنوى للفدان ، ودخل محكمة السيد ومصروفات المبانى والترميمات ، وتكلفة حفر الخنادق وبناء الأسوار ،وكذلك أعداد قطعان الثروة الحيوانية .

وللسيد محكمة يحاكم أمامها الفلاحين ، وهى تعقد مرة كل أسبوعين ، ومن خلالها ينزل السيد العقاب بأى فلاح يتحرش بالمرعى أو الغابات أوالثروة الحيوانية ،وقد خول السيد لنفسه الحق فى الفصل فى المخالفات التى تعكر صفو « سلام التاج » . ثم أخذت صلاحيات السيد تزداد حتى صارت سيفا مسلطا

على رقاب الفلاحين ، وأعطى نفسه الحق فى تنفيذ أحكامه بنفسه ومن بينها حق الشنق لمن يضبط من الفلاحين متلبسا بالسرقة (Infangenetheof) . كذلك جعل السيد من نفسه صاحب الحق فى محاكمة حالات الغش فى الجعة أو التلاعب بأسعارها .

وإلى جانب هذه المحكمة كان لكل مقاطعة محكمة كبرى عرفت باسم «مجلس المائة » وكان يمثل القرية فيها « العريف » (Reeve) وكاهن القرية وأربعة من حسنى السمعة . وفى حالة وقوع جريمة قتل فى القرية ، كان على الأهالى أن يبلغوا عنها وأن يقبضوا على الجانى بأنفسهم لتقديمه للمحاكمه . وإذا فشل الأهالى فى ذلك يتعرضون لطائلة قانون الحفاظ على سلام الملك ، وفى هذه الحالة لم يكن العقاب يحل على فلاح بعينه وإنما كان العقاب جماعيا على أهل القرية جميعا فى صورة غرامات جماعية تذهب لخزانة السيد وأحياناً لخزانة التاج[٩٦] .

من الشخصيات الجديرة بالذكر فى القرية كاهنها ، ففى كنيسة القرية التى تخضع هى والكاهن للسيد ، وفى صحن هذا البيت الدينى كان الفلاحون يجتمعون أيام الآحاد للصلاة وفى أيام الأعياد للأحتفال ،وفى أيام المواسم السنوية ،وكانت الأسواق أحيانا تقام فى رحاب كنيسة القرية . وقد عرف عن كاهن القرية أنه كان ضحل الثقافة بشكل يدعو إلى الأسى ، وقد قيل عنه أنه كان أقل جهلا بقليل من سائر الفلاحين .

وهو إلى جانب قيامه بواجباته الدينية من إقامة شعائر الصلاة والوعظ

ومراسيم العماد والزواج والجنازات ، كان طيلة أيام الأسبوع يعمل فى الحقل بفأسه كسائر الفلاحين ،وفى كثير من المناطق كان على كاهن القرية أن يعمل يوما كل اسبوع فى فلاحة أرض السيد سخرة . ولعل الامتياز الوحيد للكاهن أنه كان يحصل على شريط من أرض القرية بلغ ضعف الحصة التى كانت لبعض الفلاحين المميزين فى القرية .وكان على الكاهن واجب آخر هام ؛ فهو المسئول عن « عجل » القرية لتهجين الأبقار ، وعن « كبش » القرية لتهجين الأغنام ، وعن « جواد » القرية لإخصاب إناث الخيول . وقد عرف عن الكاهن أيضا إلحاحه الدائم على التبرع ليصلح حال الكنيسة وليرسل إلى الخزانة الاسقفية نصيبها ، وكان هذا يشمل فيما يشمل البيض والدجاج وغيرها من منتجات الريف .ثم جاءت ضريبة العشور (Tithe) فشملت كل المحاصيل والثروة الحيوانية والأصواف والجبن والزبد والعسل والفاكهة .

ولقد ارتبطت الأعياد والإحتفالات الدينية فى مختلف القرى الأوربية بعادات وثنية قديمة لم تفلح الكنيسة فى تخليص الناس منها . ولفهم روح هذا العصر لابد من فحص الدلالات فى لغة التخاطب المحلية العامية وفى محتوى الصلوات الفردية والجماعية وفى اعترافات المصلين عن ذنوبهم وفى أفكارهم عن المعجزات وفى قصص الجن والعفاريت ،وفى ما قد يتساقط من على موائد الصفوة المتعلمة (Docti) لكى يتغذى عليه ويلوكه البسطاء من غير المتعلمين (Idiotae) .ومن هذا المنبع الأخير يمكن للمرء أن يقول بأن تبعية ، إن لم يكن رق الفلاحين ، إقتصادياً وسياسياً قد أضيفت إليها تبعية أخرى فى عصر الإقطاع هى التبعية العقائدية ، فالمعروف أن السلطات الدينية عمدت إلى عدم

ترجمة بعض النصوص الدينية إلى اللهجات المحلية (Vernacular) كى تحجبها عن بسطاء الناس إما لصعوبة إدراك مغزاها وإما لكى تبقى حكرا عليها ، وعلل كبار رجال الدين هذا الموقف بأن العامة يخلطون بين شخص المسيح وشخوص أبطال الملاحم الجرمانية القديمة فقد ظنوه بعثا للبطل القديم الجليد . والحق أن عامة الناس كانوا شديدى الاعجاب بقصص البطولة القديمة بعد أن ملوا من تكرار سير القديسين . ويروى الراهب الألمانى سيزاريوس من هستر باخ كيف أنه ذات يوم كان يعظ جماعة من الرهبان ، فلاحظ أن الملل أخذ يتسرب إلى نفوسهم إلى حد أن بعضهم راح يغط فى النوم بل وفى الشخير ، ولكى يوقظ هؤلاء من غفلتهم ونعاسهم عمد إلى تغيير موضوع موعظته هاتفاً : « استمعوا أيها الإخوة إلى وأفيقوا إلى حكاية جميلة ... كان ياما كان فى ماضى الأيام والأزمان ملك اسطورى اسمه آرثر سيد فرسان قومه الذى طبقت شهرة مائدته المستديرة كل الآفاق ... الخ » . وعلى التو تنبه الحضور وأفاق الجميع واشرأبت الأعناق وأرهفت الآذان لسماع بقية الرواية عن آرثر وزوجته الفاتنه جونيڤير وعاشقها الآثم لانسلوت . ثم توقف الواعظ فجأة عن الاستطراد فى قصة آرثر وصرخ قائلاً : « أرأيتم أيها الحضور كيف أن الحديث عن الأمور السماوية لا يثير أنتباهكم بينما الحديث عن الدنيويات ومفاسدها يوقظكم من السبات العميق ؟ »[٩٧] .

والحق أن انسان العصور الوسطى لم يكن يفهم التجريد ، وعليه فإن المعانى الروحية كانت فى حاجة ماسة إلى شيء ملموس وحسى لإدراك فحواها . ولم يكن التصور الشعبى نداً للمحسنات البلاغية والمجاز والكناية والرمز اللفظى ، وليس بمستغرب أمام هذا أن لجأ رجال الدين إلى الأيقونات والتصاوير والتماثيل

كوسائل تعليمية لعامة الناس . وقد سرى المثل الشعبى فى تلك الأوقات بأن «الرب ليس حريصا على قواعد النحو بقدر ما هو حريص على قلوب الناس وسرائرهم » . وليس غريباً أيضاً أن عدداً غير قليل من كتاب الحوليات فى العصور الوسطى كانوا يفاخرون بفجاجة أسلوبهم وبقصورهم فى البلاغة والأجرومية ، فمثلاً يعترف جريجورى من تور مؤرخ الفرنجة أنه لا يدعى علماً فى الأدب والاسلوبية ،وبأنه كاتب بسيط لا يجيد الحذلقة ،متسائلاً عن الحكمة فى إختيار المسيح لحوارييه من صيادى السمك البسطاء وليس من الفلاسفة .

كذلك اضطر وعاظ العصر إلى تبسيط عظاتهم كى تتوافق مع البيئة والمزاج الشعبى ، فمثلاً وجد سيزاريوس من آرلس نفسه فى احدى مواعظه ينصح المصلين بالاقتصاد فى نشاطهم الجنسى ، موضحاً لهم بأن العلاقات الزواجية قد شرعها الله للتناسل وإعمار الأرض بنسل صالح ، وعليه فإن النهم الجنسى غير محبب مثله فى هذا مثل الحقل الذى إن أجهدته بالحرث والبذر تباعا فى موسم واحد أرهقت التربة وجاء الحصاد هزيلاً (٩٨) .

هذا وقد أعطى العصر للأرقام دلالات غيبية ، فرقم ٤ هو رقم الاتزان والاستقرار ؛ ورقم ١١ هو رقم الشيخوخة والمرض والأفول واقتراب الموت . كذلك شاعت فى العصر روايات متعددة عن غرائب الكون ؛ من قبيل ذلك تلك الرواية عن ذئب هجم على احدى القرى واختطف طفلة إلى الغابة لكى تقوم الطفلة بانتزاع عظمة من حلق ذئب آخر ، وبعد قيام الصبية بالمهمة الوعرة أعادها الذئب على ظهره سالمة تماما . وقد كثرت أيضا القصص عن الشياطين

وألاعيبهم وشباكهم ، وعن النساء اللائى تلدن مخلوقات مشوهة بسبب مضاجعة الشياطين ، وعن حبائل اليهود لتدنيس القربان المقدس ، وعن امرأة سمعت محادثة مفهومة بين بعض الديكة والفراريج ، وعن القروى الذى عثر على شجرة تثمر أحذية بدلاً من الفاكهة . وفى مجتمع كهذا فرض رجال الدين كفارات عدة على الناس حتى يحدوا من هذه الهلوسات وعواقبها الوخيمة ، وكانت الكفارة تشمل الصلاة والصيام والطرد المؤقت من القرية ، وبات لكل خطيئة كفارتها كى تغسلها . وقد سمحت بعض الأروقة الدينية للمذنب أن يستأجر شخصا أخر ليقوم بالصيام بدلا منه (Justus) ، وكان على المقتدر من الناس أن يدفع عشرين شلناً للصائم المستأجر ، أما الأقل غنى فكان يدفع عشرة شلنات ، والأدنى من ذلك ثلاثة شلنات فقط . ومن الكفارات أيضا الحكم على الآثم بأن ينام لفترة محددة فى جوف أحد القبور بجوار جثث الموتى، أو أن يجلد نفسه بالسوط عدة مرات ، أو أن ينزع من فروة رأسه ١٢ شعرة .

هذا وقد كان اعتقاد الناس فى الأولياء والقديسين شديداً فى العصور الوسطى ، ولذا فقد حرصوا على إقتناء رفاتهم ومخلفاتهم ورماد قبورهم ، وقد كان هذا سببا فى رواج الاتجار باثار القديسين ، بل أن سرقة رفات القديسين باتت أمراً منتشراً ليس فقط بين العامة وإنما أيضا بين كبار رجال الدين أنفسهم.وقد وصل الحد إلى أن البعض جاهر بأن قتل أحد القديسين لا حرج فيه ، وذلك لضمان دفن رفاته فى هذا المكان أو ذاك للتبرك به وبكراماته .

ويروى عن أهالى جبال أومبريا الايطالية أن أحد الصالحين هنالك قد قرر

فجأة هجران المنطقة والإعتزال بعيداً فى ركن قصى ، فانزعج أهل المنطقة وتصايحوا : إن كان يصعب علينا الابقاء عليه معنا حيا ، فلنبقه معنا مقتولا[٩٩] . هذا وقد خص العامة هؤلاء الصالحين والقديسين بصفات وكرامات دقيقة التخصص ، فهذا يعين على الشفاء من أمراض الجلد ، وذاك للعيون ، واخر لأمراض المعدة ، ورابع للجهاز التنفسى وهكذا ، بل إن هنالك من خصوا بالمقدرة على طرد الفئران من المنازل .ولقد ازداد عدد هؤلاء القديسيين إلى حد أنه قد أحصى فى مدينة كولون وحدها عشرة الاف من عذارى المدينة تخصصن فى الوساطة لدى هؤلاء القديسين والقديسات للشفاء والمعافاة . يلاحظ أيضاً أن نفحات القديسيين قد تجاوزت بنى البشر لتشمل أيضاً مملكة الحيوان والنبات بل والجماد . ومن حكايات العصر ونوادره أن ذئبا هاجم أحد الصالحين وهو فى الطريق وابتلع حماره ، فلعنه القديس وكبله ثم سخره ليقوم بأعباء الحمار الضحية ،وصار الذئب المتوحش مطية ملجمة طيعة يؤدى للرجل واجبات الحمار القتيل .

كان طبيعياً فى هذا المحيط الغيبى أن يظهر العديد من المشعوذين والأنبياء الكذبة ، ومن هؤلاء واحد وفد من اسبانيا إلى مدينة تور الفرنسية وهو يقود ثلة من العوام والساقطات من النساء ، وعند القبض عليه عثر فى حقبيته على جذور نباتات ، وأسنان موتى ،وعظام فئران ، ومخالب قطط وأشياء أخرى غريبة . ويجب أن نلاحظ فى هذا الصدد أن الكنيسة الرومانية كانت لا تمانع فى التبرك بآثار القديسين الذين تعترف بهم رسميا ،ولكنها حرمت ما دون ذلك فى الاوساط الشعبية ودمغته بالهرطقة أوالسحر الشعبى (maleficium) .

وقد اعتاد الناس عندما تحمل ضائقة أونازلة بناحيتهم أن يهرعوا إلى مقبرة وليهم يستصرخونه للنجدة ، وإذا لم تنقشع الغمة فإنهم يقتحمون مقبرة «الولى» ويطرحون رفاته أرضا وينثرون الاشواك على عظامه ويتطاولون عليه سباً وتقريعاً .

أما عن سلوى الفلاحين فى القرية فكانت تتمثل فى حفلات الرقص فى الخلاء أومشاهدة صراع الثيران والديكة ، أو التزحلق على الجليد ، أو شراب الجعة حتى الثمالة أوالجلوس لاستماع النادر من القصص والحكايات والطرف.

شهد القرن الثانى عشر اتساعاً فى رقعة الأرض الصالحة للزراعة بعد أن أزيلت الغابات ،ولكى يرغب السادة أصحاب هذه الأراضى الفلاحين فى العمل عليها اضطروا إلى أن يبرموا معهم مواثيق مكتوبة تحتوى على شروط أفضل من ذى قبل ، وفى فرنسا أصبحت كل قرية تحصل على مثل هذا الميثاق تعرف باسم «القرية الجديدة » (Villeneuve) .

هذا وقد ساعد تداول العملة فى تمكين نفر من الفلاحين من اقتصاد مبلغ متواضع اشتروا به رقعاً من الأرض من بعض السادة . والعامل الأهّم الذى ساعد على تحطيم أغلال القنية هو تلك التوارث التى اندلعت فى كل من فلاندرز وفرنسا وانجلترا فى القرن الرابع عشر .

والحق أنه مع ازدياد التعليم فى نهاية القرن الثالث عشر بدأت تسرى فى بلدان غرب أوربا بعض الأفكار المستنيرة التى تناقلها الناس فأثارت فى نفوسهم فضولاً وتطلعاً إلى نسمة الحرية . كما أن الحروب التى تتابعت بين الملكيات الإقطاعية قد جرت على الفلاحين وبالاً شديداً ، خاصة تلك الضرائب الثقيلة التى فرضها عليهم الملوك للاستمرار فى حروبهم .

قامت أولى الثورات فى فلاندرز واستمرت من سنة ١٣٢٣ م حتى ١٣٢٨م وكان يقود الفلاحين فى هذا التمرد الغاضب زعيم اسمه نيقولا زانكين الذى رفض هو وأتباعه وأقرانه دفع الضرائب التى فرضت مجدداً ، كما امتنعوا أيضا عن دفع ضريبة العشور للكنيسة .وهللت الطبقات المظلومة فى بلدان بروج (Bruges) ، ويبر (Ypres) لهذا المطلب وانضموا إلى الثوار . ولقد اتخذت الثورة طابعاً عنيفاً جارفاً عبر عن الرواسب المتراكمة والمكبوتة فى نفوس قاعدة الهرم الإقطاعى . وانتقم الأقنان من سادتهم ،فحطموا بعض القلاع وقتلوا سادتها واعتدوا على نسائها .ولم يعد يخيفهم شىء . غير أن جيشاً ملكيا فرنسيا قام بتطويق الثوار عن بلدة كاسيل (Casel) وقضى عليهم فى وحشية زائدة .

ثم اندلعت ثورة الأقنان فى فرنسا سنة ١٣٥٨ م ، وعرفت هذه الثورة باسم « جاكيرى » (Jacquerie) ،وهى كلمة مشتقة من عادة كانت عند طبقة النبالة الفرنسية فى مخاطبتها لطبقة الأقنان « بلفظة جاك بون أوم » (Jacques Bonhomme) بمعنى « جاك البسيط » وقد تعنى أيضا جاك « الأبله » .

وقد بدأت الثورة فى شمال فرنسا سنة ١٣٥٨ م فى لحظة حرجة من تاريخ البلاد فى اثناء حرب المائة عام مع انجلترا . فبعد واقعة بواتييه (١٣٥٦ م) ، وقع الملك الفرنسى جان الثانى اسيراً فى أيدى القوات الانجليزية ،وقد جاءت هزيمة بواتييه خاتمة لسلسلة طويلة من الاذلال العسكرى للفرنسيين على أيدى الانجليز . ولقد استاء الشعور العام فى فرنسا من تلك المهانات المتلاحقة ،وصب العامة اللوم كله على الفرسان من ابناء الطبقة النبيلة الذين كانوا يؤلفون عصب

الجيش الفرنسى .وبعد هزيمة بواتييه أبرمت هدنة بين الانجليز والفرنسيين ،وفى أثناء الهدنة أطلق الانجليز جماعة من الجند المرتزقة على الريف الفرنسى ،فراحوا ينهبون الفلاحين ويعتدون عليهم ، ولقد انصب الأذى بوجه خاص على مناطق إيل دى فرانس ، وشامبانى ، وبيكاردى .ولقد أجج من نار الغضب فى صدور الفلاحين الفرنسيين أن الفرسان الفرنسيين بدلاً من أن يتصدوا لهذه الإغارات الانجليزية ، قد انضموا إلى المغيرين يشاركونهم فى نهب وسلب بنى جلدتهم . واندلعت الشرارة فى نوفمبر ١٣٥٧ م فى منطقة ايتيين مارسيل فى باريس ،ولما تفاقم الأمر قرر ولى العهد شارل الخامس ضرب حصار حول منطقة التمرد (١٤ نوفمبر ١٣٥٨) ، فأمر بتقوية القلاع المحيطة بالعاصمة .ولكى يحصل ولى العهد على المال اللازم لتقوية تلك القلاع ، فرض ضريبة جديدة على الفلاحين لهذا الغرض .

ولقد انزعج الفلاحون من هذه الضريبة الجديدة ، لأن تلك القلاع كانت تعد للانقضاض عليهم ، فكيف يدفعون المال للمساهمة فى هلاك أنفسهم وأقرانهم ؟ .

وفى ٢١ مايو ١٣٥٨ م هبت قرى كومبين لتشارك فى الثورة ، وامتد لهيبها صوب الجنوب الغربى فى المنطقة الواقعة بين نهر ويز ونهر المارن ثم عبر نهر السين . واندفع أقنان الجنوب الشرقى فى شامبانى لينضموا للحركة ، وسرعان ما تحركت الطبقات الكادحة فى الشمال الغربى فى مناطق بوڤيه وإميان للثوار .

إنقض الأقنان على « جلاديهم » فحطموا القلاع وأحرقوا مواثيق الرق

التى كانت قد كبلتهم قرونا بأغلال المذلة والهوان . ثم انضم الكثيرون من بروليتارية المدن من الحرفيين والعمال وصغار التجار إلى الأقنان لتصفية الحساب مع ارستقراطية القلاع . واختار الثوار قائداً لهم من اقليم كومبين يدعى وليم كال ، الذى حفز أتباعه على الزحف إلى باريس لنجدة أهالى إيتيين مارسيل المحاصرين . وقد ترك لنا المؤرخ المعاصر فرواسار (Froissart) صورة لتلك الأحداث الدامية ، على أنه ينبغى ملاحظة أن هذا الكاتب المعاصر كان منحازا بحكم انتمائه الطبقى إلى معسكر النبلاء . يقول فرواسار : « لقد هدرت جموع الأقنان من كل صوب ، من بوفوازييه ، وبرى ، ومن ضفاف نهر المارن، ومن ڤالوا ولانواه ، ومن أراضى كوسى ومن ربوع سواسون ، ومن سائر بقاع ريف البلاد ، وتجمع هؤلاء وأولاء فى بواڤوازييه وأعلنوا أن الفرسان والنبلاء قد خانوا قضية البلاد . ثم تصايحوا منادين بوجوب القضاء على أبناء تلك الطبقة وتدمير قلاعهم ، وأقسموا على أن الإبقاء على حياة النبلاء يعتبر خيانة كبرى . وتحرك الأقنان وهم يحملون الهراوات والسكاكين ثم هجموا على أول قلعة صادفوها ، فاقتحموها وقتلوا صاحبها وزوجته وأطفاله ، كباراً وصغاراً ، ثم اشعلوا النيران فى القلعة . وانقلبوا بعدها على قلعة أخرى ، فقبضوا على سيدها وأوثقوه فى وتد ، ثم اعتدوا على زوجه وإبنته أمام بصره ، ثم قاموا بقتل الزوجة التى كانت حبلى هى وابنتها وكل الأطفال الذين كانوا داخل القلعة ، واشعلوا النيران فيها فأتت عليها ... وتكررت الحال مع العديد من القلاع ، ثم انضمت إلى المتمردين جموع أخرى ، فبلغ عددهم ستة الاف ، وكانوا كلما مروا فى بقعة انضم إليهم من كانوا على شاكلتهم . ولقد

فر الفرسان والنبلاء من قلاعهم إلى الغابات للاحتماء فى جوفها .وأغتصب الأقنان من صادفوه من فتيات وسيدات دون رحمة ، ولكأنهم كلاب مسعورة ، بل إنهم قاموا بقتل أحد الفرسان وأخذوا فى شوائه على النار على مشهد من زوجته وأولاده ، ثم طلبوا إلى الزوجة أن تشاركهم فى تناول هذا الشواء الآدمى البشع(١٠٠) .

بعد هذا اجتمع الأقنان فى بلدة كليرمونت وأختاروا لهم زعيما واسموه «جاك بون أوم » وهو الذى يدعى وليم كال ، ثم تحرك الثوار من بواڤوازييه إلى كوسى حيث انقضوا على الفرسان والنبلاء وقتلوا كل من وقعت عليه أيديهم.

استنجد نبلاء فرنسا بأصحابهم من أمراء الأقطاع فى فلاندرز وهينولت وبرابانت وهرع هؤلاء للأنقضاض على أقنان فرنسا .وقد هجمت الكتائب الاقطاعية من كل صوب على الثوار وحصدتهم حصداً ، وقطعت رؤوس الكثيرين منهم ، وعلقت جثث البعض على الاشجار . وفى أثناء ذلك كان ملك ناڤار شارل «الشرس » قد انقض برجاله على تجمع للفلاحين على مقربة من كليرمونت وحصد منهم ثلاثة الاف رجل فى ضربة واحدة . ورغم هذا فإن اعداد الثوار كانت تتزايد يوما بعد يوم حتى بلغوا مائة ألف. وكان وليم كال قد وجه جماعة من رجاله لمهاجمة منطقة موه (Meaux) حيث كانت تقيم مجموعة من سيدات البلاط الملكى ، ولكن الكونت جاستون فويبوس دى فوا ، وجان الثالث دى جرايل تصديا للمهاجمين وقتلا منهم سبعة الاف رجلا .

وفى العاشر من يونيو ١٣٥٨ م دبرت خديعة أوقع فيها بالزعيم وليم كال عند كلير مونت . ثم أطلق ولى العهد الفرنسى رجاله على ريف شامبانى للقصاص من بلدة سنليس (Senlis) لوقوفها بجوار الثوار . واستمرت حركة

القمع والتقتيل حتى أغسطس ١٣٥٨ م ، وتمت خلال ذلك مذابح جماعية ضد الفلاحين فى كل ربوع فرنسا (١٠١) .

وفى انجلترا قام الأقنان بثورة عارمة سنة ١٣٨١ م . وكان المحرك للثورة تلك الضريبة الجديدة التى فرضتها حكومة الملك الطفل ريتشارد الثانى بمقدار شلن واحد على كل رأس منذ سنة ١٣٧٧ م .وعلت وقتها أصوات فى البرلمان الانجليزى على لسان السادة من علمانيين وكنسيين تشكو من الفلاحين الذين باتوا يعلنون صراحة بأنهم عازمون على التحرر من ضغوط السادة ، وذلك بتحرير الأبدان وتخليص الأرض التى يفلحونها ،وبأنهم لن يسكتوا بعد اليوم عن الظلم والعنت من جانب أى أحد .وشكى السادة أيضاً لملكهم أن الفلاحين صاروا يهددون موظفى سادتهم ، وأنهم يجتمعون فى أعداد ضخمة لإعداد العدة للانقضاض على سادتهم (١٠٢).

والواقع أن « الوباء الاسود » (Black Death) أو الطاعون الذى كان قد اجتاح أوربا كان قد حصد أعداداً كبيرة من الفلاحين ، حتى أن بعض الأراضى الزراعية تركت بلا أيد تفلحها . وكان طبيعيا أمام تناقص الأيدى المفلحة أن تزداد على البقية الباقية أعباء العمل فى الأرض ، فطالبوا بزيادة أجورهم ، ولكن السادة رفضوا هذا المطلب . كما أن الطبقات الكادحة من عمال وحرفيين فى المدن كانوا ساخطين منذ صدور « قانون العمال » سنة ١٣٥١ م الذى جمد الأجور رغم اطراد الارتفاع فى مستوى المعيشة .

كذلك انضم إلى الفلاحين فى ثورتهم عدد وافر من الذين دمغتهم السلطات الانجليزية بوصمة « الخروج على القانون » (Outlaws) ، فتألفت

من هؤلاء الأخيرين جماعات أطلقت على نفسها اسم أتباع روبن هود ؛ البطل الانجليزى الاسطورى الذى تفنن فى مقاومة الغزو النورماندى وفى الأخذ من الأغنياء غصباً لإطعام الفقراء .

كذلك أجج من اشتعال الغضب موقف بعض المستنيرين من رجال الدين وعلى رأسهم جون بول الذى نادى بالحرية والعدالة والمساواة بين طبقات المجتمع جميعا .وكان جون بول كاهنا بسيطا فى ولاية يورك ثم انتقل منها إلى مقاطعة كولشستر . وظلت مواعظ هذا الرجل على مدار عشرين عاما تندد بالظلم الأقطاعى وتدعو إلى الغاء الفوارق الطبقية . وقد ألهبت مواعظه حماس المصلين فطبقت شهرته آفاق البلاد ، حتى أن كبير اساقفة كنتربرى واسمه لانجهام أصدر قراراً بحرمانه من الوعظ بالناس (١٣٦٦ م) .ورغم هذا القرار فإن الجماهير ظلت ملتفة حول جون بول ورأت فيه وفى كلامه عزاءً جميلاً . وفى سنة ١٣٧٦ م صدر أمر بالقبض عليه وإيداعه السجن . على أنه عندما اندلعت ثورة الفلاحين سنة ١٣٨١ م بزعامة والتر تيلور فى مقاطعة كنت هجم الثوار على سجن مدستون (Maidstone) وأطلقوا سراح جون بول الذى انضم إلى موكب الثوار وزحف الجميع نحو لندن . وعند معسكر بلاك هيث خطب جون بول فى الثوار ، وقد ألهب مشاعرهم بمقولته الشهيرة التى صارت منذ نطق بها مضرب الأمثال فى الإنجليزية ، When Adam Dalf and Eve,Span who was then a gentleman) ،وقد حث جون بول الثوار عند دخول لندن على تقليم أظافر اللوردات وامراء الاقطاع والبورجوازيين وكبار الاساقفة ورؤساء الأديرة والرهبان الفاسقين . وبعد أن أوقعت السلطات الحاكمة وعمدة لندن

بالثوار ، تم القبض من جديد على جون بول فى بلدة كوفنترى حيث حوكم ثم اقتيد إلى حبل المشنقة فى بلدة سان ألبانز ، وذلك فى ١٥ يوليو ١٣٨١ م . وكما يحدث لكل مناضل شريف ، راحت حوليات المعاصرين من ابواق السلطة فى القرن الرابع عشر وما تلاه من قرون فى تشويه صورة جون بول وسمعته ، وليس من باب المصادفة أن الكاتب المغرض جان فرواسارت (الذى سبقت الاشارة إليه فى ثورة أقنان فرنسا) قد وصف جون بول بأنه « كاهن مجنون من أهالى كنت»[١٠٣] .

ويعترف المؤرخون اليوم بأن جون بول كان رائداً من رواد الاصلاح الدينى فى غرب أوربا ، وقد وجدت حملته التى شنها على فساد كبار رجال الدين آذانا صاغية خاصة عند أتباع المصلح الدينى جون ويكلف (Wycliff) المعروفين باسم « لولارد » (Lollards) ؛ الذين تعاطفوا مع الأقنان والفئات المغلوبة على أمرها ثم شنوا حرباً فاضحة ضد الوحل الذى تردت فيه كنيسة روما وكبار رجال الدين فلقبوهم « بالكهنة القياصرة (Caesarean Clergy) .

بعد أن شنق جون بول ، أرسلت الأشارة إلى سائر أنحاء انجلترا بأن جون بول من على حبل المشنقة قد « دق لكم الأجراس » (John Ball hath run-gen your bell) . وتلقف فلاحو كنت الأشارة فحملوا سلاحهم وانضموا تحت لواء والتر تيلور . وتيلور هذا ، وفقا لرواية جان فرواسار ،كان قد سرح من الخدمة العسكرية فعاد إلى موطنه حيث اختير زعيماً للثورة فى بلدة مدستون . زحف تيلور ورجاله من ولاية كنت فاستولوا على بلدة كنتربرى فى ١٠ يونيو ١٣٨١ م ، ثم اتجه الثوار إلى من منطقة سوث ورك (Southwork) ، وقام نفر

من رجاله بفتح قنطرة لندن وتدفق الجميع على لندن . ولقد حاول البعض القيام بعمليات نهب لقصور الأغنياء ، ومنها قصر سافوى الخاص بجون جونت، ولكن تيلور ضرب المخربين بيد من الحديد ، حفاظاً على سمعة الثورة. ورغم هذا لم يكن هنالك سبيل لكبح جماح العامة ، فقد اغتيل المستشار الملكى وهو كبير اساقفة سدبيرى (Sudbury) وقطعت رأسه ثم علقت على قنطرة لندن . كذلك هجم بعض المخربين على حى التجار الأجانب فى العاصمة الانجليزية ، فقتل عدد كبيرمن التجار خاصة من أهالى فلاندرز(١٠٤)

بعد هذا عمل الملك ريتشارد الثانى ورجال بلاطه على خداع الثوار ، فقابلهم الملك عند مايل إند (Mile End) فى ١٤ يونيو ١٣٨١ ، ووعدهم بتنفيذ مطالبهم بالغاء السخرة وتحديد اسعار إيجار الفدان بواقع أربعة بنسات وبإصدار عفو شامل عن كل من شاركوا فى التمرد . ثم كلف الملك ثلاثين من الكتبة لوضع المواثيق لتسجيل صكوك العفو والحرية لكل قرية وأهلها على حدة .وهدأت الخواطر ، ورحل عدد كبير من الثوار إلى قراهم ، بينما بقى أهالى كنت مع زعيمهم تيلور يرقبون الموقف ، ولما أن اشتموا رائحة الغدر هجموا عل برج لندن واستولوا عليه . واضطر الملك ريتشارد الثانى إلى مقابلة زعماء الثورة من جديد عند سمث فيلد ، وطيب خواطرهم .

وبينما كان تيلور يتفاوض مع أحد رجال الملك فى سمث فيلد قام واحد من أتباع وليم ولورث عمدة لندن بطعن تيلور طعنة نافذة بخنجره . ثم انقضت القوات الملكية على بقية الثوار تحصدهم حصداً على حين غرة . حمل اتباع تيلور زعيمهم الجريح إلى مستشفى سان بارتلميو ، ولكن كلاب الحراسة

الملكية هجموا على المستشفى وانتزعوا الرجل الذى كان ينزف دماً من فراشه وقاموا بشنقه . ثم انقض البارونات على الريف يقتلون القوم فى غير هوادة . وانعقد البرلمان الانجليزى وألغى بجرة قلم كل المواثيق التى كان كتبة الملك قد أعدوها بالفعل.

ولكن إذا كانت القوى الإقطاعية قد نجحت فى خداع الأقنان واجهاض ثوراتهم ، إلا أن هذه الثورات فى فلاندرز وانجلترا فى القرن الرابع عشر كانت علامة كبرى على الطريق إلى الانعتاق من جحيم عصر الظلام .



الفصل السادس

جحيم العصور الوسطى

الفكر المخالف ـ أفكار جماعات الأطهار ـ قيام محاكم التفتيش ـ صور من قمع محاكم التفتيش في مختلف بلدان الغرب الأوربي ـ رواد الإصلاح : جون ويكلف جون هس ـ سافونا رولا ـ مارتن لوثر .

بلغ الظلام اشده فى العصر الوسيط عند قيام محاكم التفتيش فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر . وحقيقة الأمر أن الكنيسة الرومانية بثيوقراطيتها (Theocracy) المتشددة ودخولها فى صراع مرير ضد السلطات العلمانية قد حولت خريطة أوربا إلى ساحة من التوتر والقلق . وفى أثناء هذا الصراع بين الكاهن والقيصر تجاوزت البابوية حدود صلاحياتها فدخلت المعارك ولطخت سمعتها بالدسائس ويدها بالدماء . وذهل الناس عندما رأوا الكاهن الأكبر يدق طبول الحرب ، فراحوا يترحمون على اسطورة السلام العالمى وعلى« مدينة الله » الطوباوية التى بشر بها أغسطينوس منذ القرن الخامس .

كما شاعت فى تلك الأوقات روايات كثيرة عن سوء مسلك كبار رجال الدين ، من ذلك شراء المناصب الدينية بالرشوة (السيمونية) ،ويحدثنا برنارد دى كلير ڤوه (قرن ١٢ م) بأن الفساد قد بلغ حداً أصبح الاساقفة معه

يختارون من زمرة الغلمان الطائشين[١٠٥] .

وعرف عن مندوبى البابا إلى البلدان الأوربية أن جيوبهم باتت تحشى بالفضة والذهب فى جولاتهم التفتيشية كى يتستروا على الفساد . ولقد شكى الرهبان الداوية إلى البابا اسكندر الثالث أن القاصدين البابويين باتوا يعبدون صنم المال .وقد قصد أحد الغاضبين من هذا الفساد ويدعى روبرت جروستست (Grosseteste) إلى بلاط البابا انوسنت الرابع محتجاً ، ولما لم يجد آذانا صاغية صاح فى وجه البابا : « الويل لكم من صنم المال ، محرك كل شهوة مادية ،وبه يشترى كل شىء وخاصة فى بيت الفاتيكان » . ولقد عرف عن الديوان البابوى تورطه فى اصدار الخطابات المزيفة لمنح الغفران ولخدمة قضايا الأمراء والنبلاء فى سائر أركان القارة الأوربية ، واشتهر عن المحاكم الاسقفية تردد شهود الزور عليها واختفاء ملفات بعض المتهمين من علية القوم ، وكان صك الغفران الذى يمنحه رجال الدين لمن يرغب فيه مقابل مبلغ محدد من أكثر الأمور استفزازاً لمشاعر الطبقات البسيطة وللمستنيرين من صغار رجال الدين .ولقد ظهرت فكرة « الغفران » (Indulgentia)بشكل صارخ فى دعوة البابا أوربان الثانى إلى الحرب الصليبية فى مجمع كليرمونت ١٠٩٥ م ، حيث أعلن غفران الخطايا لكل من يحمل السلاح للقتال فى الأراضى المقدسة . بل إن الغفران وجد من يصنفه فى القرن الثانى عشر إلى درجتين : غفران للذنوب (Coulpe) وهو فى زعمهم ينجى من نار جهنم ؛ ثم غفران من القصاص (Peine) وهو ينجى من المطهر ،وبذا صارت تجارة صكوك الغفران تجارة رابحة أثرى منها البابا وكبار رجال الدين ، حتى صارت أمثولة يتندر بها

الناس على كل لسان[١٠٦] .

فى أثناء ذلك كانت أوربا الغربية تشهد قيام المدن ومولد قوميوناتها سعياً إلى الاستقلال الذاتى عن سيطرة الاساقفة وامراء الأقطاع ،ولكأنها جزائر تتوالد الواحدة تلو الأخرى وسط محيط زراعى شاسع . وفى نفس الوقت تطورت المدارس الكاتدرائية إلى جامعات شهدت أروقتها مظاهر متعددة من الفكر الحر والفلسفة الأرسطية رغم أنف رجال اللاهوت . وسرت فى القوم هنا وهناك روح الغضب والتمرد التى وضحت أرهاصاتها فى آراء بطرس ابيلارد (١٠٧٩ ـ ١١٤٢ م) فى باريس وفى معمل روجربيكون فى أكسفورد (١٢١١ ـ ١٢٩٢ م) ، وفى صيحات الراهب المستنير ايكهارت فى كولون (١٢٦٠ ـ ١٣٧١) ، وفى الكوميديا الالهية لدانتى ألليجيرى (١٢٦٥ ـ ١٣٢١ م). كذلك كانت نقابات العمال والحرفيين من غزالين ونساجين وبنائين وحدادين وغيرها تتخذ مكانها فى المدن الجديدة ، وتتطلع إلى شيء من العدالة الإجتماعية .

وقد نتج عن هذه العوامل جميعا أن سرت موجات غضب جارفة ضد الكنيسة الرومانية امتدت من ربوع البلقان وشمال إيطاليا إلى جنوب فرنسا واسبانيا وبلاد الراين والأراضى الواطئة واواسط المانيا من كولون حتى جولزار . وعرفت غالبية الساخطين باسم « الأطهار » .والكلمة (Katharoi) يونانية الأصل ومعناها « الذين يحيون حياة الزهد والطهارة » وقد أطلق المعاصرون على اتباع هذه الفرق اسماء متباينة : فهم « النساجون » أحيانا ؛و « فقراء لومبارديا» أحيانا أخرى ؛و « فقراء ليون » ؛ وأبتاع والدو ؛ والألبجنزيين ، والبوجوميل ؛

وأتباع أرنولد من بريسكيا ؛ والزهاد . وقد اتخذت هذه الجماعات اسماءها إما من مراكز انتشارها أومن اسماء زعمائها أو من العادات التى كانت تحكمها ، غير أنها جميعا كانت تنطوى تحت لواء «الأطهار » ومن هذه الكلمة اشتق الألمان الكلمة الدالة على المروق والهرطقة (Kutzer) .

وكانت أفكار الأطهار خليطاً من المانوية والمسدكية والبوذية والمسيحية فى آن واحد . وينصب اهتمامهم فى الدرجة الأولى على إيجاد حل لمشكلة الصراع بين الخير والشر ، وهم يعتقدون بثنائية الوجود فهناك عالم الخير والروح ويقابله عالم الشر والمادة .والله هو خالق العالم الروحى الأزلى وغير المرئى ،أما إبليس فهو محرك العالم المادى وشروره ،وهم يؤمنون بالتناسخ للأرواح ، لكنهم لا يقيمون وزناً للمؤسسات الدينية وكهنتها ، فهم لا يقبلون الوساطة بين الخالق وخليقته ،كما أنهم ينبذون الأيقونات وفكرة صكوك الغفران(١٠٧) .

ترجع أول انتفاضة صاخبة للأطهار إلى النصف الثانى من القرن العاشر فى بلغاريا حينما هبت جماعة من الكادحين ضد نبلاء الاقطاع على أمل تحطيم قيود رق الأرض والارتباط بساقية الاقطاع ارتباط السائمة بالسواقى . وقد وجدوا لهم زعيماً يعبر عن آرائهم يدعى بوجوميل ومعنى اسمه « المحبوب من الله » ، وقد نشط بوجوميل فى تحريض اتباعه على التمرد ضد السلطة لأنها تجسيد لتحكم الشر على الخير ،كما وصف رجال الأقطاع بأنهم مصاصو الدماء . وقد حضّ بوجوميل العبيد على الامتناع عن خدمة السادة . ولما أن وصلت هذه التعاليم إلى مناطق البوسنة والصرب ، انزعجت البابوية فأمرت ملك المجر بقمع هذه الحركة بالحديد والنار تحت شعار « الحرب الصليبية » . وقد رد

البوجوميليون بأنهم ماضون فى ثورتهم حتى تتم المساواة بين جميع الناس، ويكف الشباب عن المشاركة فى الحروب وذبح الحيونات . أما الحملات الصليبية سواء أكانت ضد الأراضى المقدسة فى المشرق أوضدهم فى الغرب فقد وصفوها بأنها مذابح جماعية من تدبير الكنيسة الرومانية من أجل المكاسب الدنيوية .

وقد ترجم الأطهار على اختلاف بلدانهم الانجيل إلى لغاتهم المحلية كرها منهم للسان اللاتينى . وللأطهار درجات روحية على سلم الطهر ؛ فهناك الابن الأصغر وهناك الابن الأكبر . ويرتبط من ينضم إلى هذه الجماعة بالعهد (La Convenansa) ، وبعدها يتعهد بالامتناع عن تناول اللحوم والبيض والألبان وكل من هو ليس نباتياً أومائيا فى جوهره ، وعليه ألا يكذب وألا يحلف وألا يسير بمفرده إن توفر له على الطريق « أخ » من الجماعة ،وألا يتنكر لعقيدته حتى لو عذب بالنارأو الغرق . وبعد هذه التعهدات يضع كبير من طائفتهم الكتاب المقدس على رأس العضو الجديد وهو يتمتم : « فى البدء كان الكلمة..» ، ثم يرتدى العضو الجديد لباسا خاصا ويتلقى قبلة السلام .

وبهذه الطقوس يكون العضو الجديد قد شارك فى « عماد الروح» (Con-solamentun) ، ومن ثم فإنه يطلق فى اسلوب حياته كل ما هو مادى ويسلك بالروح وبالروح فقط .

وللأطهار اسلوب عجيب مع من يشتد به المرض من أفراد الجماعة ؛ فهم يخيرونه بين الموت « كشهيد » أو « كمعترف » ،فان هو اختار الشهادة فأنهم يحضرون وسادة (Untertuch) ويكممون بها فمه بإحكام حتى يموت اختناقاً،

فى حين تقف حوله فرقة من المنشدين ترفع الترانيم المناسبة للموقف؛ وإن هو اختار « الاعتراف » فإنه يحرم من الطعام ثلاثة أيام كاملة فإن قدر له أن يعيش بعدها مجتازاً فترة « الاحتمال » (Endura) الذى يكابده عن طيب خاطر فإنه بهذا يبرهن على صلابة روحه واحتقار جسده فيخلعون عليه لقب « الكامل» (Perfectus) . وتوضح صلواتهم مدى زهدهم فى الحياة الدنيا ، فهم يصلون ضارعين « أيها الرب لاتترأف على جسدى فهو فاسد لا يستحق الرأفة ، ولكن أرحم روحى الحبيسة فى سجنها المادى »[١٠٨] .

ومن هذه القناعة ومسلك الزهد بلغت أيام صيامهم مائة وعشرين يوما فى العام،هذا إلى جانب الاكتفاء فى قوتهم بالخبز والماء فقط . وكانت هذه الجماعة تعاف فكرة الزواج ، وإن سمح بها ينبغى أن تتوقف العلاقات الزوجية بين الرجل وزوجته عقب الانجاب الأول مباشرة وإلى الأبد ، على أن الغلاة منهم كانوا يتجنبون حتى مجرد لمس النساء . وقد ورد فى سجلات محاكمات بلدة تولوز (سنة ١٣٠١ م) أن رجلاً من هؤلاء الأطهار طلب من ابنته ألا تلمسه طيلة حياته ، ولم يسمح لها بالاقتراب من فراشه حتى وهو يحتضر ! وتقوم الكراهية للمرأة عندهم على أساس أن خطيئة حواء الكبرى قد دنست العالم البكر وجرمت آدم الطاهر عندما أوقعته فى الغواية الآثمة ؛ ويجاهرون بأن « معرفة » آدم لحواء معرفة جنسية قد كان خطيئة كبرى ، وبسببها سقطت الروح وهرب الطهر ، ودخلت الأبالسة إلى جنة عدن فأفسدت على الإنسان كل شيء.

ولقد ظهرت جماعة من الأطهار فى لمبارديا بايطاليا واشتقت اسمها من بلدة كونشوريتسو (Concorrezo) ،وظهرت أخرى فى بلدة بانولو (-Bagno

lo) وتعتقد هاتان الجماعتان بأن الشيطان هو الذى لوث جسد الإنسان بالإثم ، وبأن ابليساً فى الأصل قد اغتر بنفسه فطلب إلى الملائكة أن تسجد له، ولذا فقد حل عليه غضب الله وأسقط إلى الهاوية .

وعلى الرغم من أن معلوماتنا عن الأطهار قد وردت من سجلات أعدائهم من الكاثوليك والمشرفين على محاكم التفتيش ، إلا أن أحداً من هؤلاء الخصوم لا ينكر على تلك الجماعات شجاعة أفرادها الفائقة ، وعدم جزعهم من الحرق بالنار . ويروى عن أحداث سنة ١١٦٣ م فى بلدة كولون أن من بين المقدمين للحرق بالنار كانت تلك الفتاة الجميلة والتى اشفق الجلادون عليها بسبب جمالها الأخاذ ، فجذبوها بعيداً عن النار ونصحوها بأعلان توبتها حتى تنال العفو ، ولكن الفتاة طلبت من الجلادين أن يقربوها من النار كى تودع رماد الضحايا الذين سبقوها ، ولما أن اقتربت أفلتت من أيديهم وألقت بنفسها فى قلب اللهب استعذاباً للاستشهاد بالنار مع « الإخوة » .

ولقد بالغت سجلات محاكم التفتيش فى الصاق الاتهامات بتلك الجماعات ، فزعموا أنهم يعبدون الشيطان ، وبأنهم يمارسون حرية الجنس ، ولذا فقد أطلق عليهم خصومهم « أتباع لوسيفر » ، أو « إخوة الروح المتحللة » (Freres du libre esprit) ،وقد برزت سيدتان فى إيطاليا لزعامة هذه الفرقة الأخيرة وهما ميلتادى مونتميانو ،وجوليت دى فلورانس[١٠٩] .

والواقع أن المدن الإيطالية فى السهل اللومباردى كانت قد انتعشت فى القرن الحادى عشر مع اضطلاع أهلها بالنشاط التجارى بين الشرق والغرب.وقد كان هذا الرخاء المادى مسيلاً للعاب كل من الامبراطور والبابا ،

فسعى كل منهما للسيطرة على هذه المدن ، ولكن المدن جاهدت لاقامة حكومات جمهورية مستقلة لتباعد بينها وبين سيد روما وقيصر ألمانيا .

غير أن كبار رجال الدين داخل تلك المدن وقفوا ضد تيار الحرية ، وباعوا ولاءهم تارة للامبراطور وأخرى للبابا فى مقابل حصولهم على امتيازات خاصة لأنفسهم من قبيل الاعفاء من الضرائب أو الاحتفاظ بمحاكم اسقفية ، إلى جانب حقهم فى محاكمة خصومهم كهراطقة . أما أبناء الطبقات الكادحة من عمال وحرفيين فقد كونوا لأنفسهم جماعات سعت إلى إيجاد حلول لمشكلاتهم الإجتماعية والاقتصادية . وقد ظهرت فى هذه المدن تيارات سياسية متصارعة ، أشهرها حزب يناصر البابا ضد الامبراطور الألمانى وعرف بحزب «الجويلف » ، ثم حزب يساند الامبراطور ضد البابا وعرف باسم حزب «الجبليين» .

وفى وسط هذا الجو المتوتر وصلت أفكار الأطهار ، فوجدت مناخا مناسبا للانتشار ، ولذا فإنه فى سنة ١١٣٠ م أقيمت محاكم اسقفية لمطاردة ومحاكمة جماعة عرفت باسم « باترينى » (Patereni) ، وهو اسم مشتق من اسم لحى فقير فى بلدة ميلان .

ثم نشب صراع بين هذه الجماعة وبين الكاثوليك فى بلدة أورڤيتو (Or-vieto) ، وكانت الغلبة فى النهاية للأطهار . وسارعت البابوية بدمغ جماعة باترينى بالهرطقة ، ولما أن تم الصلح بين الامبراطور فردريك بربروسا والبابا لوسيوس الثالث سنة ١١٨٤ م فى مدينة ڤيرونا ، اتفق الطرفان على ضرورة سحق «الهراطقة » بواسطة محاكم التفتيش فى مدن الشمال الإيطالى[١١٠] .

ورغم أساليب القمع البابوية والامبراطورية كان الأطهار يختفون من مدينة ليظهروا فى مدينة أخرى ، خاصة وأن غالبية الناس من أهالى تلك المدن كانوا متعاطفين مع هذه الجماعات . ومع مطلع القرن الثالث عشر انتشرت فرق الأطهار فى كل من ميلان ، فرارا ، فيرونا ،رمينى ،فلورنسا ، براتو ،بياتسنزا ، ترفزو ، وفتربو .

ورغم مطاردة السلطات البابوية والألمانية لهؤلاء الأطهار وأحراق الكثيرين منهم بالنار ، إلا أن أفراد هذه الجماعات لم ينثنوا عن عزمهم ، وباتت مدينة ميلان ملاذا لهم من وجه الاضطهاد وللفارين من أمثالهم من المانيا وفرنسا . وقد عرف عن أطهار ميلان ثقافتهم العالية ،إذ درج أفراد الجماعة فيها على إرسال أبنائهم النابهين للتعلم فى جماعة باريس ليستعينوا بسلاح العلم فى الدفاع عن معتقداتهم .

ويبرز بين هؤلاء ثائر مرموق هو أرنولد من بريسكيا الذى سافر إلى باريس ودرس على يد أستاذ حر هو بطرس أبيلارد ، فتشرب منه الأفكار الحرة سواء فى اللاهوت أو فى فروع الفلسفة والمنطق . وبعد الانتهاء من دراسته فى باريس عاد أرنولد إلى موطنه الأصلى فى الشمال الايطالى ، ورسم كاهنا ، ومن موقعه هذا أخذ أرنولد يجاهر بآرائه الإصلاحية : فقد أعلن أن امتلاك رجل الدين ، كاهناً بسيطاً كان أو اسقفاً أو من البابوات ، لأملاك خاصة إنما هو أثم كبير لايتفق مع واجبه الدينى . وقد لقى هذا الكلام قبولاً طيبا لدى الأهلين الذين كانوا قد ضجوا من مفاسد كبار رجال الدين وتضخم ثرواتهم . وقد انزعجت الدوائر الدينية من اراء أرنولد ، فلما انعقد المجمع اللاتيرانى سنة ١١٣٩ م أدينت آراء

ارنولد وقرر البابا عزله من سلك الكهنوت ثم طرده إلى خارج إيطاليا . وهرب ارنولد إلى باريس ليحتمى بجوار أستاذه بطرس ابيلارد ، وفى اثناء غيابه كان الناس يتغنون فى الطرقات بارائه ، ووصلت هذه الآراء إلى قلب روما نفسها ، فحدث فيها تمرد ضد البابوية ونادوا بمصادرة أملاكها واقامة قوميون لمدينة روما لاعلان استقلالها الذاتى . أصدر البابا قراراً بالقبض على ارنولد واستاذه ابيلارد وايداعهما السجن ثم أحراق كتبهما جميعاً .

وفى حين أن الاستاذ قد امتثل لحكم البابا وتراجع عن مواقفه الثورية ، إلا أن التلميذ قرر ألا يتراجع والا يستسلم . وتحت ضغط البابوية قام الملك الفرنسى بطرد أرنولد من فرنسا ،فسافر منها إلى المانيا ثم إلى سويسرا ، وأخيرا عاد إلى موطنه الأصلى فى شمال إيطاليا .وتجمع أطهار لومبارديا حول أرنولد ، وراح هو يخطب فيهم ، مشبهاً البابا وكرادلته بالفريسيين والكتبة المنافقين،كما نشر فضائحهم واشار إلى مجالسهم ومجامعهم على أنها « مغارات » لصوص وأوكار للثعالب ، وتطاول إلى حد تشبيه الكاهن الأكبر « بكلب الصيد المفترس» الذى يحشو خزائنه بطعام الفقراء والجائعين . وعند هذا الحد اضطر البابا هادريان الرابع إلى الإلتفاف إلى عدوه اللدود فردريك بربروسا امبراطور المانيا فصالحه وطلب منه القضاء على أرنولد .وبالفعل لبى بربروسا النداء البابوى فقاد حملة سنة ١١٥٥ م ضد الشمال الايطالى ،وقبض على أرنولد وأمر بشنقه، ثم أحرق جسده وذر رماده فى نهر التيبر . وفى مقابل هذه المذبحة الظالمة كافىء البابا هادريان حليفه بربروسا بأن توجه امبراطوراً فى مدينة روما .

وفى فرنسا كان الناس قد ضاقوا أيضاً من مسلك رجال الدين ونبلاء

الاقطاع ، خاصة لأنهم كانوا عقبة أمام قيام القوميونات فى المدن الجديدة النامية . كذلك أدرك الأهلون فى القرن الثانى عشر أن الحملات الصليبية التى روجت لها البابوية منذ أواخر القرن الحاى عشر كانت خدعة كبرى لتحقيق المآرب الذاتية تحت شعار الدين . ولقد ظهرت فى فرنسا سلسلة من الثوار ، كان اولهم بطرس دى بروى (Pierre de Bruys) الذى كان كاهناً متمرداً ، فخلع من سلك الكهنوت بسبب آرائه حيث كان ينادى بعدم جدوى الكنائس وطقوسها وكهانتها فهى جميعاً ـ فى رأيه ـ مجرد مسرحية زائفة . أما الصلاة الجنائزية على أجساد الموتى فهى امتهان للميت وللحى معاً ، إذ كيف يمكن للحى أن يشفع للميت ؟ وأما زواج رجال الدين عنده فهو خطيئة كبرى . وبسبب هذه الآراء قامت الكنيسة بتحريض الغوغاء على بطرس هذا ، فهجموا عليه وقتلوه علانية سنة ١١٣٧ م .

ثم جاء من بعده ثائر آخر اسمه فزى دى لوزان ، ونادى بنفس المبادىء التى مات من أجلها بطرس وانتشرت هذه الآراء فى مدن لى مانز ، وتور،وريمز، وبوردو . وأخيرا نصادف أهم ثوار الجنوب الفرنسى فى هذه السلسلة وهو بطرس والدو (Waldo) من أهالى ليون . كان والدو فى الأصل تاجراً ثرياً كون ثروته من عمليات الربا ، وذات يوم وهو فى الطريق صادف واحداً من الشعراء الجوالين ينشد سيرة واحد من الزهاد القدامى اسمه الكسيس ، الذى كان نبيلا رومانيا غنياً ثم تخلى عن ضياعه وقصوره واعتق عبيده وسلك درب الفقراء والزهد ، ثم راح يطوف بلدان الغرب الأوربى ليقتات على التسول «وخبز المسكنة »(١١١) . وما أن انتهى الشاعر المنشد من البيت القائل : « قم وزع

مالك واتبعنى » ، حتى أصيب والدو بمس عميق فى نفسه قلب اسلوب حياته رأساً على عقب : فقرر سلوك نفس الدرب مثل الكسيس فقفل عائداً إلى داره واستدعى زوجته وخيرها بين أمرين : إما رفقته على درب الفقر أو ميراث ثروته ، وكان طبيعيا أن تؤثر الزوجة ميراثه الضخم .

ولكن والدو سخر منها وعنفها على تمسكها بزيف هذا العالم ، ثم بدأ فى توزيع كل ما يملك على الفقراء والمعوزين ،ورد لكل من تقاضى منه دينا حقه كاملاً معلنا ندمه على الكسب الحرام بالربا . وهكذا قضى والدو على كل ما كان يملكه من مال ومتاع ، ثم ارتدى مسوح النسك وراح يطرق بوابات الأديار يشحذ كسرة من الخبز يقتات عليها .

جن جنون الزوجة ، فهرعت إلى أسقف ليون تشكو إليه حال زوجها ومسلكه الشائن وتطلب منه أن يرده إلى صوابه .وكان والدو ضئيل الثقافة ، ولا يعرف اللسان اللاتينى ، فطلب من أحد أصدقائه المتعلمين أن يترجم له الكتاب المقدس إلى اللغة الفرنسية الدارجة .وتلقف الترجمة وأخذ يجوب القرى والكفور يعظ الناس بمحتواها ،مبشراً بضرورة العودة إلى حياة البساطة الأولى . وتزاحم الناس يشاهدون هذا التاجر الثرى الذى وزع ثروته على الفقراء مؤثرا «غنى الروح على كنوز الجسد » فانضم الكثيرون إلى موكبه وراحوا ينشرون آراءه .

وانزعج اسقف ليون لأن بعض ماورد فى الترجمة الفرنسية للكتاب المقدس عن اللاتينية كان محرفاً ومغلوطاً ،فأمر والدو وأتباعه بعدم الوعظ مطلقا . ولكن والدو لم يهتم بتهديدات الاسقف ، فطرده الاسقف وأعوانة كلية من مدينة ليون . وفى سنة ١١٧٩ م سافر وفد من اتباع والدو إلى روما وقابلوا البابا

اسكندر الثالث يشكون إليه اسقف ليون . ومع أن البابا سمح لهم بحياة الزهد التى قد اختاروها طواعية ،إلا أنه أصر على عدم إقدامهم على الوعظ باللسان الفرنسى ، ثم أحالهم إلى اسقف انجليزى اسمه والترماب لعله يثنيهم عن آرائهم ومسلكهم .

على أنه بعد قليل انعقد مجمع دينى فى ڤيرونا وأصدر قراراً بتجريم جماعة والدو بتهمة « الهرطقة » .وأمام هذا تجمع اتباع والدو فى مدينة ألبى (Albi) فى الجنوب الفرنسى واتخذوها مركزا لنشاطهم ، ومن هذه المدينة اشتق اسمهم الجديد « الألبجنزيون » (Albigenois) ، وكان أول من أطلق عليهم هذه الكنية كاتب معاصر يدعى بطرس دى ڤوه دى سرناى فى مؤلف له بعنوان «تاريخ الألبجنزيين » (١١٢) .

وأتباع والدو من الاطهار درجتان : الأولى تضم « الكاملين » (Perfecti) وهم الذين يراعون فى حياتهم الزهد والطهر الكاملين ، وهم يشتهون الموت ولاينزعجون من الاضطهاد ، وهم على اعتقاد بأنهم عقب وفاتهم تنفصل أرواحهم النقية عن الجسد وتتصل بالروح الأعلى والكلى الخالص فى ملكوت السموات . أما الدرجة الثانية فتتألف من « المصدقين » (Credentes) وهم يجاهدون على درب الرجاء أملا فى الوصول إلى درجة الكمال مرحلة تلو الأخرى .وكان هؤلاء وأولاء يضعون ما يملكون فى شركة لصالح الجماعة جميعاً ، لكل نصيب يساوى نصيب الآخر . وقد تمسلك الجميع بتعاليم الزهد والطهارة وحفظوا نصوصها وتعاليمها عن ظهر قلب . وهم متواضعون فى الحديث ،وملبسهم بسيط ،ولا يكذبون أويحلفون ،ولا يقبلون العمل بالتجارة خوفاً من شبهة الربح الحرام . ومبدأهم الاساسى : « بعرق جبينك تأكل خبزك

» ، واشتهر عنهم العمل بصناعة الأحذية وإصلاحها ، وهم لا يفرطون فى الطعام ولايترددون على الحانات أو المراقص ، ويكثرون من المطالعة والدرس والصلاة ، كما وأنهم يتحاشون استخدام الألفاظ السوقية والجلوس فى مجالس النمامين . ويتم لقاؤهم عادة فى مغارب اليوم عند أحد « الإخوة » للدرس والصلاة ، وإن أبدى أحدهم تعثرا فى فهم الدرس ، شد المعلم من أزره بقوله : « تعلم فقط كلمة واحدة كل يوم ، وبذلك تتعلم ٣٦٠ كلمة على مدار العام ، ويا لذلك من بركة لنا جميعا ولك أنت أيضا ً.ولقد راجت أفكار والدو بوجه خاص فى الجنوب الفرنسى ـ بلاد لانج دوك (Langue d' Oc) التى يفصلها نهر اللوار عن بلاد لانج دى وى (Langue d' Oi) فى الشمال . والواقع أن بلاد الجنوب الفرنسى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر كانت تتمتع بالرخاء وبمناخ من الحرية دونا عن سائر بلدان أوربا ، وذلك بسبب انتعاش المدن الجديدة فى ناربون ، وتولوز ، وألبى ، وبيزيه ، وكركاسون . وكان كونتات تلك المناطق من النبلاء المستنيرين الذين شجعوا الآداب وفتحوا دورهم للشعراء والمنشدين الجوالين . ومن ثم ظهرت فى الجنوب الفرنسى نزعات للتحرر والانعتاق من تزمت الكنيسة وضغوط الملكية الاقطاعية .وكان أتباع والدو موضع الاحترام نظراً لحسن سيرتهم ، وطلاوة لسانهم حتى أن الناس أطلقوا عليهم « القوم الطيبين » (Bos homes) بلغة العصر .

وفى سنة ١٢٠٢ م تم لقاء بين اتباع والدو وبين الفئات الساخطة فى الشمال الايطالى الذين عرفوا باسم « المتضعين » (Humiliati) ، ومن هذه الجماعة الايطالية تعلم اتابع والدو أنه لا يليق برجل الدين الآثم أن يعظ الناس

أو أن يمارس الأسرار الدينية ، لأن فاقد الطهر لا يعطى طهراً . وعليه فقد نادوا بأنه ليس هنا لك ثمة ما يمنع من أن يعترف المصلون لرجل علمانى صالح بدلاً من الاعتراف لكاهن خاطيء .على أنه فى سنة ١٢١٨ م تم لقاء آخر بين الجماعتين ونظراً لتشدد أتباع والدو فى ضرورة « التبتل » وقع خلاف بين الفئتين وافترقتا عند بلدة برغامو . وقد اشتط نفر من اتباع والدو فى الزهد فأحجموا عن العمل تماماً ،مكتفين بما قد يجود به عليهم الكرام من صدقات. واعتقد هؤلاء أن لا قيامة للجسد بعد الموت ، إذ كيف تكون قيامة لفساد مادى ؟ .

وقد ظهر « الأطهار » ايضا فى بلاد فلاندرز ، وإن كان ظهورهم قد جاء متأخرا عن أقرانهم فى لومبارديا والجنوب الفرنسى . ومجتمع فلاندرز كان آنذاك مؤلفا من طبقتين : الأولى طبقة النبلاء وأصحاب مصانع الصوف ، والثانية طبقة العمال والنساجين (Textores)، ومن هذا الاسم الاخير اقترنت جماعة « الأطهار » فى فلاندرز بعمال النسيج ، وقد نادى النساجون بضرورة تحقيق العدالة على وجه الأرض ، واستنكروا الكهانة وانفاق الأموال الباهظة على بناء الكاتدرئيات ، محتجين بأن الرب رب القلوب النقية ومعين السواعد الكادحة وليس رب بنايات وتماثيل زينة . والنساجون بعد هذا لا يقرون مبدأ الحرب ، ويفضلون اسلوب البساطة وحياة الزهد . وتنسب الطائفة الباكرة من أطهار فلاندرز إلى لامبرت لى بيج (Le Begue) أى « المتلعثم » وهو أصلا من بلدة ليبيج ، وقد قام سنة ١١٨٠ م بشن حملة ضد مفاسد رجال الدين ، فألقى اسقف البلدة القبض عليه ثم أمر بإعدامه ، وقيل أنه قبل إعدامه كان قد

جمع عدداً من فضليات النساء وأنزلهن فى دار للأطهار بعيداً عن شرور وغوايات العالم ، وعرفت هذه الدار باسم « بجوان » (Beguin) وهى كلمة مشتقة من لفظة «بج » (Beg) السكسونية ومعناها مجموعة نسائية تلتزم مريداتها بحياة الطهر. وأهم واجبات هذه الجماعة القيام بالتمريض واستضافة الغرباء وأبناء السبيل ، وكن يعتقدن أن الخضوع لسلطة البشر إثم كبير ، لأن من تحل به روح الله لا ينبغى له أن يخضع لسلطان عبيد الله ولا للكنيسة ؛ «فحيثما حلت روح الله انتفت العبودية للبشر وحلت الحرية بتمامها » .

وسرعان ما حذا رجال فلاندرز حذو نسائها ، فأقاموا بيوتات مثيلة عرفت باسم « بجرديان » (Beghardian) ، عاش أفرادها على الزهد والعمل بسواعدهم ،غير أن نفرا منهم ملوا هذه الحياة ، فهجروا الدار وهاموا على وجوههم فى أصقاع أوربا يبشرون بالمسكنة والزهد ، وانتشرت تعاليمهم فى وادى الراين حتى تمركزوا فى القرن الثالث عشر فى بلدان كولون ، وميتز ، وستراسبورج ، ومينز . ويتصل بهذه الجماعات طائفة أخرى ظهرت فى بلدة أنتورب ، وعرفت باسم « لولارد » (سنة ١٣٠٠ م) ،وقد اهتمت هذه الجماعة بالعناية بالمرضى والمجانين ودفن الفقراء ،وكانوا يحصلون على المال اللازم لتقديم خدماتهم المجانية من عرق جبينهم أو من التسول . وينسب هؤلاء إلى زعيمهم لولارد والتر ، الذى تم القبض عليه سنة ١٣٢٧ ، وعرض لعذاب شديد ، ولكن عزمه لم يهتز . وعندما أحرق لم ينبس بكلمة واحدة تنم عن خوف أو جزع .

وفى هذا المنعطف التاريخى ظهر العبقرى دانتى الليجبيرى (١٢٦٥ –

١٣٢١) ابن فلورنسا الأعظم . وقد أقمحت فلورنسا بسكانها القليلين (٣,٠٠٠ نسمة) فى دائرة الصراع المستعر بين البابوية والامبراطورية . وأختار الفلورنسيون مناصرة حزب الجويلف المعادى للامبراطورية الألمانية ، غير أن الجويلفيين سرعان ما انقسموا إلىَ فريقين عرفا « بالبيض والسود » وانتصر السود على البيض بمعونة البابوية والملكية الفرنسية . وكان من ضحايا هذا الصراع الشاعر دانتى نفسه الذى نفى خارج وطنه .

وفى منفاه بدأ دانتى اخراج أعظم ما عرفه الغرب الأوربى من شعر فى ملحمته « الكوميديا الإلهية » والكوميديا مستوحاة من الكتاب السادس من «انياد » الشاعر الفذ ڤرجيل حيث تظهر ديدو ملكة قرطاج لحبيبها البطل اينياس وهو يتحسس طريقة فى العالم السفلى . ومن هذا النبع استلهم دانتى ملحمته بلغة ايطالية عذبة وبأوزان موسيقية لا مثيل لها ، إلى جانب خيال خصب ولوحات تشكيلية أثارت ذهول المعاصرين والمحدثين على حد سواء . وسواء فى الجحيم أو المطهر أو على أعتاب الفردوس يصور دانتى شخوصاً من صميم سجلات التاريخ ،فنقابل آخيل وتريزياس وسانت فرانسيس ثم بياتريس الحب الضائع لدانتى نفسه . كما وأن السطور الشعرية التى نطالعها من عواصف تجتاح الغابة ،ومن ضفادع تقفز إلى جداول الماء من جوف الأفاعى ،ومن زواحف تمرق على الدرب كومضة البرق ، ومن أجساد عارية تتصبب زيتا ،ومن أم تحتضن وليدها لتنجيه من سعير النار ــ كل هذه الصور الشعرية تنم عن عبقرية متفردة .كذلك نقابل فى الجحيم عدداً وافراً من البابوات الذين اتخذوا من الدين قناعاً لمداراة فسادهم ،ونقابل أيضا السيدة النبيلة فرانسيسكا التى

تعترف لدانتى أنها بعد أن طالعت قصة لانسلوت وعلاقته الآثمة مع جونيڤير زوجة الملك آرثر أقدمت على الخطيئة وهى فى كامل وعيها وألقت بنفسها طواعية فى أحضان عشيقها پاولو دون أن تشعر بوخز ضمير ، ومن ثم فهى ليست نادمة على فعلتها حتى فى قلب النار ! .

وإلى جانب الكوميديا أخرج دانتى كتابا باللغة اللاتينية بعنوان « عن الملكية » (De monarchia) ، وفيه يدعو دانتى إلى نظام حكم عالمى يفوض فيه الحاكم من قبل السماء لارساء قواعد العدل الالهى والسلام الأرضى ، شريطة ألا يكون للبابوية فى هذا النظام أى دخل أو هيمنة من قريب أو بعيد .

ولهذا فإن البابا يوحنا الثانى والعشرين قد أمر بإحراق هذا الكتاب الذى يجرح فيه دانتى منصب البابوية وصلاحيتها .كما وأن دانتى هنا يهاجم البابوية وكنيسة روما لأن كرادلتها وسيدهم قد تخلوا عن البساطة الأولى للإيمان وغرقوا حتى آذانهم فى مستنقع الفجور والدعة .

ولذا فإن دانتى فى الانشودة الحادية عشرة فى فردوس الكوميديا يروى مقابلة مع القديس توما الاكوينى صاحب سيرة القديس فرانسيس من اسيسى الذى هجر متاع العالم واختار حياة الزهد والتقشف والعفة . ويؤكد دانتى بأن الخير كل الخير للإنسان الفرد حيثما كان موقعه أن يزين حياته بأحلى الفضائل وهى « فضيلة الفقر » (Lady Poverty) .

أمام هذه الاراء والتعاليم التى نادى بها الأطهار ، شعرت الكنيسة الرومانية وكبار رجال الدين فى أوربا أن هذه الجماعات تمثل تهديداً خطيراً لكيانهم ، بل وتلغى مبررات وجودهم أساساً . وكان طبييعا أن تنزعج الدوائر الدينية فى

أوربا من ذلك كله ، فبادرت باستخدام اسلحتها التقليدية من قرارات اللعنة والحرمان والقطع . ولما أثبتت هذه السبل عدم جدواها أقامت محاكم التفتيش لمحاكمة واحراق هؤلاء الأطهار بتهمة الهرطقة . وفى آخر المطاف لجأت البابوية إلى شن «حرب صليبية » بقصد استئصال شأفتهم .

وقد لايجد المرء غضاضة إزاء ردود فعل رجال الدين فى الدفاع عن أنفسهم ومؤسساتهم لو أنهم اعطوا المثل الطيب أو القدوة الحسنة فى أسلوب حياتهم كرجال دين ،ولكن واقع الأمور يشير إلى عكس ذلك تماماً ؛ فلقد وصلت البابوية إلى الدرك الأدنى فى وحل الرشوة والدعة والفجور ،وبات الفاتيكان بيت سوء .والأدلة على ما نذهب إليه لا تحصى ، ولكن يكفى أن نشير فى هذا المقام إلى طرف من سيرة واحد من البابوات هو اسكندر السادس بورجيا الذى تولى العرش البابوى سنة ١٤٩٢ م . وهو من اصل اسبانى ،وكان عمه البابا كالكستوس (١٤٥٥ ـ ١٤٥٨ م) قد عينه كاردينالا ، ولما توفى العم باع بورجيا صوته بمبلغ دسم للبابا بيوس الثانى ، وفعل نفس الشىء مع خلفه انوسنت الثامن ، وأخيراً فى سنة ١٤٩٢ م عندما نضجت الثمرة اعتلى هو العرش باسم اسكندر السادس .

وقد عرف عن بورجيا أنه لم يكن يطيق حضور صلوات القداسات ، وإن اضطر إلى الحضور فإن القائم بالصلاة يختصرها للغاية فلا تتعدى نصف الساعة.

وكان بورجيا شديد الغرام بالنساء ، وكان يحيط نفسه بالراقصات ، ويروى المعاصرون أنه «لم يكن لينام فى فراشه بمفرده » [١١٤]. وكان لبورجيا أبناء

وبنات لقطاء كثيرون ، خاصة من امرأة تدعى ڤانوتزا التى أنجبت كلا من قيصر، وجان ، ولوكريس ، وجوفرى .كما رزق من أخرى بكل من جرومين ، وايزبيل ، وبياروليس ، ولورا . ومن خليلاته أيضا جوليا فرانيزى ،وقد أورد الكاتب المعاصر انفسورا (Infessura) فضائح عديدة تتصل ببورجيا وزوجه جوليا وابنته لوكريس ، خاصة يوم زواج هذه الابنة من جان سفورزا[١١٥] .

وفى افة السيمونية وصل الحد ببورجيا إلى بيع مناصب الكرادلة بالمال ،وقد بلغت الرشوة للحصول على هذا المنصب الدينى الكبير مبلغ مليون ومائتى الف قطعة من الذهب . ولقد حفر المعاصرون هجاء ساخراً على جذع شجرة فى بلدة باسكونيو تشهر بنزوات بورجيا ، وبجره روما إلى درك الجحيم السفلى مثلما فعل من قبل البابا يوحنا الحادى عشر والطغاه القدامى من أمثال تاركوينوس ونيرون .وقد تفنن بورجيا فى الاستيلاء على أموال وأملاك الاساقفة الاغنياء عقب وفاتهم ،ولم يكن يتورع عن دس السم لمن يريد التخلص منه من معارفه أو من خصومه لكى يرث أملاكهم بالتزييف ، ولم يسلم من يده رجل كهنوت أو علمانى فى روما . ولقد ذاع للسم الخاص الذى كان يستخدمه والذى أعده له أمهر الصيادلة فى روما اسم خاص هو « كانتاريللا » (Canta-rella) .

ولكل ظالم نهاية : فقد أعد بورجيا وابنه قيصر السم للتخلص من الكاردينال هادريان ، ولكن القدر تدخل عندما شرب الكاردينال ـ بطريق الخطأ ـ من الكأس السليم ، وتجرع البابا وابنه من الكؤوس المسمومة فكانت نهايتهما جزاءاً وفاقا[١١٦] .

إن المسئول عن قيام محاكم التفتيش (Inquisition) فى أوربا هى الكنيسة الرومانية ،وقد بدأت الفكرة فى عهد البابا لوسيوس الثالث ثم اكتملت فى عهد البابا انوسنت الثالث فى المجمع اللاتيرانى الرابع سنة ١٢١٥ م . وتتألف محكمة التفتيش من : المفتش العام ، والنوتارى (Notarius) ،ونائب المفتش ، والمسجل القانونى ، والمستشار ، والحليف (Socius) ، والمحلفون ، وعدد من الضباط وحاملى الرسائل والمخبرين (Exploratores) والسجانين . وللمحكمة أن تستخدم كل الاساليب التى تراها للوصول إلى أهدافها ، من تعذيب (Vexa-tio) للمتهم للحصول منه على الاعتراف بالهرطقة ، ومن احتجاز المتهم فى سجن خشن ضيق مقيداً بالأغلال ومحروماً من الطعام والشراب ،والنوم فى زنزانة خانقة لاتسمح له حتى بمجرد الوقوف على القدم ،وقد عرفت هذه الزنزانات باسم « السجن الخشن » (Carcer Durus) ، ولقد جرى المثل على لسان رجال محاكم التفتيش بأن « البلاء يفتح الأفواه المغلقة » . ومن أساليب التعذيب أيضا تعليق المتهم من يديه ورجليه على الحائط (Chevalet) ،ومنها رفع المتهم إلى ربوة عالية ثم دفعه إلى أسفل (Estropade) ، ومنها أيضا الكى بشعلة نار ملتهبة ، وأيضا طرح المتهم على طاولة فى وضع مثلث مع ربطه بحبل معقود يشمل اعضاء جسمه ، وينتهى الحبل برافعة لرضرضة أعضاء الجسد الموثوق وتمزيقها إربا . ومن الوسائل البشعة أيضا تعريض قدمى المتهم بعد دهنها بالشحم إلى نار ملتهبة . والغريب بعد هذا كله أن المحكمة تسجل فى سجلاتها أن « المتهم قد أدلى باعترافاته طواعية » . وبعد التعذيب والاعتراف تصدر المحكمة حكمها على المتهم فى مكان عام من البلدة التى

ينتمى إليها المتهم وذلك بفم المفتش العام نفسه ، وكانت أغلب الأحكام الإعدام حرقا ، وأقلها بالسجن المؤبد . وقد عرف فى بعض الحالات أن فرض عل أصحابها ارتداء زى خاص وقت النطق بالحكم ، ففى حالة احراق جان دارك الفرنسية سنة ١٤٣١ م مثلا ، كان على الفتاة ان تضع على رأسها غطاء نقشت عليه العبارة التالية « هرطقية عاصية وساحرة شيطانية مرتدة » .

ولقد أقر الفقهاء اللاهوتيون مثل جراتيان ، وروفينوس ، ويوحنا التيوتونى عقوبة الموت للهراطقة ، وسار على فتواهم تلك كل من كبير اساقفة ريمز ، وكونت فلاندرز ، وملوك فرنسا وانجلترا ، وكبار الكونتات فى فرنسا والمانيا ، وملوك اراغون ، حتى أقر الاعدام رسميا فى مجمع اللاتيران سنة ١٢١٥ م على عهد البابا انوسنت الثالث .

وقد أبدى البابا انوسنت الثالث اهتماما خاصاً لقمع جماعة والدو فى الجنوب الفرنسى ، فبدأ بمحاولة كسب تأييد رايموند السادس كونت تولوز لجانبه ضد الألبجنزيين ، ولكن رايموند كان متعاطفاً مع هذه الجماعة لا حباً فى مبادئها وانما نكاية فى نفوذ كبار رجال الدين المتزايد فى أراضيه .التفت البابا إلى فيليب أغسطس ملك فرنسا للتدخل على رأس « حملة صليبية » ضد الألبجنزيين فى الجنوب الفرنسى ، ولكن فيليب كان منهمكاً فى حربه ضد يوحنا ملك الانجليز حول دوقية نورمانديا .ولذا فإن البابا فعل ما فعله من قبل البابا أوربان الثانى فى مؤتمر كليرمونت سنة ١٠٩٥ م ، فأعلن فى ١٥ يناير ١٢٠٨ م عن عزمه شن حملة صليبية ضد هراطقة الجنوب الفرنسى ووعد من يشارك فى هذه الحملة بنصيب من الغنائم من أملاك الهراطقة إلى جانب وعد

بغفران الخطايا . ولكن الملك الفرنسى وجد فى هذا المسلك البابوى تحرشاً ببلاده ، فكتب إلى البابا موضحاً له أنه ليس من حقه شن هذه الحملة إلا بعد أن يصدر إدانة صريحة للكونت رايموند السادس بالهرطقة ، خاصة وأن رايموند واحد من أفصال الملك ولا يجوز الحكم بمصادرة أملاكه أو نهبها كغنيمة إلا بعد الحصول على موافقة التاج الفرنسى على ذلك[١١٧] .

أوفد البابا انوسنت الثالث مندوباً عنه اسمه بطرس دى كاستللينو إلى الجنوب الفرنسى ،ولكن الكونت رايموند اعترض على مهمته إلى بلاده ، فأصدر المندوب قراراً بالحرمان ضد رايموند ثم قراراً بالقطع (Interdict) ضد أملاكه .

إستاء رايموند من موقف المندوب البابوى ، فتسلل واحد من اتباع رايموند واغتال المندوب البابوى على مقربة من بلدة سان جيل ، وهنا دعا البابا انوسنت الثالث علانية إلى حملة صليبية ضد الجنوب الفرنسى . سارع الآلاف من الفرسان المفلسين فى الشمال الفرنسى يلتفون حول اللواء البابوى فى هذه الصليبية أملاً فى الاستيلاء على ثروات الجنوب الفرنسى وغنائمه .وأسقط الكونت رايموند فى يده ، فبادر يعلن الندم على مقتل المندوب البابوى وحمل الصليب ليحارب بنفسه ضد الهراطقة لارضاء البابا . ولكن انوسنت الثالث أهمله تماما وأمر رجال الحملة بغزو أملاك رايموند .

تحركت الحملة الصليبية بقيادة نبيل من رجالات باريس اسمه سيمون دى مونت فورت إلى جانب المندوب البابوى الجديد ارنولد امالرك . وأقدم رجال الحملة على مذابح رهيبة اشهرها ما تم فى حصار وسقوط بلدة بيزييه إذ قتل

الصليبيون ١٥,٠٠٠ من سكانها دفعة واحدة[١١٨] . ونهبت وسلبت مدائن كركاسون ناربون دون رحمة أو هوادة .. كذلك كافىء المندوب البابوى نفسه بمنصب كبير اساقفة ناربون ، وهى أغنى اسقفيات البلاد .

التفت الكونت رايموند إلى حليفة بطرس ملك أراغون يستنجد به، ولكن سيمون دى مونت فورت ألحق الهزيمة بالملك الأراغونى وقتله فى معركة ميريه (Muret) سنة ١٢١٣ م . ثم انعقد مجمع اللاتيران سنة ١٢١٥ م برئاسة البابا انوسنت الثالث ، وفيه تقرر ادانة رايموند السادس كونت تولوز بالهرطقة ومصادرة أملاكه ، كما قرر المجتمع توزيع الأراضى التى استولى عليها الصليبيون كغنائم على قواد هذه الحملة .

وجد الملك الفرنسى فيليب اغسطس نفسه فى موقف حرج ،فاضطر إلى الأعتراف بالأمر الواقع ،وإلى أن يقبل سيمون قائد الحملة كفصل من أفصاله على أن يقطعه مناطق بيزييه وتولوز وكركاسون . أما الكونت رايموند فقد أصيب بيأس قاتل ، فترك الأمور إلى إبنه ووريثه رايموند السابع واعتزل الحياة. وكان الوريث شابا جسوراً عنيداً ، فجمع رجاله وهجم على تولوز ، وعند اسوارها تم اغتيال سيمون دى مونت فورت .

وضربت الفوضى أطنابها فى الجنوب الفرنسى ،واضطر الملك فيليب إلى أن يرسل ابنه لويس الثامن على رأس جيش لتصفية الموقف المعقد ، وزوده بعدد من الاساقفة الفرنسيين . أقام لويس معسكره قرب بلده لاجنيه (L"Agenais). ثم هجم على مناطق مارماند ودمرها وذبح سكانها ،ولكن مدينة تولوز ظلت صامدة منيعة فى وجه لويس وفرسان شمالى فرنسا .

وشعر لويس بالملل والفتور فقرر العودة برجاله إلى باريس ، وبعدها خرج الأطهار الالبجنزيون من مخابئهم فى الجبال ، والتفوا حول رايموند السابع .

توفى فيليب اغسطس فخلفه على عرش فرنسا ابنه لويس الثامن ، ثم ما لبث أن توفى البابا انوسنت الثالث (١٢١٦ م) فخلفه على العرش البابوى البابا هونوريوس الثالث . وكان طبيعيا أن ينزل البابا الجديد قرارا بالحرمان ضد الكونت رايموند السابع استمراراً فى السياسة التى بدأها سلفه الراحل ، إلى جانب قرار بمصادرة أملاك الكونت ونقلها إلى حوزة التاج الفرنسى .

وفى مقابل هذه المكافأة السخية أخذ الملك لويس الثامن على عاتقه مهمة البابوية فى تثبيت دعائم محاكم التفتيش فى الجنوب الفرنسى لقمع الألبجنزيين . ولكى يبالغ الملك فى إرضاء البابا قرر أيضا اقامة محاكم التفتيش فى شمال فرنسا ، وكانت هذه المرة الأولى التى يصدق فيها القانون الفرنسى على عقاب الهراطقة بالإحراق بالنار(١١٩) .

بعد هذا أمر لويس الثامن جيوشه بالاستيلاء على مدينة أفنيون بسبب رفضها عبور الصليبيين لأراضيها نحو الجنوب ، فدمرت اسواره وانتقم من سكانها شر انتقام .ثم عين لويس مندوبين عنه برتبة سنيكال (Senchal) للاشراف على الأراضى المصادرة فى الجنوب الفرنسى . وانقض فرسان الشمال على مدن الجنوب الواحدة بعد الأخرى نهبا وسلبا وتقتيلا تحت شعار الصليب ووعيد محاكم التفتيش .

وفى عهد الملك لويس التاسع ووالدته القشتالية بلانش الوصية على العرش، قسمت بلاد الجنوب إلى اقطاعيات فاز منها البابا بنصيب الاسد فى ماركيزية

بروڤانس ،كما حصل التاج الفرنسى على الأراضى الواقعة بين نهر الرون والبحر الأبيض المتوسط .والغريب فى الأمر أن الكونت رايموند السابع قد تحول عن موقفه وانضم إلى قوى العدوان ضد الألبجنزيين بدلاً من الدفاع عنهم . ففى سنة ١٢٢٣ م سمح رايموند السابع لمحاكم التفتيش بممارسة نشاطها فى قلب اراضيه ،وفى سنة ١٢٤٩ م أمر بإحراق ثمانين من الألبجنزيين بتهمة الهرطقة فى بلدة اجين (Agen) .

تعكس الآداب الشعبية لهذه الفترة العصيبة مشاعر السخط والغضب لدى بسطاء الناس إلى حد تسفيههم لطقوس الكنيسة المنافقة ،ونسوق هنا مثالاً واحداً على سبيل المثال لا الحصر :

البعض بات يرفض العماد

البعض كشف عن الشكوى لرب العباد

محاكم الكنيسة تحرق القوم إلى رماد

النار تصلى تدمر الأبدان والأجساد

وكم من رأس برىء قطفت قبل الميعاد »(١٢٠) .

هذا وقد كان لويس التاسع اسوأ حاكم علمانى شجع على ترسيخ أقدام محاكم التفتيش فى فرنسا لكى يرضى معاصريه من البابوات وهم جريجورى التاسع وانوسنت الرابع .

وقد وكل لويس مهمة التفتيش والمحاكمة إلى رهبان الدومنيكان . الذين أرهبوا صغار الكهنة وبسطاء الناس بجبروتهم وبالتكشير عن أنيابهم ،وأرسلوا إلى

المحرقة أعداداً لاتحصى بتهمة السحر تارة والهرطقة أخرى . وقد ذكرنا فى فصل سابق كيف بطشت محاكم التفتيش بالرهبان الداوية على عهد الملك فيليب الرابع ، وكيف اقتيد رئيس الداوية نفسه جاك دى موليه وتلاميذه للمحاكمة سنة ١٣١٤ م ، وتم إحراقهم جميعاً بتهم ملفقة . وفى فترة الأسر البابلى للبابوية فى أڤنيون ، تحالف التاج الفرنسى مع البابوية فى تلفيق الإتهامات ضد العديد من الأبرياء إما لمصادرة أملاكهم أو تصفيتهم جسدياً ، وهذه الرذيلة قد ظلت واحدة من أسوأ رذائل الملكية الفرنسية حتى قيام ثورتها الكبرى سنة ١٧٨٩م .

وحتى جماعة الرهبان الفرنسيسكان لم تنج من بطش محاكم التفتيش ، فعندما نادى فريق منهم بضرورة الرجوع بالعقيدة إلى حياة البساطة الأولى ، أمر البابا يوحنا الثانى والعشرون (١٣١٦ ـ ١٣٣٤م) بتقديمهم إلى محاكم التفتيش ، وسار على نفس السياسة البابا بندكت الثانى عشر من بعده .

وإذا انتقلنا إلى ألمانيا ، نجد أن محاكم التفتيش قد بدأت عندما أصدر البابا أنوسنت الثالث قراراً سنة ١١٩٨ م بأن يسلم أتباع والدو فى بلدة متز كتبهم باللغة المحلية إلى السلطات الكنسية لإحراقها ، ولما امتنع الوالديون عن تسليم هذه الكتب أوفد البابا ثلاثة من رجاله قاموا بجمع هذه الكتب قسراً ثم تمّ إحراقها .

وبعد ذلك ببضع سنين اضطلع الأسقف برتراند فى بلدة متز بحملة ترشيدية لرد الوالديين عن معتقداتهم ، ولكنه فشل فى مهمته . وفى سنة ١٢١٣م اتهمت السلطات الكنسية جماعة من الأطهار الألمان بشيوعية العيش

والجنس ، وقامت بشنق عدد منهم ، وفى سنة ١٢٢٩ م اتخذت اجراءات قمع أخرى ضد أتباع هذه الطائفة فى ستراسبورج. ثم عين البابا جريجورى التاسع مفتشاً كنسياً عاماً على ألمانيا هو كونراد من ماربورج ، وزوده بصلاحيات كبيرة لشن حملة إبادة ضد الهراطقة الألمان .

وكان كونراد هذا رجلاً جباراً ، جر الآلاف من الأبرياء إلى المشنقة أو المحرقة ، وكان يكفى عنده أن يشى جار بجاره بتهمة الهرطقة فيجر أهل البيت جميعاً إلى المشانق . وقد بلغ الشطط بهذا الرجل إلى حد أنه لفق اتهامات باطلة ضد الكثيرين من خصومه ، ومن بينهم كونت أرنزبرج ، وكونت لوز (Looz) ، وكوين ساين (Sayn) فى منطقة تريث . إلا أن النبلاء المتهمين طلبوا من كبير أساقفة ميتز أن يعقد مجلساً لفحص قضاياهم ، وتدخل الملك الألمانى نفسه فى الأمر . وفى المجمع الذى عقد للنظر فى هذه القضية ، فشل المفتش كونراد فى أن يبرز أدلة قاطعة تدين هؤلاء النبلاء المتهمين ، بل أن بعض شهود الإثبات قد تراجعوا عن شهادتهم الأولى وأعلنوا أنهم أجبروا تحت التهديد والوعيد على تلفيق هذه الشهادة . وهاج المجمع وطالب البعض محاكمة كونراد نفسه ، ولكنه قاطع المجمع ، وراح يدعو إلى شن « حملة صليبية » ضد خصومه بتهمة الهرطقة فى شوارع مينز . ولما أن تعثر مشروعه قفل راجعاً هو وزبانيته إلى بلدة مربورج ، وعند أطراف هذه المدينة هجم عليه بعض النبلاء وأوقعو به فى كمين نصبوه له ثم قتلوه (١٢٣٣م) .

ونسمع أيضاً عن نشاط الوالديين فى مرتفعات سوابيا وبساو فى سنة ١٢٤٨ م ، وقد بلغ عدد المدارس المجمعة التى كان يتردد عليها أبناء الوالديين

فى بساو إحدى وأربعين مدرسة ، وكان أغلبهم من أبناء العمال والفلاحين. وفى سنة ١٣١٨ م قام الأطهار فى بلدة كرمز (Krems) باغتيال المفتش الدومنيكانى أرنولد ، وفى سنة ١٣٢٩م ردت محاكم التفتيش بإحراق ستة وثلاثين من الأطهار فى بلدة بنجن (Bingen) ، وفى سنة ١٣٥٧م قبض على ألف من الولدانيين وأودعوا السجن فى بلدة ستاير (Steyer) ثم أعدم مائة منهم. وقد نشطت محاكم التفتيش أيضاً فى تصيد أفراد جماعتى « النسوة الطاهرات » و « الرجال الأطهار » من أتباع البنجوان والبجارديان فى ألمانيا لإستئصال شأفتهم . وكان هذا تكملة للحملة التى شنت ضد هاتين الجماعتين فى باريس فى نفس الفترة : فقد قبض على سيدة تدعى مارجريت بوريت وأحرقت حية ، فتشردت جماعتها وألقى بالفتيات فى قارعة الطريق ، وقيل إن عدداً منهن قد اضطررن أمام شظف العيش إلى احتراف البغاء لسد رمقهن ! .

وإذا انتقلنا إلى أسبانيا نجد صورة أخرى من صور القمع والاضطهاد والتعصب المقيت ، فلقد اكتوى مسلمو أسبانيا بنار الاضطهاد بدءاً من عهد فرديناند وإيزابيلا صاحبى أرغونة وقشتالة سنة ١٤٩٢ م حتى ٢٢ سبتمبر ١٦٠٩م وهو تاريخ رحيل آخر المغاربة فراراً من عذاب أسبانيا .

ولم يكن الأمر قاصراً على مسلمى أسبانيا ، وإنما شمل نشاط محاكم التفتيش كل المخالفين فى الرأى من الأسبان أنفسهم . وقد اتخذت محاكم التفتيش فى أسبانيا من أشبيلية مقراً لها ، واضطلع رهبان الدومنيكان بأمرها فى أول الأمر .

ومع أن هذه المحاكم من الناحية النظرية كانت تخضع للتاج الأسبانى ، إلا أن المفتش العام كان يخضع عند تعيينه لهذا المنصب لموافقة البابوية . ولقد قاوم الأسبان ظلم محاكم التفتيش مراراً وتكراراً ، فقامت ثورة فى قرطبة وأيدها بعض النبلاء ومجلس البلدية ، واضطرت السلطات إلى نقل المفتش العام . ثم اندلعت ثورات مشابهة فى أرغون وڤالنسيا وقطالونيا ، أما فى سرقوستة فقد اغتيل المفتش العام فى قلب كاتدرائية المدينة . ويرجع قيام هذه الثورات إلى شعور الأسبان بأن « الهرطقة » صارت « دمغة » يدان بها الناس لأجل مصادرة أملاكهم وضمها إلى خزانة الملك أو إلى جيوب كبار رجال الدين ، وأدرك الناس أن التاج والكنيسة قد تآمرا ضد الشعب الآمن تحت قناع الدين .

واستمر التعاون بين التاج الأسبانى والبابوية إلى أن جاء إلى الحكم الملك فيليب الثانى وريث شارل الخامس ، (١٥٥١ ـ ١٥٦٠م) الذى تحرش بمملكة نابلى وجزيرة صقلية فأغضب بذلك البابا بولس الرابع كارافا الذى كان أصلاً من مواطنى نابلى . وراح كارافا يصب جام غضبه على الملك الأسبانى فأصدر ضده قراراً بالحرمان إلى أن توسط دوق البندقية فى الأمر، وتم الصلح بين البابا والملك . ولكى يؤمن فيليب الثانى موقفه ، فإنه سافر إلى إنجلترا فى ٢٠ مارس ١٥٥٧ م وتزوج من الملكة مارى ليضمن وقوف إنجلترا معه فى صراعه ضد فرنسا وحليفتها البابوية . وكان فيليب قد عين كاهن اعترافه بورتولوميو دى كارانزا فى منصب كبير اساقفة طليطلة . وقد اشتهر كارانزا بغزارة علمه وقوة بيانه ، وكان قد سافر إلى انجلترا ودخل فى حوار ودى مع دعاة حركة الاصلاح من الانجليز . ولما أن وصلت الأنباء إلى البلاط البابوى ،تحركت

دوائر محاكم التفتيش للإيقاع بالرجل فاشاعوا عنه أنه قد تردى فى الهرطقة وتحريف مسائل اللاهوت ،فقبض عليه وحكم عليه بالنفى[١٢١] .

شعر الملك فيليب الثانى أن محاكم التفتيش وسيدها البابا قد وجها إليه لطمة قوية ، ولذا فإنه سعى إلى طى محاكم التفتيش فى أسبانيا تحت ذراعيه بالدهاء والخديعة ، وكان ذلك بطبيعة الحال على حساب الشعب التعيس . ففى أعقاب عودته إلى أسبانيا فى ٨ سبتمبر ١٥٥٩ م بأسابيع قلائل ، قصد إلى الشرفة الملكية المطلة على ميدان كنيسة سان مارتن فى بلدة ڤالادوليد ،فأطل على الجماهير الأسبانية المتجمعة وأقسم أمامهم بأنه لن يدخر جهداً فى تنقية العقيدة الكاثوليكية من الشوائب ، وبأنه سوف يثبت فى مملكته من دعائم «المكتب المقدس» أى محاكم التفتيش . ثم أمر بأن يستعرض المتهمون بالهرطقة أمامه ، وكان من بين تعساء هذا الموكب أحد النبلاء المتهمين بالهرطقة واسمه دون كارولس دى سيسا ، وقد شوه رجال محكمة التفتيش وجهه وأطرافه بالنار حتى أصيب بالشلل ،فلما أن وصل الرجل إلى شرفة صاحب الجلالة صرخ بصوت عال :« إنى أتوسل إليك بامولاى الملك ،توسل رجل من أصل نبيل إلى سيد عريق فى النبالة أن تسأل هؤلاء السادة عن الذنب الذى اقترفته حتى ألقى هذا العذاب على هذه الشاكلة تحت سمعك وبصرك » . ولكن الملك فيليب رد عليه بقوله : « لو كان ابنى ذاته منحرفا فى العقيدة على شاكلتك لقمت بنفسى لحمل الوقود إلى المحرقة التى يلقى فيها »[١٢٢] .

ولكى يدلل فيليب الثانى على حرصه على محاكم التفتيش ومباركته لأفعالها فى اسبانيا فقد أمر بأن يحرق عدد من الهراطقة فى المحرقة (Auto da

fe) فى حضوره شخصياً .

وهكذا نجح فيليب الثانى فى أن يبسط نفوذه على محاكم التفتيش فى اسبانيا .

ضج الشعب الاسبانى من طغيان محاكم التفتيش ، ولما عبر أهالى قشتالة عن تذمرهم وجه اليهم فيليب الثانى رسالة فى فبراير ١٥٦٣ م يتوعدهم بأن «المكتب المقدس » باق ليستأصل شأفة الهرطقة من طول البلاد وعرضها . وشكا أهالى أراغون لأن محاكم التفتيش باتت تحشر أنفها فى أمور لاتمس العقيدة من قريب أو بعيد ، وبأن الرهبان قد استمروا فى شهادات الزور ضد الابرياء .

وهناك رسالة من السفير الفرنسى فى أسبانيا موجهة إلى كاترين دى مديتشى تفيد بأن فيليب الثانى قد نجح فى تسخير محاكم التفتيش كأداة طيعة لفرض ارادته على الشعب الاسبانى بالقهر (١٢٣).

بعد هذا جاءت الشكوى ضد محاكم التفتيش من رجال الكنيسة الاسبانية نفسها ، فلقد استبد المفتشون وفرضوا آراءهم الدينية على كبار الاساقفة ،ولذا فإنهم عرضوا قضيتهم على مجمع ترنت . وكان الوفدان الفرنسى والألمانى يميلان إلى إدخال بعض الاصلاحات فى نظام الكنيسة ، إلا أن مندوبى فيليب الثانى حذروا البابا بيوس الرابع من المساس بمحاكم التفتيش(١٢٤) .

وإذا وصلنا إلى عهد الملك فيليب الرابع (١٦٢١ ـ ١٦٦٥ م) ، نجده شابا منحلاً خليعاً ، يقضى كل أوقاته فى اللهو والمجون فى ساحات مدريد أو فى

قصره الجديد فى ضواحى المدينة فى بوين ريتيرو (Buen Retiro) . وكان طبيعياً أن تنشط محاكم التفتيش فى هذا الجو الداعر . ومن متناقضات الساعة أن ظهرت فى ظل هذه المحاكم التى زعم أصحابها أنها مقدسة جماعة أسبانية راحت تشجع الناس على الفجور والجنس المشاع والعلنى حتى فى داخل الكنائس والبيوتات الرهبانية أيضا .

وقيل أن الوزير أوليفاريس (Olivares) قد ساهم بنفوذه وشخصه فى أزدهار هذه الجماعة التى عرفت بإسم « أولمبرادوس » (Alumbrados) أى «المتنورين» ليساير صاحب الجلالة فى فجوره ونزواته .

وكان فيليب الرابع قد تزوج من أميرة فرنسية فاتنة هى اليزابث، وقد حاولت إيقاظ زوجها من وحل الفساد الذى غرق فيه حتى أذنيه ، ولكن دون جدوى ، وباتت العلاقة بين الملك والملكة علاقة كراهية تكشفها الواقعة التالية: ففى أول حلقة من مصارعة الثيران فى بلازا مايورا سنة ١٦٢١ م ،ظهر فى الحلبة شاب نبيل وسيم الطلعة هوكونت دى ڤيللا ميديانا الذى كان نجما ساطعا من نجوم مصارعة الثيران .وكان هذا الشاب جريئاً ،فنزل الحلبة وقد زين صدره بحروف من الفضة فى نقش يقول (Son mis amores) . وكان الملك والملكة يشاهدان هذه المصارعة ، وتعنى هذه العبارة المنقوشة بالاسبانية « أنا أحب الجاه » وقد تعنى مجازاً أيضا « إن حبى من النوع الملكى » . وقد بلغت الجرأة بهذا الشاب أنه ألقى بنظرات إعجاب شبيه بالغزل على عيون صاحبة الجلالة بشكل ملفت للنظر وهى فى المقصورة الملكية بجوار زوجها . وقد فسر الجمهور الاسبانى تلك النظرات بالتفسير المجازى الذى تحمله العبارة

المنقوشة . وقد كان هذا الحادث سببا فى كدر شديد عند عودة الملك ومليكته إلى القصر ،فلقد هتفت الملكة متنهدة : « إن الكونت الشاب كان يصوب رمحه فى روعة خلابة» ، فرد الملك غاضباً : « ولكنه يا سيدتى يصوب إلى المقام العالى » .وبعد شهور قلائل تم اغتيال هذا الشاب عند مدخل قصره بيد واحد من رجال الحرس الملكى، بتحريض مفضوح من الملك فيليب الرابع(١٢٥) .

وظلت محاكم التفتيش سوطا مسلطا على ظهور الاسبان فى عهود شارلس الثانى ثم فيليب الخامس من بعده (١٧٠٠ ـ ١٧٥٩ م) ، ففى عهد الأخير أدين ١٤,٠٠٠ مواطنا بالهرطقة وأحرق منهم ٧٨٢ نفساً (١٢٦) . وأخيراً فى عهد الملك شارلس الثالث (١٧٥٩ ـ ١٧٨٨ م) تقرر وضع حد لمظالم التفتيش ففى ابريل ١٧٧٤ م صدرت الأوامر الملكية باغلاق مكاتب « المكتب المقدس » ولقد شاءت الأقدار أن يكون اخر ضحايا محاكم التفتيش فى أسبانيا سيدة شمطاء عزلاء لا حول لها ولا قوة ، والتى لم يكن لها أهل ولا ولد فى مدينة أشبيلية . وقد أحرقت تلك السيدة العاجزة سنة ١٧٨١ م ، ليشيعها التاريخ الأوربى على أنها آخر ضحية عجفاء لنمر قد تكسرت أنيابه ، فلم يقو على صيد سواها .

رغم كل هذه الصنوف من البطش والارهاب الفكرى لمحاكم التفتيش إلا أن صوت الثوار فى مختلف أرجاء أوربا لم يخفت ،ولا ينكر أحد أن جماعات الأطهار بمختلف فئاتهم هم الذين مهدوا الطريق لظهور رواد الاصلاح الدينى فى أوربا ، وعلى رأسهم جون ويكلف الانجليزى ، وجون هس التشيكى ، وسافونا رولا الإيطالى ،ثم مارتن لوثر الألمانى .

اتخذ جون ويكلف إسم الشهرة من إسم بلدته ويكلف (Wycliff) فى منطقة يوركشير بانجلترا ، وهى جزء من مقاطعة ريتشموند الكبرى التى كانت تحت سيطرة بيت لانكستر . حصل ويكلف على درجة الدكتوراة فى اللاهوت من كلية باليول بجامعة اكسفورد سنة ١٣٧٢ م ، وبعد ذلك بسنتين منحه الملك أدوارد الثالث قطعة أرض فى منطقة لترورز (Lutterworth) اعترافا بشهرته العلمية ، ثم أوفده الملك ضمن بعثة إلى بلدة بروج لمقابلة المندوبين البابويين لتسوية بعض الأمور المختلف عليها بين التاج الانجليزى والبابوية ، ومن بينها رفض الملك ادوارد دفع الضريبة التى اعتادت انجلترا دفعها للخزانة البابوية منذ عهد يوحنا سنة ١٢١٥ م . ولم تنجح البعثة فى مهمتها ، فعاد ويكلف إلى اكسفورد .وفى رحاب اكسفورد عكف ويكلف على بحث قضية العصر ألا وهى العلاقة بين الملك والبابا ، ومن ثم العلاقة بين السلطة الدنيوية والسلطة الدينية . ومن أهم الأفكار التى طرحها ويكلف مسألة « السيادة » (Domin-ion)، والرأى عنده أن السيادة أصلا للخالق وحده ، أما البشر ، سواء أكانوا علمانيين أو رجال دين ، فإنهم عندما يتصرفون فى هذه السيادة فإنهم يقومون بذلك بتكليف من الله ، على أن تكون العدالة رائدهم فى ذلك .

ويرى ويكلف أن جميع الأفراد فى أى مجتمع هم أصحاب حق طبيعى فى نصيب من هذا « الكرم الإلهى » متمثلاً فيما تغله الأرض من خيرات ، حيث أن الأرض جميعا كانت فى البدء مشاعا بين كافة الناس وذلك قبل السقطة الكبرى لآدم . إلا أن الخطيئة هى التى جلبت على العالم آفة حب التملك الخاص وتكالب بنى آدم على تراب الأرض . ولا ينكر ويكلف على

الكنيسة نصيبها فى هذا التراب ، على أن يتم هذا بالاتفاق مع الأمير أو الملك .

ولقد رحب النبلاء الانجليز بآراء ويكلف ،لأنهم فى حقيقة الأمر كانوا يتنمرون للسطو على بعض الأراضى التى كانت الكنيسة الانجليزية تسيطر عليها وهى كثيرة . وفى سنة ١٣٧٦ م طلب من ويكلف الحضور إلى لندن لشرح نظريته أمام المسئولين وبعض كبار رجال الدين .وقد هلل الوزراء والأمراء لجرأة هذا المفكر الحر . ولكن الأسقف وليم كورتيناى أبدى إنزعاجه من جرأة ويكلف وطلب منه المثول أمامه ليناقشه فى الأمر . وقصد ويكلف لملاقاة الأسقف ، وأصر دوق لانكستر جون من جنت أن يذهب مع ويكلف لحضور المقابلة ، وقد انتهت المقابلة بمعركة صاخبة بين الاسقف وويكلف . ثم كتب كبار رجال الدين الانجليز إلى البابا فى روما يشكون إليه من نشاط ويكلف ونظرياته الجديدة . وكان البابا جريجورى الحادى عشر مافتىء أن عاد هاربا من « الاسر البابلى » فى فرنسا (١٣٧٧م) ، فأرسل إلى الملك ادوارد الثالث يطلب منه القبض على ويكلف ومحاكمته بسبب ارائه المتطرفة ، ولكن الرسالة وصلت عند وفاة ادوارد الثالث. وتولى العرش الانجليزى بعد ذلك الطفل ريتشارد الثانى تحت وصاية والدته ،التى تكفلت ببسط حمياتها على ويكلف .

غير أن ويكلف فاجأ الناس بنظريات أخرى تتصل بجوهر العقيدة والطقوس الدينية ؛ فقد نادى بمذهب « القدرية » فالبعض قدر لهم الخلاص والبعض الآخر كتب عليه التهلكة ،وأن البابا ـ فى أغلب الظن ـ على رأس فريق الهالكين . وقال ويكلف أيضاً أن الكنيسة ورجالها يمثلون مؤسسة منافقة وليس ثمة مبرر لوجودها ، حيث أن الصلة بين العبد والخالق يمكن أن تتم

بالاسترشاد بما ورد فى الكتب المقدسة دون الحاجة إلى الكهانة والأوصياء وتجار الدين .

ونظراً لخطورة هذه الآراء انزعج الكثيرون من أصدقاء ويكلف وعلى رأسهم دوق لانكستر نفسه ، وراح يتنصل من صديقه « المتهور » . وهنا سنحت الفرصة للأسقف كورتيناى العدو اللدود لويكلف ، فحصل على ادانة لآرائه وطرده من جامعة اكسفورد هو واتباعه . وبعدها توارى ويكلف فى مزرعته فى لترورز حيث توفى بعد سنوات قلائل .

على أن هذه الآراء قد لقيت صدى شعبيا واسعا فى انجلترا ، وراح فريق ممن تشيعوا لهذه الآراء يطوفون ارجاء انجلترا لنشر هذه التعاليم ، وقد أطلق عليهم المعاصرون لقب « لولارد » نظراً لتشابه آرائهم مع اراء اللولارديين فى الأراضى المنخفضة فى القارة الأوربية .وتطورت اللولاردية فى انجلترا فصارت مذهب الكادحين والعمال والساخطين ، ولذلك فإن الملك ريتشارد الثانى أمر بالقبض عليهم وإيداعهم السجن .وفى عهد الملك هنرى الرابع صدر قرار ملكى يحرم اللولاردية بالقانون ، كما قدم نفر منهم للمحاكمة وتم احراقهم بالنار . وسارت الأمور على هذا المنوال من القمع فى عهد الملك هنرى الخامس ، حتى كانت سنة ١٤١٧ م حين قبض على زعيمهم جون أولد كاست وأعدم.

انتقلت آراء ويكلف من انجلترا إلى القارة الأوربية فى نهاية القرن الرابع عشر ، ذلك أن الأمير ونسزلاز أكبر أبناء الامبراطور شارلس الرابع الذى توج ملكا على بوهيميا (١٣٧٨ ـ ١٤١٩ م) قد زوج أخته آن من الملك الانجليزى ريتشارد الثانى . وقد اصطحبت آن معها فى حاشيتها عدداً من محبى

العلم الذين تأثروا اثناء اقامتهم فى انجلترا بآراء ويكلف . وهكذا قدر لابناء بوهيميا أن ينقلوا هذه التعاليم إلى بلادهم ، ففى سنة ١٤٠١ م نقل جيروم تعاليم ويكلف برمتها إلى أروقة براغ . وكان شارلس الرابع قد أولى مملكة بوهيميا اهتماما خاصا ، فأسس فيها سنة ١٤٣٧ م جامعة براغ التى تطورت سريعا إلى مركز ثقافى مرموق جذب الدارسين من مختلف الأقطار الأوربية مثل بولنده وبفاريا وسكسونيا وغيرها . ولما أن راجت آراء جون ويكلف فى أروقة جامعة براغ ، انزعج المسئولون فيها فقدموا توصية إلى مجلس الجامعة بضرورة ادانة هذه الآراء ،وأذعن مجلس الجامعة لهذا الطلب . غير أن فريقا من الدارسين ضرب برأى الجامعة عرض الحائط ،وكان على رأس هؤلاء المصلح جون هس (Huss) .

ولد هس سنة ١٣٧٠ م فى قرية هوزنيك (Husienec) ،وحصل على درجتى الليسانس والماجستير فى ١٣٨٦ م ، ١٣٩٦ م تباعا . وكان هس شابا متحمسا لقضايا الاصلاح الكنسى ،كما كان خطيباً مفوها ومؤلفاً جيداً للترانيم الدينية . وكانت جماعة من المتحمسين للاصلاح فى تشيكوسلوفاكيا تنادى بضرورة العودة بالدين إلى الحياة البساطة الأولى التى كان عليها الآباء الباكرون . وفى مواعظه أعلن هس أنه لا يحق للكاهن الخاطىء أن يقود الصلاة أو أن يؤدى الطقوس الدينية الأخرى .

ولما انتشرت آراء هس فى جامعة براغ ، أرسل البابا اسكندر الخامس أوامره إلى كبير اساقفة براغ باحراق كتب هس وجون ويكلف ،وقد قام كبير الاساقفة بتنفيذ أوامر البابا فى يوليو ١٤١٠ م .

وجاءت ردود الفعل ضد كبير الاساقفة وفعلته فى شكل اشعار كثيرة منها قصيدة فى هجاء كبير الاساقفة (واسمه زبنيك) ومؤداها أن النيران التى أشعل بها تعاليم البساطة إن هى إلا وسام شرف لأبناء التشيك . كما ظهرت فى نفس الوقت أغان شعبية تسخر من زبنيك لجهله وأقدامه على احراق الأوراق دون أن يهتم حتى بمجرد فهم محتواها (١٢٧).

هذا وقد حدث ١٤١٢ م أن وقع البابا يوحنا الثالث والعشرون فى صدام مع لادزلاس ملك نابلى ، فقرر البابا أن يشن « حملة صليبية » ضد مملكة نابلى . ونظراً لحاجة البابا إلى المال لاعداد هذه الحملة ، فإنه أقدم على بدعة خطيرة فى تاريخ الكنيسة الرومانية فقد أعلن بيع صكوك لغفران الذنوب والاثام بالمال لمن يرغب . وهكذا اكتملت المهزلة البابوية .

كان جون هس أول من ندد ببيع صكوك الغفران ، لأن فردوس النعيم لا يورث بالرشوة والمال الحرام ،وقال إن دل هذاعلى شيء فهو إنما يشير إلى افلاس الكنيسة الرومانية ماديا بعد أن أفلست معنوياً . والتف القوم حول هس فى غضبته المدوية ، فأمسك بقرار البابا عن صكوك الغفران وأحرقه بالنار . والواقع أن البابا يوحنا الثالث والعشرين كان واحداً من ثلاثة بابوات يتنازعون للجلوس على العرش البابوى فى روما . وقد رأى الناس فى مسلك هؤلاء الثلاثة الكبار وفى تكالبهم على المنصب وما يدره إلى جيوبهم من فضة وذهب صورة قبيحة لا تليق حتى بصغار رجال الدين .وفى اثناء ذلك كان مجمع كنسى كبير منعقدا فى مدينة كونستانس لتدارس أمور الكنيسة الرومانية ولحسم النزاع بين البابوات الثلاثة المتناحرين . وقد وجه المجمع أمراً إلى جون هس بالمثول

أمامه (نوفمبر ١٤١٤ م) . وكان الداعى إلى هذا المجمع أصلاً سجسموند وريث الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وكان حريصا على ابرام صلح أو مهادنة بين البابوية الغاضبة وجون هس الثائر ، ولذا فإن سجسموند قد حث هس على الحضور أمام المجمع ، بعد أن أكد له الحفاظ على حياته وسلامته .

قصد جون هس إلى المجمع فى كونستانس ،ولكأنه وهو يجادل كرادلة المجمع كان يقيم مناظرة بين عالمين مختلفين : عالم بحر الظلمات ، وعالم الفجر الجديد . وكان طبيعياً أن يتخذ الكرادلة قراراً بادانة آراء هس بسبب «هرطقته » ، ثم القوا به فى السجن .ولكن الملك سجسموند بعد أن توج امبراطوراً فى آخن ، هرع إلى كونستانس وأمر بأطلاق سراح هس من السجن . ولكن نفرا من الكرادلة ومستشارى سجسموند نصحوه بأن يتخلى عن هس ، حفاظاً على سلام الامبراطورية المقدسة وعلى وحده العقيدة تحت لوائه الامبراطورى ، وحذروه بأنه ليس من الحكمة السياسية أن يحطم اشياء كثيرة من أجل الحفاظ على حياة « الهرطيق » جون هس .وانصاع سجسموند للنصيحة ، وبقى جون هس حبيساً فى زنزانته .

بقى سجسموند فى كونستانس ليرقب عن قرب مسيرة أعمال المجمع ، خاصة قضية البابوات الثلاثة المتنافسين . ولما أن شعر البابا يوحنا الثالث والعشرون بحرج موقفه، دبر حيلة لكى يتسلل خفية من كونستانس حتى لا يواجه الامبراطور سجسموند ولا أعضاء المجمع من خصومه . اتفق يوحنا وصديقه فردريك أمير منطقة التيرول (Tyrol) على تدبير حفل مبارزة فى قلب مدينة كونستانس لصرف انظار الناس عن المجمع . ولما أن تجمع القوم لمشاهدة

هذه المبارزة ، تنكر البابا يوحنا فى زى حارس للخيل وهرب إلى حصن شافهاوزن (Schaffhausen) عند حلفائه من بيت هابسبورج .

وفى اليوم التالى اكتشف المجمع هروب البابا ، فساد الهرج فى ردهاته وأروقته ، وما لبثت شوارع المدينة أن اكتظت بالغوغاء والمظاهرات الصاخبة .

ولكن سجسموند بادر بقمع المتظاهرين بيد من حديد ، ثم أرسل فرقة للقبض على البابا الهارب وحليفه فردريك .وتم القبض على البابا الهارب واقتيد ذليلا إلى مجمع كونستانس ، حيث استؤنفت الجلسات ،وقرر المجتمعون خلع يوحنا الثالث والعشرين (٢٩ مايو ١٤١٥ م) .

ثم استدعى جون هس من جديد لاعادة النظر فى قضيته ، وكان الكرادلة فى ا لمجمع قد دبروا له شركا شيطانيا للإيقاع به أمام الامبراطور سجسموند . فسألوا هس عن رأيه فيمن يرتكب معصية من رجال الدين ، فرد هس بأن هذا العاصى يستوجب العزل من منصبه الدينى . ثم سألوه عن رأيه فيمن يرتكب نفس المعصية من الأمراء أو الملوك أو الأباطرة ، فرد الرجل بأن الأمير العاصى يستوجب بالمثل الخلع عن العرش . وهنا شعر الامبراطور سجسموند بالحرج الشديد أمام اعضاء المجمع ، ففتر حماسه لقضية جون هس وقرر أن يتخلى عنه نهائياً . وفى اليوم الثالث للمحاكمة طرح مصير جون هس للتصويت ، وكان الامبراطور سجسموند أول من صوت بالحكم بإعدام جون هس .وفى يوليو ١٤١٥ م اقتيد جون هس إلى ركن عند اسوار مدينة كونستانس حيث تم إحراقه بالنار ! .

على أن إحراق جسد هس لم يحرق أفكاره الثورية . فقد ظلت تعاليمه

متأججة فى وجدان الشعوب السلافية فى بوهيميا ، كما أن مشاعر الكراهية قد ازدادت ضد الألمان وملكهم الغادر سجسموند . وتألف حزب من أتباع جون هس بزعامة واحد من ابناء موطنه الأصلى يدعى نيقولا إلى جانب جندى مرموق هو البطل جون زسكا . ثم ظهرت جماعة أخرى تدين بآراء هس وعرفت باسم « أبناء براغ » (١٤٢٠ م) ، وطالب هؤلاء بتجريد رجال الدين من الملكية الخاصة وبخضوعهم للقانون العام وبعدم قصر الوعظ على الكهنة ، مع السعى لازالة النظام الملكى من البلاد .ولم يغفر أهل بوهيميا للأمبراطور سجسموند موقفه الخسيس من الزعيم هس ، ولذا فأنه عقب وفاة ملك بوهيميا ونزل (Wenzel) سنة ١٤١٩ م ، عين سجسموند شقيقا له لعرش بوهيميا ، ولكن الشعب قام بالثورة ضد الملك الجديد وشقيقه سجسموند . فما كان من سجسموند إلا أن عقد حلفا مع البابا مارتن الخامس لشن حملات صليبية ضد اتباع هس فى بوهيميا . وتوالت الحملات فى سنوات ١٤٢٠ ـ ١٤٢١ ـ ١٤٢٢ ثم ١٤٢٧ م بفرسانها الألمان لاستئصال اتباع هس . وقد كافح التشيك هذا العدوان الصليبى كفاح الأبطال ،وبرز فى المعارك الطاحنة البطل القومى جون زسكا الذى خطط بعبقريته الفذه وبمدافعه خطة طرد الصليبيين من البلاد. ويروى عن زسكا هذا أنه أوصى قبل وفاته أن يصنعوا من جلده « طبلة » يقرعون بها وقت الحاجة لايقاظ الثوار ضد الألمان والبابوية .

بعد بضع سنين من التهام نيران محاكم التفتيش لجسد جون هس كانت نار أخرى تضرم فى الشمال الايطالى لاحراق جسد رائد آخر من رواد الاصلاح وهو سافونا رولا :

كانت إيطاليا من أسبق الدول الأوربية سعيا إلى الانعتاق من ظلام العصور الوسطى والتطلع إلى بزوغ فجر جديد . ولقد ساهمت عدة عوامل فى تحقيق هذا الأمل؛ من ذلك التقاليد الجمهورية لمدن الشمال الايطالى وكفاحها من أجل الاستقلال الذاتى بقوميوناتها ودساتيرها ؛ وجهود نقابات العمال والحرفيين، وانتعاش التجارة . كذلك دأب امراء تلك المدن على تشجيع الآداب والفنون وفروع الفلسفة المختلفة ، كما رحبوا فى بلاطهم بعلماء بيزنطة الذين هربوا بعد سقوط القسطنطينية فى أيدى السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ م . وقد نشر هؤلاء العلماء البيزنطيون علومهم فى المدن الايطالية وشجعوا على بعث الآداب الكلاسيكية من الأكفان .

على أن ايطاليا ما أن أخذت بأسباب التحرر من عقلية العصور الوسطى لتقدم المثل لبقية بلدان أوربا فى غسل أدران التبربر والقنية والصليبيات ومحاكم التفتيش وبلورة صيغة انسانية للمصالحة بين حرية الفرد وحق الجماعة ، وحث الشباب على تذوق القيم الجمالية ، حتى قدر لها أن تنال جزاء كجزاء سنمار ، فتصبح فريسة لجشع بعض الأمراء الذى كانت تهم لتنويرهم والأخذ بيدهم من دياجير الظلمة إلى إشراقات النهضة أو الميلاد الجديد .

كانت المدن الايطالية تخضع لسلطان حفنة من الأسر النبيلة من قبيل آل مد تشى فى فلورنسا ،وآل سفورزا فى البندقية ، وآل بنتفوجيلو فى بولونا ، وكذلك كانت الحال فى مدن سيينا ، ولوكا وغيرهما من المدن .وكان يخفف من حدة طغيان هذه البيوتات تلك النسمة الحرة فى تشجيعهم للفنون والآداب واحياء التراث اليونانى والرومانى القديم . على أن أهم ما كان يقلق الايطاليين، حكاما ومحكومين ، أنهم وجدوا أنفسهم فى نهاية القرن الخامس عشر محاطين

بعدة قوى أوربية شرسة تتربص بهم شراً : ففى فرنسا ، بعد أن ورث شارل الثامن عن أبيه مملكة حرة من عبث الانجليز وتحرشاتهم ، ووجد نفسه على رأس جيش متمرس قوى وصاحب خزانة مكتنزة بالمال ، راح بحلم بأمبراطورية عظمى تضم تحت لوائها شبه الجزيرة الإيطالية .وفى أسبانيا بعد أن توحدت البلاد بزواج فرديناند صاحب أراغون من ايزابيلا صاحبة قشتالة (١٤٩٢ م)، وبعد الاستيلاء على غرناطة ، أخذ التاج الاسبانى بدوره يتطلع إلى مغامرة عسكرية على حساب الايطاليين أيضا .

أما الامبراطور ماكسميليان وريث الامبراطورية الرومانية المقدسة (١٤٩٣ ـ ١٥١٩ م) فإنه بعد أن وحد الأراضى الواطئة مع دوقية برغنديا ، التى ورثها عن زوجته ماريا ، تحت لواء النمسا ، فقد أفصح عن خطته للسيطرة على ايطاليا ليبعث مجد شرلمان من جديد .

وفى نفس الوقت كان المد العثمانى فى أوربا قد وصل ذروته على شواطىء الأدرياتيك ،وباتت البندقية ونابلى فى خطر داهم (١٤٦٩ ـ ١٤٧٧ م) .

ولقد جاءت أولى المتاعب من جانب الملك الفرنسى شارل الثامن الذى ادعى أنه وريث مملكة نابلى عن اسلافه من بيت شارل دى آنجو . وكان الملك الفرنسى يحلم بمشروع ضخم يغزو من خلاله مملكة نابلى ثم يزحف لتحرير القسطنطينية من أيدى العثمانيين ، منتهياً بقيادة حملة صليبية على بيت المقدس . وفى أغسطس ١٤٩٢ م هجم شارل الثامن على رأس ٣٦٠٠ من فرسانه و ٢٠,٠٠٠ من المشاة إلى جانب عدد من قطع المدفعية على شمال ايطاليا. ولقد فزع الايطاليون من حجم هذا الجيش الجرار ،واضطرت المدن إلى فتح بواباتها لهذا الغازى الفرنسى دون مقاومة ، فدانت له مدن سافوى ،

ومونت فرات ،وميلان ،وجنوة . أما البندقية وفرارا ومانتوا فقد اثرت الحياد . غير أن المدن التوسكانية ودويلات الكنيسة الرومانية فى وسط ايطاليا وكذا مدن الجنوب الإيطالى فقد ألفت عصبة فيما بينها لمقاومة الغزو الفرنسى .

كذلك قرر بيترو مدتشى أمير فلورنسا التصدى للغزو الفرنسى ، نظرا للحلف الذى كان يربطه بمملكة نابلى المستهدفة من شارل الثامن ، وسرعان ما انضمت مدينتا سيينا ولوكا للأمير الفلورنسى فى تحديه للغزو الفرنسى .

كان الجالس على عرش البابوية آنذاك البابا اسكندر السادس بورجيا ، ولما كان على صلة نسب بألفونسو ملك نابلى فإنه قرر التصدى للغزو الفرنسى ، وكان ألفونسو قد أعد العدة للتصدى للهجوم الفرنسى المرتقب ، فعين شقيقه فرديريك لقيادة الأسطول ،وشقيقه الثانى فرديناندو لقيادة القوات البرية .

زحف شارل الثامن بجيشه عن طريق بارما وبونت ريمولى على جبال أبنين قبالة نابلى . وما أن وصل الفرنسيون إلى بلدة سارزانا حتى قرر بيترو مدتشى أمير فلورنسا الخروج لملاقاتهم . وفى أول اشتباك بين الطرفين هلك ثلاثمائة من رجال فلورنسا ، ووقع الأمير أسيراً .ولما أن أقتيد الأمير الفلورنسى إلى مقام الملك الفرنسى انهارت أعصابه ووافق على تسليم قلاع كل من سارانزا ، وسارانزللو ، ولبراڤرتا وبيزا ، ولجهورن للملك الفرنسى .وهكذا توطدت أقدام الفرنسيين فى الأراضى التوسكانية بسبب خضوع أمير فلورنسا .

ولكن أهل فلورنسا شعروا بأن سيدهم المستبد قد ورطهم فى مأزق لم يكونوا نداً له ، ثم ها هو يعود اليهم منهزما ذليلاً .وفى اليوم التالى لعودته ، قصد بيترو مدتشى إلى دار الرئاسة فى فلورنسا ، ولكن الحراس لم يسمحوا له

بالدخول، فعاد إلى قصره فى حماية صهره باولو اورسينى . ثم نظم الأمير وحليفه مسيرة فى شوارع المدينة وهم يصيحون صيحة الاستنفار الخاصة ببيت مدتشى ، ودوت صيحة « باللى ! باللى » (Palle ! Palle)، ولكن أحداً من الأهالى لم يتحرك .وفى أثناء ذلك كان حزب «الأحرار» (Piaginoni) فى فلورنسا بزعامة الراهب الفرنسيسكانى سافونا رولا ينظمون المظاهرات وينادون بسقوط آل مدتشى .وخشى آل مدتشى على أرواحهم إن هم واجهوا الشعب الفلورنسى الغاضب ، ففروا من بوابة سان جاللو ثم عبروا جبال بنين إلى مدينة بولونا ، ومنها لاذوا بالفرار إلى مدينة البندقية . وبهذا الهروب الذليل ضاع على آل مدتشى سلطانهم فى فلورنسا (١٩ نوفمبر ١٤٩٤ م) بعد حكم أبد دام ستين عاماً .

وفى أثناء ذلك نجح الملك شارل الثامن فى اقتحام مملكة نابلى ظافراً ، وقام بإجراء مذبحة رهيبة لادخال الرعب فى قلوب أتباع الملك ألفونسو . على أن سيطرة الفرنسيين على معظم أراضى إيطاليا بهذا اليسر أثار دوق البندقية سفورزا والبابوية وملك أسبانيا والإمبراطور ماكسميليان ضد الغزو الفرنسى . وتجمعت جيوش هؤلاء جميعاً تحت قيادة ماركيز بلدة مانتوا للتصدى للفرنسيين .

أما شارل الثامن فقد عين جلبرت دى مونت بنسييه نائباً عنه فى حكم نابلى وترك له نصف الجيش ، بينما تحرك هو عائداً بالنصف الآخر . وفى طريق عودة الفرنسيين انقض الإيطاليون وحلفاؤهم عليهم عند بلدة فورنوفو وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة ، حتى أن الملك الفرنسى اضطر إلى الهروب عبر جبال الألب . وطارت الأخبار إلى نابلى فتشجع أهلها وهجموا على نائب الملك

الفرنسى جلبرت وأوقعوا به وبرجاله هزيمة فادحة عند بلدة آتيلا (Atella) وذلك فى ٢٣ يوليو ١٤٩٦م .

إنعكست هذه الأحداث المتلاحقة على الأحوال الداخلية فى مدينة فلورنسا، فقد دخلت أحزابها الثلاثة فى صراع مرير الواحد ضد الآخر : فكان حزب «بيانونى» (Piagnoni) بقيادة الثائر سافونا رولا ينادى بإقامة مجتمع يتمتع فيه الجميع بالحرية والمساواة ؛ أما حزب «أربياتى» (Arabbiati) فكانوا مناهضين لبيت مدتشى المستبدين ؛ فى حين أن حزب «بيجى» ظل موالياً لبيت مدتشى . وقد طالب سافونا رولا زعيم الحزب الأول بضرورة توسيع برلمان فلورنسا (Balia) لكى يمثل الشعب الفلورنسى بمختلف طبقاته تمثيلاً حقيقياً بدلاً من أن يقتصر على الأحزاب الثلاثة المتناحرة .

وقد استجاب الفلورنسيون لنصيحة سافونا رولا ، وانتخبوا أول مجلس يمثل جميع فئات الشعب (يوليو عام ١٤٩٥م) ، وصار من حق المجلس الجديد انتخاب قضاة الشعب ، كما أصدر المجلس عفواً عاماً عن ضغائن الماضى بهدف جمع الفلورنسيين تحت لواء واحد .

ولكن سافونا رولا وحزبه كانوا متعاطفين مع الملك الفرنسى شارل الثامن ، لا حباً فيه وإنما نكاية فى البابا اسكندر السادس بورجيا وأصهاره فى مملكة نابلى ، الذين شبههم سافونا ببؤر الفساد فى جسم إيطاليا .

ومن أجل هذا فإن البابا اسكندر السادس كان يتحين الفرصة للقضاء على سافونا رولا وحزبه ، فاتهم سافونا رولا بخيانة الوطن بتأييده للملك الفرنسى الغازى ، ثم أرسل أوامره إلى فلورنسا بمنع سافونا من الوعظ لأنه «هرطيق» .

وامتثل سافونا للأمر البابوى لعل العاصفة تمر بسلام ، وأناب عنه تلميذه بونوفتشينو من برسكيا للقيام بدلاً منه بالوعظ . على أنه فى عيد ميلاد سنة ١٤٩٧ م خرج سافونا من صمته واعتلى المنبر فى كاتدرائية سان مارك وصاح قائلاً بأن السماء قد طلبت منه ألا ينصاع لأمر أرضى وألا يرضخ لحكم كاهن فاسد ، ثم شارك سافونا فى سر التناول واضطلع بوعظة العيد ، وفيها حمل على البابوية وفساد رجالها وألقى الضوء على مخازى إسكندر السادس واتهمه فيها بالانحلال والشذوذ والغدر .

رد البابا بأن جند واحداً من أتباعه يدعى مويانورى جيناتزانو لمحاربة سافونا بنفس أسلحته ، ثم كلف راهباً آخر اسمه فرانسيس من أبوليا لكى يشهر بسيرة سافونا فى كنيسة سانتا كروتشى . وكان فرانسيس هذا واعظاً مفوهاً ومجادلاً ضليعاً ، ففى أول موعظة له فى جمهور المصلين فى فلورنسا أعلن الآتى : «أنا عن نفسى فإننى أعلن لكم أننى واحد من خطاة هذا العالم ، ولست أدعى كما يدعى غيرى الإتيان بالمعجزات ، على أننى رغم ضعف بشريتى أدعوكم لأن تقيموا بينى وبين سافونا رولا تحكيماً بالنار ، وإننى واثق بأننى سوف أهلك محترقاًبلهيب نار التحكيم ،ولكن ضميرى يدفعنى إلى تجرع هذا الكأس المرير كى يهلك معى سافونا رولا الدجال . وأنا أعرف طريقى ، ولكن طريق سافونا رولا إلى نار جهنم بسبب هرطقته ولأنه أرسل بالكثيرين من بسطاء فلورنسا إلى النار بسبب تعاليمه الضالة»[١٢٨] .

رفض سافونا رولا هذا التحدى بالتحكيم بالنار ،ولكنه تحت إلحاح أتباعه رضخ للأمر وقبل التحدى . وتحمس الناس فى فلورنسا ليوم الحدث الكبير ،

وطلب الآلاف من الأهالى كباراً وصغاراً السماح لهم بمشاهدة هذا التحكيم الخطير . ثم جاءت موافقة البابا على إجراء هذا التحكيم بالنار ، ووافقت عليه أيضاً دار السيادة فى فلورنسا ، وحدد له تاريخ ١٧ أبريل ١٤٩٨م .

وفى اليوم المحدد نصبت مشنقة مخيفة المنظر فى الميدان العام للمدينة ، ثم رصّت كومتان من كتل الخشب مختلطة بأعواد الحطب وسعف النخيل المجفف على مسافة من ممر نارى بلغ ثمانين قدماً ، وكان سمك الأخشاب التى ستشتعل بالنار أربعين قدماً وارتفاعها خمسة أقدام . أما المسافة بين صفى النار فكانت قدمين فقط ، وكان على الراهبين المحتكمين إلى النار أن يمرا وسط هذا الأتون على الجنبين لمسافة ثمانين قدماً ، ومن يخرج فى نهاية الممر النارى سليماً فهو على حق فى كل آرائه ، وأما من تؤذيه النار بحروقها فهو هرطيق آثم

واكتظت الساحة بالمتفرجين من كل صوب فى المدينة ، وفتحت جميع النوافذ المطلة لمراقبة المنظر الرهيب وقت اشتعال النار ، ووصل أتباع كل من الراهبين المحتكمين كل ينشد ترانيمه الدينية ويدعو لصاحبه .

ولكن خلافاً نشب بين الفريقين حول بعض الطقوس السابقة لإشعال النار، وتبادل الفريقان الاتهامات ثم السباب والشتائم ، حتى ضاق الناس بالفريقين من طول انتظارهم ، فأخذوا فى الإنصراف عن ساحة التحكيم . ثم حدث أن انهمر مطر غزير فأفسد كومات الخشب والحطب المعدة للمحرقة . أصيب الفلورنسيون بخيبة أمل مريرة لأن المعجزة التى كان سافونا رولا قد وعدهم بتحقيقها يوم التحكيم لم تتحقق ، بل ظنوا أنه كان يخادعهم ويستخف

بعقولهم البسيطة ، وبذلك فقد سافونا شعبيته السابقة ، واتهمه الفلورنسيون بالكذب والخداع ، وأنه لا سبيل لديه لإتيان المعجزات .

وبذلك نجحت خطة البابا اسكندر السادس فى الوقيعة بين سافونا رولا وجمهوره . ثم هجم نفر من حزب آرابياتا على الدير الذى كان يتوارى فيه سافونا رولا ، وقبضوا عليه مع اثنين من أتباعه وهما دومنيكو بونيوتشينو ، وسلفستر ماروفى ، وأودع الثلاثة السجن ، وانتهز الرعاع فى المدينة هذه الفرصة فهجموا على أتباع سافونا رولا وقتلوا منهم عدداً كبيراً . وبادر البابا إسكندر السادس بإرسال أوامره لتقديم سافونا رولا وصاحبيه للمحاكمة أمام محكمة التفتيش المؤلفة خصيصاً لهذا الغرض . وقد زود البابا المفتشين الموفدين بضرورة إعدام سافونا ورفيقيه . وفى المحاكمة تعرض سافونا رلا ورفيقاه لإهانات بالغة ولتعذيب شديد ، ثم حكم على الثلاثة بالإعدام حرقاً بالنار . وفى ٢٣ مايو ١٤٩٨ م تم إحراق سافونا ورفيقيه فى نفس البقعة التى كانت قد أعدت منذ ستة أسابيع لإظهار معجزاته الخارقة . وهكذا كتبت البابوية فصلا دموياً جديداً من فصول تصفية المصلحين المستنيرين .

لم تكن المشنقة ولا كانت النار التى أحرقت الأطهار والثوار لتوقف تيار التاريخ ، فقد بدأت الطبقات المعدمة تثور فى كل مكان فى أوربا ضد أمراء الإقطاع وأمراء الكنيسة جميعاً . وكان طبيعياً أن تأتى ردود الفعل من جانب الأمراء فى غاية القسوة والبشاعة . على أن الضربة التى قدر لها أن تصيب البابوية والكنيسة الرومانية فى مقتل لم تأت من أروقة باريس أو أكسفورد حيث انتعشت الآراء الحرة ، وإنما جاءت على يد ابن لفلاح بسيط من أهالى

ثورنجيا ، وذلكم هو مارثن لوثر زعيم البروتستانت أى «المحتجين» (١٤٨٣ - ١٥٤٦م) .

وككل شخصية عملاقة فى سجلات التاريخ ، اختلف المفكرون فى تقييمهم للوثر : فالشاعرالألمانى جوته يرى أن لوثر قد تغافل عن الكثير فى جوهر الفكر الإنسانى واستمد ثورته من مشاعر الغوغاء فى أمور لاهوتيه كان ينبغى أن تترك للمفكرين ، ويرى فيه ماثيو أرنولد دجالاً غوغائياً ، أما الكردينال نيومان فإنه يرى فى اللوثرية حركة مخادعة ومكابرة جملة وتفصيلاً . أما غالبية المؤرخين فيرون فى لوثر أخطر مصلح فى التاريخ الأوربى لأنه مسئول عن نقل أوربا من العصر الوسيط إلى العصر الحديث .

انخرط مارتن لوثر فى سلك الرهبنة مع الجماعة الأغسطينية فى بلدة إرفورت وهو فى الثانية والعشرين من عمره وذلك فى سنة ١٥٠٥ م . وفى هذه المرحلة كان لوثر قد أصيب بشعور مرير من عقدة الذنب لاندرى أسبابها،ففرض الشاب على نفسه نظاماً صارماً من الصيام والزهد لإذلال جسده . ولكن هذا الإذلال لم ينجح فى شفاء روحه وإزالة همومه الثقيلة ، وقد وصف لوثر هذه المرحلة من حياته فيما بعد بقوله : « لو أن راهباً قدر له أن يدخل النعيم بسبب تحقير جسده وشهواته ، لكنت أنا أول الداخلين »(١٢٩) .

وفى مرحلة «الآلام» تلك تكشفت للوثر فكرة متمردة فأخذ يحدث نفسه بأن السماء لو أنها رأت فى هذا العذاب سبيلاً للخلاص لكانت كالشخص المستبد الذى يتلذذ بآلام الآخرين . ولكن الفكرة أصابته بالفزع خوفاً من التردى فى شباك الشك والضلالة . ولما أن رآه رئيس الدير ستاوبتز (Staupitz)

على تلك الحال من اليأس والقنوط والاكتئاب ، نصحه بقراءة كتاب « مدينة الله » للقديس أغسطينوس قراة متمهلة . وانكب لوثر على القراءة بنفس شهية ، وبدأ يشعر بالارتياح النفسى عندما هجعت روحه المؤرقة شكاً ، وبدأ دفء الإيمان يدب فى وجدانه دون صراع ، فهتف من أعماقه بأن الإيمان (Faith) هو درب السعادةللروح ، وأن الرحمة الإلهية هى الشفاء للخاطئين . وأيقن لوثر من هذه التجربة الروحية أن التوبة لا تأتى بإيقاع العقاب على الخطاة ، وإنما هى تتأتى عندما يتحرك شغاف القلب من الداخل ليتقبل نسمة الرحمة الإلهية. ومن هنا فإنه نادى بأن الغفران (Indulgentia) لا يمكن أن يشترى أويباع ، لأنه منة السماء لأهل الأرض دون مقابل . ومن خلال بحوثه اللغوية فى تلك المرحلة اكتشف لوثرأن كلمة «التوبة» (Penitentia) اللاتينيةتعنى فى أصلها اليونانى المنقولة عنه شيئاً آخر تماماً ، فهى فى اليونانية تقابل لفظة (Metania) ، التى تعنى اخضاعاً ثم تغيراً فى نبض الروح تحركه حرارة التشوق إلى الرحمة الربانية من أجل الخلاص . وعليه اعتقد لوثر أن ماتروج له الكنيسة الرومانية من عقاب بدنى وروحى ومن حل وربط ، كلها أمور غريبة عن روح الدين السليم . واقتنع لوثر من هذا المنطلق أن الشخص الخاطئ يمكن له إن هو أراد أن يتبرأ ويتبرر من خطيئته بواسطة الإيمان ، فبالإيمان وحده يخلص البشر .

وفى سنة ١٥٠٨م طلب رئيس الدير من لوثر أن يضطلع بالتدريس فى جامعة وتنبرج ، التى كان الأمير فردريك «الحكيم» قد أسسها منذ فترة قليلة . وأقبل الطلاب على المحاضر الجديد فى حماس زائد ، وسرعان ما طبقت شهرته العلمية كل الآفاق . وفى سنة ١٥١٠م قام لوثر بزيارة لمدينة روما ، وهناك عن قرب ازدادت قناعته بعبث الطقوس الرومانية الكاثوليكية وتعقدها الشديد ، كما

ازداد سخطه على الجالس على عرش البابوية «ممسكاً فى يد بسوط «الحرمان» وفى يد أخرى بشوكة اللعنة» (Excommunication - Anathema) . وفتش لوثر فى أروقة الفاتيكان ومجالسه عن خيط «الإيمان» البسيط والفطرى فلم يجد له فيها أثراً ، فقفل عائداً إلى بلاده وهو يتمتم بأن «لاخلاص للنفس إلا من الداخل» .

ولما عاد لوثر إلى وتنبرج فوجئ بوجود مندوب بابوى من جماعة الدومنيكان اسمه تتزال (Tetzal) يبيع صكوك الغفران لمن يتبرع بالمال لبناء كنيسة القديس بطرس فى روما ، بتكليف من البابا ليو العاشر . اشتد غضب لوثر ضد هذا الاتجار الفاضح بالدين ، وابتزاز أموال بسطاء الناس بهذه الطريقة التى لا ترضى رباً ولا عبداً .

وفى ١٧ أكتوبر ١٥١٧م نشر لوثر مقالاً من خمس وتسعين نقطة هاجم فيه «صكوك الغفران» وتحدى من يرغب فى مجادلته فى هذا الأمر فى حوار علنى ، وقد علق هذه النقاط على بوابة كنيسة وتنبرج ليطالعها الخاص والعام .

انزعجت الدوائر الكنسية من تحديات لوثر وتصريحاته ، فدعت إلى عقد مجلس الدياط (Diet) فى أوجزبرج سنة ١٥١٨م لطرح قضية لوثر واللوثريين . واحتدم النزاع طويلاً فى المجلس بين المندوبين البابويين تتزل وكوجتين من ناحية وبين المتحمسين لآراء لوثر من ناحية أخرى . وفى النهاية قرر الدياط أن يسحب لوثر آراءه عن صكوك الغفران ، وألا يعود للخوض فيها مرة أخرى .

ولكن المسألة بالنسبة للوثر لم تقف عند قضية صكوك الغفران ، إذ كان الرجل متأثراً بآراء جون ويكلف وجون هس وجون ويزل وساڤونا رولا فى ضرورة

إصلاح الكنيسة وتطويرها من مفاسدها العديدة . وهكذا صعدت المعركة إلى صميم السلطان البابوى ذاته وإلى نظام الكنيسة الرومانية فى كليته . ولقد لقى لوثر تأييداً كبيراً لحملته الإصلاحية ، وعلت أصوات كثيرة تؤيد خطاه وتشد من أزره ، ومن بين الأصوات التى أيدت لوثر صوت واحد من مشاهير الكتاب الساخرين هو أولرخ ڤون هوتن (Ulrich Von Hutten) الذى نشر مقالاً سنة ١٥١٩م قال فيه : «إن روما تعتمد فى مزاعمها على ثلاثة أشياء : الإمرة البابوية، وعظام القديسين ، وصكوك الغفران ، وهى تخشى ثلاثة أشياء : المجمع الكنسى ، ولفظة الإصلاح ، ويقظة الشعب الألمانى ، وهى تجرم ثلاثة أشياء : الزهد ، والبساطة ، وكلمة الحق» .

وفى سنة ١٥٢٠م نشر لوثر رسالة موجهة إلى نبلاء الأمة الألمانية باللغة الألمانية ثم أتبعها برسالة أخرى بعنوان «الأسر البابلى» باللغة اللاتينية وفى الرسالتين أنكر لوثر مزاعم البابوية فى الإمرة على الكنيسة والوصاية على ضمائر الناس ، وندد بالكهانة وعدم زواج رجال الدين[١٣٠] ، أما الرسالة الثالثة فقد وجهها إلى البابا ليو العاشر وهى تقول :

« لعلك تدرك الآن أن ما تسمونه بالكيوريا الرومانية إن هى إلا بؤرة فساد تذكر بفساد بابل القديمة وسدوم الماجنة . وإنى أعلنها لك عالية مدوية بأن الناس قد خدعوا طويلاً باسمك وبالقناع الذى تتسترون به تحت غطاء الكنيسة الرومانية . ولسوف أظل أقاوم هذا الفساد طالما بقيت حرارة الإيمان تدب فى قلبى » .

بادرت الكنيسة الرومانية بإصدار قرار بالحرمان ضد لوثر «الهرطيق» المتمرد

وذلك فى يوليو ١٥٢٠م ، ولكن لوثر أعلن أن هذا القرار باطل ، وبأن كاتبه ليس برجل دين وإنما هو : «المسيخ الدجال» (Antichrist) ،ثم أمسك بقرار الحرمان وأشعل فيه النار علانية أمام جماهير غفيرة فى بلدة وتنبرج (١٠ديسمبر ١٥٢٠م) . وهكذا أشعل لوثر عاصفة مروعة فى ألمانيا ، قدر لها أن تقتلع الكنيسة الرومانية من جذورها ، ومعها بدأ عصر «المحتجين» (Protestants) الذين سرعان ما نشروا مذهبهم الجديد فى مختلف البلدان الأوربية .

دعا البابا ليو العاشر الإمبراطور شارلس الخامس لأن يعقد مجلس الدياط فى مدينة ورمز للنظر فى قضية لوثر ، ولكن الإمبراطور ورجاله المقربين كانوا يدركون مدى ما تتمتع به آراء لوثر من رواج لدى الشعب الألمانى وعديد من المفكرين الأحرار فى غرب أوربا . ويتضح التأييد الذى باتت اللوثرية تتمتع به من شهادة ألياندر (Aleander)المندوب البابوى إلى ألمانيا عندما قال « بأن تسعة أعشار الألمان يهتفون للوثر ، أما العشر الباقى ، وإن كان لا يهتم باللوثرية ، إلا أنه يهتف بسقوط «الكيوريا البابوية » .

رأى المجتمعون فى دياط ورمز (١٥٢١م) استدعاء لوثر للدفاع عن نفسه ، ومع أن البابا احتج على ذلك ، إلا أن الإمبراطور أصر على ظهور لوثر أمام المجلس .

وجاء لوثر إلى ورمز ووقف فى الدياط صلباً شامخاً وهو يدافع عن آرائه ، وبلغ به الإنفعال أن تحدى البابوية والكنيسة الرومانية والإمبراطور شارلس نفسه ، وصاح قائلاً : «لا سلطان علىّ فيما يتصل بكلمة الله وكتابه المقدس»[١٣١] . ولقد غضب الإمبراطور من هذا التحدى السافر لشخصه وقرر المجلس إصدار قرار

بالحرمان ضد لوثر وإحراق كتبه ومقالاته «بسبب مافيها من هرطقة» .

هرب لوثر إلى قلعة وارتبورج فى سكسونيا ليستظل بحماية الأمير فردريك الحكيم . وما من شك فى أن التأييد الذى لقيه لوثر من الأمير الحكيم كان عاملاً أساسياً من عوامل نجاح اللوثرية . فلقد امتاز الأمير برجاحة العقل والاستنارة ورزانة الطبع ، كما أنه كان محباً للآداب والفنون ، وهو أيضاً مؤسس جامعة وتنبرج التى أصبحت معقل اللوثريين ، ففى أروقتها أعلن لوثر لمريديه : «قد أكون إنساناً فظ الطبع ، خشناً ومشاغباً ، عنيفاً كالعاصفة ، ولكن هذا هو طبعى الذى لا يهدأ ـ لقد ولدتِ لكى أطاعن جيوشاً من الأبالسة والوحوش النهمة ، ولكى أجتث الجذع والحجر جميعاً ، ولكى أقتلع الشوك والحسك ـ وهذا هو قدرى» .

شغل الإمبراطور شارلس الخامس فى حروبه المريرة فى أسبانيا مابين أعوام ١٥٢٢ و ١٥٢٩م ، وفى أثناء غيابه انعقد مجلس الدياط من جديد فى نورمبرج (نوفمبر ١٥٢٢م) للنظر مرة أخرى فى أمر لوثر ، على أن المؤتمرين كانوا أقل حدة هذه المرة ، فلم يتخذوا أى قرار جديد ضد لوثر ، ولم يدققوا فى النظر فى مدى تنفيذ قرارات مجلس ورمز السابقة .

انتشرت آراء لوثر الإصلاحية كالنار فى الهشيم ، وهلل المعارضون للكنيسة الرومانية فرحاً ، وأخذ الأحرار يجاهرون بأفكارهم دون خوف . إلا أن محاكم التفتيش كانت تضرب بيد من حديد بعد أن شعرت بأن الأرض باتت تهتز من حولها فى كل مكان ، فلقد حدث أن أحرقت محكمة التفتيش فى بروكسل راهبين من الجماعة الأغسطينية (١٥٢٣م) من رواد الفكر اللوثرى فى الأراضى

المنخفضة . وقد حزن لوثر الحزن كله على هذا الجرم ، فنشر ما عرف وقتها باسم «مزامير الانتقام» :

« إن رماد أجسادهم لن يرد أبداً
الريح تحمله من صعيد إلى صعيد
هوذا الصيف يطل علينا
إنقشع برد الشتاء وزمن الجليد
براعم الأزهار تفتحت تحتضن العيد
من تعهد مذهباً استشهد به وهو سعيد
كلمة الحق تلوح فى أفق العهد الجديد
آمين . »[١٣٢] .

طالب لوثر برفع وصاية الكنيسة الرومانية عن أعناق الناس وأرواحهم ، وأن يسمح لرجال الدين بالزواج ، وأن يقام القداس باللغات المحلية بدلاً من اللاتينية، وأن يكون للمجامع الكنسية كلمة الفصل فى قضايا الكنيسة وليس للبابوية . وبينما كانت المجادلات مشتعلة على قدم وساق فى غرب أوربا ، كان الإمبراطور شارلس الخامس يخوض حربه ضد الملك الفرنسى فرانسيس الأول حول مدينة ميلان ، وقد أحرزت جيوش شارلس انتصاراً حاسماً على الفرنسيين فى موقعة بافيا سنة ١٥٢٤م .

وفجأة هب الفلاحون فى ألمانيا على السادة الإقطاعيين لتصفية الحساب ولتحطيم أغلال القنية الكريهة . والحق أن الفلاحين فى ألمانيا كانوا قد هللوا

فرحاً باللوثرية وتعاليمها فدخلوا تحت لوائها مستبشرين ، إذ وجدوا فيها شفاءً لضغائنهم القديمة ،وتحريراً لهم من قيود الأمير الإقطاعى والأسقف الكنسى ، كما وأن اللوثرية أذكت فى نفوسهم الشعور بالقومية الألمانية .

إندلعت ثورة الفلاحين أول الأمر فى المناطق الشرقية من الراين والدانوب (مايو ١٥٢٤م) ، وطالب الثوار بإلغاء ضريبة العشور ، وبحقهم فى انتخاب رجل الدين ، وبحرية الصيد فى الأنهار والغابات التى كانت حكراً على السادة النبلاء ، وبتخفيض التزامات السخرة التى قصمت ظهور الأقنان . وانتشرت الثورة فعمت معظم أرجاء ألمانيا ، وظهر للثوار زعيم اسمه توماس مونزر (Munzer) ، والذى اتخذ من بلدة مولهاوزن قلعة لمعسكره ، وقد اقترنت ثورة الفلاحين بزعامة مونزر بالكثير من أعمال العنف ، الأمر الذى أفزع مارتن لوثر، إذ وجد فى تلك الأعمال إساءة كبرى للوثرية نفسها التى كان الفلاحون قد تحمسوا لمبادئها . ولذا فإن لوثر اضطر إلى إدانة أساليب العنف التى تبناها مونزر بشدة .

وهنا لابد من الاعتراف ـ إنصافاً للحقيقة التاريخية ـ بأن مارتن لوثر لم يكن شخصية ثورية بالمعنى الدقيق لهذه الصفة ، كما أنه لم يكن ضليعاً فى علوم اللاهوت والفلسفة . وأهم من هذا وذاك أن مارتن لوثر يجسد جميع المتناقضات التى شخصها الشاعر الفذ جوته فى «الدكتور فاوست» : فهو يجمع بين مشاعر اللين والعنف ، الإقبال والإحجام ، الثقة الزائدة بالذات وعدم الشعور بالأمان ، ثم الميل للجدل الصاخب الرنان مع حب للموسيقى الهادئة .

دخلت اللوثرية فى صراع مرير مع الإمبراطور شارل الخامس ، وفى نهاية

المطاف لم يكن هناك مناص من الإعتراف بالأمر الواقع ، ففى ٢٥ سبتمبر ١٥٥٥م ، وبفضل حكمة الأمير فرديناند شقيق الإمبراطور ، ثم الإعتراف بالبروتستانتية اللوثرية، أى بعد وفاة مارتن لوثر بعشر سنوات . وكان هذا الإعتراف إيذاناً بمولد فجر جديد .

الهوامش

(١) **طيبريوس**: كان ابناً لزوجة أغسطس .

(٢) **كاليجيولا**: .اسمه الأصلي جايوس ، أما كاليجيولا فهي كنية له وتعني صاحب الحذاء الصغير . وكان كاليجيولا مختلاً عقلياً ، وقيل إنه فكر في أن ينعم على حصانه بشرف العضوية في مجلس السيناتو .

(٣) **نيرون** : كان ابناً للزوجة الرابعة للإمبراطور كلوديوس ، واسمها أجربينا، وهي التي دست السم لزوجها الإمبراطور كي تضمن العرش لابنها نيرون . وكان نيرون شخصاً منحلاً مخبولاً ومتهوساً بشيطان الشعر والموسيقى ، وكان تلميذاً للفيلسوف سنيكا ولكنه انقلب على أستاذه وقتله .

(٤) Nagle, Brendan, The Ancient World. PP. 228 ff.

(٥) Tertulian, De spectaculis, 22 (All Original references in this part are quoted from : Barton, C. A. , The Sorrows of the Ancient Romans, Princeton University Press, 1993, pp11 ff.) .

(٦) Cyprian, Ad Donatum, 7.

(٧) Petronius, Satyricon, "uri, vinciri, verberare ferroque necari patior." Seneca, Epistulae, 71,23 .

(٨) St. Augustine, Sermones, 20.3 " unusquisque peccator et iniquus iam de se desperans quasi gladiatorium animum .. "

(٩) Lucan, Bellum Civile, 2.113-18.

(١٠) Epictetus, Dissertationes, 4 . 1 148 - 9.

(١١) Tacitus, Annales, 1 . 7 . 1.

(١٢) Tertulian, De Spectaculis, 21: "Ita mortem homicidiis consolobantur.."

(١٣) Seneca, De ira, 2.8.2.

(١٤) Seneca, Suaroriae, 6.17

(١٥) "pro medicinia est dolor dolorem qui nescat"

(١٦) Petronius, Satyricon. 111 - 112.

(١٧) Lucan, Bellum Civile, 1. 109 - 110.

(١٨) Ovid, Metamorphoses, 8. 738.78.

(١٩) Petronius, Satyricon, 119 - 1. 3.

(٢٠) Suetonius, Vite Iliuas, 13.

(٢١) Suetonius, Gaius, 22 - 4 .

(٢٢) Suetonius, Ibid 31.

(٢٣) Seneca, Medea, 426, Naturales quaestiones, 6. 29 : " Si cadendum est, cadam orbe concusso " .

(٢٤) Seneca, De ira, 3. 18.

(٢٥) Plutarch, Antonius.

(٢٦) Petronius, Satyricon, 120 . 84 : " Ispa suas vires odit Romana iuventus" .

(٢٧) Suetonius,Claudius, 21.1 ; "Ludos quos nec spectasset quisquam nec spectaturus esset".

(٢٨) Macrobius, Saturnalia, 2,7,2.

(٢٩) Seneca, Epistulae, 47. 4 - 5.

(٣٠) Dio Cassius 62. 12.

(٣١) الرواقية مدرسة تأسست فى أثينا سنة ٣١٥ ق.م على يد الفيلسوف زينون من مواطنى جزيرة قبرص . ولقد اتخذت اسمها من حقيقة أن مؤسسها كان يستخدم الرواق كمدرسة لتعليم مبادئ فلسفته . الكون عند زينون سرمدى ، دورات لا تنتهى ، وكل حلقة فى هذه الدورات المتعاقبة تستوعب فى مداها فى السر الإلهى . وقد نادى زينون بأن أفضل غايات الإنسان أن يحيا فى انسجام مع الطبيعة ولكى يحقق هذا الانسجام عليه أن يحيا حياة فاضلة ، لأن الفضيلة هى مشيئة الله , كما وأن السلوك الفاضل يولد السعادة . ونادى الرواقيون أيضاً بالأخوة بين البشر أجمعين ، دون تمايز بين إغريقى ومتبربر ، بين حر أو عبد.

(٣٢) Eusebius, Ecclesiastical History, VIII, 2 - 15.

(٣٣) مرسوم ميلان فى حقيقة الأمر كان مجرد رسالة موجهة من قسطنطين

وحليفـه وفى نفس الوقت زوج أختـه ليسنيـوس إلى حـاكـم نيقوميديا فى آسيا الصغرى لإبلاغه باعتراف الحليفين المنتصرين على أعدائهما بالديانة المسيحية جنباً إلى جنب مع الديانة الوثنية .

Eusebius, Vita Constantini (Schaff's ed.), X, 5.3.

(٣٤) على عبدالواحد وافى ـ المقدمة ـ ج١ ـ ص ٣٠٠ ، ٧١٦ ، ٧٢٠ .

(٣٥) Hegel, G. W. F., Lecons sur la philosophie de l'Histoire (trad. Par J. Gibelin, Paris, 1967 , pp.20 ff.

(٣٦) إسحق عبيد ، معرفة الماضى من هيرودوت إلى توينبى ، دار المعارف ، ١٩٧٨ ، ص ص : ٨٥ ـ ٨٨ .

(٣٧) Toynbee, A. A study of History, Vo IV , p. 132: "Neitehr do men put new wine into old bottles, else the bottles break and wine reunneth out and the bottles perish; but they put new wine into new bottles, and both are preserved,"

(٣٨) Cesar, de bello Gallico, 22.5, IV 1.

(٣٩) Seneca, De ira, Lib., 10 , pp. 132 - 134 ; Tacitus, Germania XXII , 4.

(٤٠) Elius Aristides, Discour (ed. Keil), Berlin, 1928, Vol.

II, p. 91.

(٤١) Besnier, L'Empire Romanian de l'avenement de Severes au concile de Nicee, Paris, 1937, p. 176.

(٤٢) المذهب الأريوسي نسبة إلى الكاهن السكندرى أريوس الذى نادى بأن المسيح من جوهر غير مساو لجوهر الأب ، ومن ثم فإن ناسوته يغلب على لاهوته . وقد أدين هذا المذهب بفضل جهود أثاناسيوس السكندرى سنة ٣٢٥م فى مجمع نيقيا المسكونى وتأييد الإمبراطور قسطنطين الكبير له ، ولكن خلفاء قسطنطين الكبير إنحازوا إلى الأريوسية ، التى ظلت سمة من سمات الشعوب الجرمانية فى أغلبها .

(٤٣) Ammianus Marcellinus, Res Gestae, xxx1, 4 - 8, 111: " Proinde permissu imperatoris, transeundi Danubium copiam, colendique adepti Thraciae partes... Ita turbido instantium studio orbis Romani pernicies ducebatur.."

(٤٤) Themisticus, Oratio (ed Petau), Paris, 1684, I, X.

(٤٥) Courcelle, P. Histoire literaire des grandes invasions Germaniques. p.21.

(٤٦) Ambrose, Expositio, X, 10: "Quanta enim proelia et quasopiniones accepimus proeliorum ? Chuni in

Alanos, Haleni in Gothos, Gothi in Taifalos et Sarmatias ..."

(٤٧) Rufinus, Historia ecclesiastica; Orosius, Historia; Jordanes, Getica.

(٤٨) Boissier, G., La Fin du Paganisme, Paris, 1891, t. II. pp26 - 42.

(٤٩) Ambrose, De officiis, in P. L. Vol. Xvl. p. 121 ff.

(٥٠) Zosimus, Historia, v, 6, p. 253.

(٥١) Jerome, Epistula ad Heliod, Lx, 16 (ed. Labourt), t. III, p. 106: " Viginti et eo amplius anni sunt, qoud inter Constantinopolim et Alpes iulias, cotidie Romanus sanguis effunditur ..."

(٥٢) حقيقة الأمر أن الإمبراطور جوليان الملقب بالمرتد (٣٦١ ـ ٣٦٣م) قد قتل بسهم أثنا حربه ضد الفرس ، ولكن أتباعه روجوا لرواية مقتله على أيدى المسيحيين لإذكاء روح العداوة بين أنصار الدين الجديد وأتباع التقاليد الوثنية القديمة . وجوليان هذا كان فيلسوفاً مرموقاً وزاهداً من الطراز الأول ، وقد كان متسامحاً مع الجميع ، وقد نهل العلوم الفلسفية على يد أستاذه ليبانيوس .

See: Libanius, Oratio (ed. Forester), xx1v, 1 - 5 .

(٥٣) Synesius, Peri Basileias, in, P.G., vol.66.

راجع النص الكامل مترجماً إلى العربية عند : إسحق عبيد : من آلارك إلى جستنيان . دار المعارف ١٩٧٧ ، ص ص ١٧٥ ـ ٢٩٠ .

(٥٤) Claudian, de bello Getico (Loeb Classical Library) . London, 1952, vs. 206 - 226.

(٥٥) Jerome, in Dan., 11, 40, In, P. L., vol. xxvl, 504.

(٥٦) Rutilius Namatianus, de reditu suo (ed - Vessereau) , paris, 1983, vs. 41 - 61 .

(٥٧) Zosimus, Historia, 40 , 304.

(٥٨) Jerome, Epistula ad Agercuchiam (Les Belles Lettres) ,t. VII, PP. 91 - 94 .

(٥٩) Codex Theodosianus, VII, 16.2 (ed Mommsen) , I, P . 342.

(٦٠) Jerome, Epistula ad Principiam, (Les Belles Letters) , t. VII pp . 146 - 148.

راجع ترجمة النص الكامل لهذه الرسالة فى ملاحق : « من آلاراك إلى جستنيان » ص ٢٧١ ـ ٢٧٤ .

(٦١) Procopius, De bello Vandalico, (ed J. Haury), Munich, 1913, 1,2.

(٦٢) Augustine, Civitas Dei, (Loeb Classical Library), Lon-

don, 1965,1,16,3.

(٦٣) Ammianus Marcellinus, Res Gestae, III, XXX1, 11,2 - 11, PP. 381 - 387 : .. et deliberatione super rebus propositia seriis, hoc hsbitu omnes in commune consultat...

(٦٤) Priscus, Excerpta de legationibus Romanorum (ed. Bekker) . in C. S. H. B. ,PP. 190 - 195 .

(٦٥) Suidas, Mediolanon (ed. A. Adler), Vol. 1,3, Pp. 346, 349.

(٦٦) Codex Theaodosianus, IX, 40, 24 .

(٦٧) Jordanes, Getica (ed. T. Mommsen), in M . G . H., V.

(٦٨) Le Gall, J., L''itinerarie de Genseric, P. 268 .

(٦٩) Possidius, Vita Augistini, In P . I. Vol ., xxx 11 , 58

(٧٠) Ibid.

(٧١) Leo the Great, Epistulae, in P. L., Vol,Ilv,653.

(٧٢) Victor de Vita, Historia Persecutionis Africanae Provinciae, (ed., M. Petschenig) , 1, 26.

(٧٣) Liber Pontificalis, Vita Leonis, 66.

(٧٤) Victor de vita, Historia, I, 26 .

(٧٥) Procopius, De bello Vandalico, 1,5.

(٧٦) Painter, S., A History of the Middle Ages (284 - 1500) , London, 1966, pp. 89 ff .

(٧٧) كان الكونت يود صاحب أقطانيا على علاقة طيبة مع عرب اسبانيا ، وقد عقد إتفاقاً مع القائد العربى عثمان وزوجه إبنته، على أنه عندما وقع خلاف بين عثمان هذا وبين الأمير عبد الرحمن الغافقى قام الأخير بإلغاء هذا الاتفاق ،ومن ثمّ فإن الكونت يود شعر بالخطر يتهدده فاستنجد بكارل مارتل الفرنجى .

(٧٨) ".. unde ut pontificalis apex non vilescat sed magis quam terreni imperii dignitas, et gloria et potentie decoretur, ecce tam palatiam nostrum quamque Ronanorum urbem et omnes Italiae et occidentalim regionem provincias, loca et civitates, praefato beatissimo papae Sylvestro universsali papae contradimus atque relinquimus..."

راجع النص الكامل للوثيقة فى : اسحق عبيد : الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ـ دار المعارف ١٩٧٧ .

(٧٩) M. G. H. SS. , Annales Regni Francorum : " Ipsa die sacratissima natalis Domini cum Rex ad mis-

sam ante confessionem beati Petri apostoli ab oratione surgeret, Leo papa coronam capiti eius imposuit, et a cuncto Romanorum populo adclamantum est : " Karlo Augusto a Deo caronato, magno et pacificio Imperatori Romanorum, vita et victoria. " Einhard, vita Karoli magni, In S. R. G., in usum Scholarum .

(٨٠) P. L., Vol, C., 301 - 303 : " .. tu vindex scelerum, tu rector errantium, tu consolatro morentium, tu exaltatio bonorum. "

(٨١) Paulus Diaconus, Historia Longobardorum, 1, v, c. 33.

يلاحظ أن كلمة «لومبارد» هى اختصار للفظة Longobardorum أى أصحاب اللحية الطويلة .

(٨٢) Monumenta Gregoriana (ed. P. Jaffe), Berlin, 1865, PP. 174 - 176 : " Quod Romana esclesia a solo domino sit fundata ... Quod solus Romanus Pontifex iure dicatur universalis ... etc. "

(٨٣) اسحق عبيد ـ روما وبيزنطة ، ص ٤٥ - ٤٦ .

(٨٤) Painter, S., A History of the Middle Ages, London, , 1966, pp. 402 ff.

(٨٥) Black Book of the Exchequer, (ed. Hearne) , pp. 43 - 59 .

(٨٦) Haskins, C. H., Norman Instituttions, Cambridge, Mass., I, 1918 (Harvard Historical Studies, xxiv p. 63) .

(٨٧) "Men resemble their own times more than they do their fatehrs. "

(٨٨) " Se me sire est ochis, je voeil estre tues, el se il est perdu avec il me pendés , se il est ars en feu, je voeil estre bruslés, et se il est noîré, avec il me getés . "

(٨٩) Couronnement de Louis " .

" Là tous Jurerent le serment . Tel le jura, qui le tint bravement; Tel aussi , qui ne le tint point du tout'.

(٩٠) Bloch, M., Feudal Society (trans by L. A Manyon) London 1961, p. 286.

(٩١) La chanson de Guillaume (ed .Mc Millan), vs. 1o

seq : " Par Deu, bel sire, cist est de votre line, Et si mangue un grant braun porcin, Et a dous traitz beit un cester de vin , Ben dure guere deil il rendre a sun veisin . "

(٩٢) For Examples : Olivier, Pelerinage de Charlemagne; Girart de Roucillon, La mort de Garin; Lancelot, In the " Arthurian Romances. "

(٩٣) Chronicon Petroburgense, (ed . Stapleton), Liber Niger, 1, p. 157.

(٩٤) Lane - Pole, A., From Domesday Book to Magna Carta, Oxford, 1955, p.52.

(٩٥) Walter of Henley , Treatise on Husbundry, p. 27.

(٩٦) Vinogradoff, P., Villeinage, p. 357.

(٩٧) Gurevich, A., Medieval popular Culture, Cambridge, 1992, Passim.

(٩٨) Ibid, p. 12.

(٩٩) Idem.

(١٠٠) Froissart, "mais entre autres désordonnances et villains faits, ils tuerent un chevalier et bouturent en une broche, et le tournerent au feu, et le rotir-

ent devant la dame et ses enfants. Aprés ce que dix ou douze eurent la dame efforcée et violée, il les en voulurent faire manger et par force".

(١٠١) Luce, S., Histoire de la Jacquerie, 1894.

(١٠٢) Statutes of Realm, II, p. 2 : "The lords of manors, as well men of Holy Church as other, complain that the villeins on their estates affirm them to be quit and utterly discharged of all manner of serf-age ... and which more is, gather themselves in great routs and agree by such confederacy that any one shall aid other to resist their lords with strong hands" .

(١٠٣) Owst, G. R. , Literature and Pulpit in Medieval England, 1937.

(١٠٤) There is reference to these incidents in Chaucer's Canterbury Tale "Nun's Priest's Tale: "Certes Jack Straw and his meinie, Ne maden never shoutes half so shrille, when that they wolden any Fleming kille .."

(١٠٥) Lea, H. C. Histoire, de l'Inquisition au Moyen Age

(French Trans.) Paris, 1900 - 1902, Vol. I. pp. 12 - 20.

(١٠٦) Ibid., p. 51: "Al papa , ad egli respondena coppe, E mandana indulgenze per gli altari".

(١٠٧) Petri monachi coenobii valium Cernaii Historia Albigensium, In P. L., Vol. 213, cols, 543 - 742.

(١٠٨) Qouted fom Lea, op cit., : "No aias merce de la carn nada de corruptio, mais merce de l'esperit pousat en carrcer" .

(١٠٩) إسحق عبيد ـ محاكم التفتيش ـ دار المعارف ١٩٧٨ ، ص٢٣ .

(١١٠) Mansi,Sacrorum Conciliorum, Vol., xxII, 477 B.

(١١١) Chronicon Universale anonymi Laudunensis (ed. Carterllier), Paris, 1909, pp. 20 - 22 .

(١١٢) Detaillis, Ch. Petit. La monarchie Feodale en France et en Angleterre, Paris, 1933 , pp. 308 ff.

(١١٣) Conc. Viennense (1311 - 1312 A. D.), in Symbolorum. pp. 207 - 208: " Qoud illi, qui sunt in praedicto gradu perfectionis et spiritu libertatis, non sunt humanae subjecti obedientiae, nec ad aliqua praecepta ecclesiae obligantur, qui ubi spiritus Domini,

ibi libertas".

(١١٤) Infessura, Diaria rerum romanorum. 1890, p. 288: "..non solus in leto dormivaret."

(١١٥) Infessura, op. cit., Loc. cit. - See also : Portigliotti, G., les Borgia (traduit de l,Italien par Ferrand Haynard, Paris, 1927, pp. 65 - 69.

(١١٦) Portigliotti, op. cit., p. 125 .

(١١٧) Delisle, L., Catalogue de Actes de Philippe Auguste, Paris, 1856. p. 53.

(١١٨) Guirrand, J. H., Histoire de L'Inquisition au Moyen Age, Paris, 1935, p. 61.

(١١٩) Havet, J., l'heresie et le bras seculier au moyen age, Paris, 1880, p. 595.

(١٢٠) "Qui le baptesme refusait, Ne en Dieu croire ne voloit, Floire le faisoit escorchier, Ardoir en fu ou destrenchir."

(١٢١) Hume, M.A.S., Spain, its greatness and decay, Cambridge, 1913, p. 18.

(١٢٢) Ibid., p. 130.

(١٢٣) Ibid., p. 142.

(١٢٤) Froude, J. A., Lectures on the Council of Trent. London, 1914.

(١٢٥) Hume, op. cit., p. 249.

(١٢٦) Lea, op. Cit., IV, p. 524.

(١٢٧) إسحق عبيد ـ محاكم التفتيش ، ص ٨٣ .

(١٢٨) Sismondi, J.C.L. History of the Italian Republics. London, 1907, pp. 256 ff.

(١٢٩) Atkinson, J., Martin Luther and the Birth of Protestantism, 1968, Passim.

(١٣٠) Symbolorum, pp. 257 - 260 (Damnanti in Bulla "Exsurge Domine", 15 june 1520, Pontificate of Leo x (1513 - 1521) : "Certum est, in manu ecclesiae aut Papae prorsus non esse statuere articulos fidei, immo nec leges morum seu bonorum operum .. "

(١٣١) "Ich Kann nicht anders."

(١٣٢) Atkinson, op. cit., loc. cit.

** ** **